

حسن حبشي

مدرس بدار المعلمين العالية ببغداد

نور الدين والصليبيون

حركة الإفافة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

893.713
H113



كتاب لكتاب
كتاب لكتاب

كتاب لكتاب
كتاب لكتاب

تصميم

للكاتب محمد مصطفى زبارة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول

لا مشاحة في القول بأن التاريخ المصرى فى العصور الوسطى — وتاريخ البلاد العربية والإسلامية جميعاً — بحاجة إلى عرض جديد، مزاجه البحث العميق والاستقصاء، حبا فى الوصول إلى الحق. وليس سرا أن السالفين — يرحمهم الله جميعاً بلا استثناء — ساروا على طريقة النقل من المراجع الكبيرة والصغيرة، والمعاصرة وغير المعاصرة، دون رجوع إلى العقل والسنن الكونية، فضلا عن قواعد الجرح والتعديل، كما دأبوا على اعتبار التاريخ ثبثاً جامداً لأخبار الدول، وتعاقب الملوك، وحوادث العزل والولاية، على شرط أن يتخلل ذلك الثبت عندهم من القصائد الشعرية ما يريح القارئ من عناء القراءة، كأنما التاريخ مشقة، أو قطعة من العذاب، ولا بد لقارئه بين الفينة والأخرى، من معلقة أو ملحمة، أو بيتين أو ثلاثة، إذا عدت المعلقات والملاحم، كما يتفكك بها، وهو يقارف المطالعة فى التاريخ. ومن الواضح أن مثل هذا الإنتاج، لا يمكن إلا أن يسمى خليطاً من الأدب والتاريخ، دون أن يرقى إلى التسمية بهذا أو ذاك، وهو على كل حال نمط فاسد، وأنه، وانتهى زمانه، ومات أربابه وأحبابه، والمستطيعون صبراً على قراءته.

وأولئك السالفون من آباء تلك المدرسة وأبنائها وبقاياها، والتابعين لهم من غير إحسان أو إتقان، معذورون فى طريقته، مبتلون بها، لأنهم ينقلون من مراجع تلك طريقته، ويظنون أنه ليس فى الإمكان أبدع مما

كان . وهذا مذهب غريب على التاريخ وأهله ، لأن التاريخ سجل التطور
الإنساني ، وهو لا يعيد نفسه ألبتة ، بل يتوالد بعضه من بعض ، ولا شبه
بين السابق منه واللاحق إلا بمقدار ما بين أجيال الناس من شبه ظاهري .

على أن العرض الجديد للتاريخ المصرى فى العصور الوسطى خاصة ،
وللتاريخ الإسلامى عامة ، لا يمكن أن يتأتى على يد مؤرخ واحد ، مهما حسن
عمله ، إذ الأمر يتطلب أولا إحياء الكثير من الكتب والمراجع بالنشر
العلمى الصحيح ، وتلك عملية طويلة ، ثم يتلو ذلك أبحاث عميقة فى مساحات
تاريخية معينة ، ومواضيع محدّدة ، وتلك أيضا عملية طويلة . وكل هذا وذاك ،
يتطلب جيلا عديدا من المؤرخين الذين يكونون بمثابة الرائدین ، يرودون
القفور والمفاوز والأدغال ، ليمهدوا لأنفسهم ، أو لمن يقتفى أثرهم ، سواء
بالقيام على نشر مرجع من المراجع الأصلية فى التاريخ ، أم بالتوفر على
بحث مشكلة تاريخية واحدة .

وعنوان الكتاب الذى أقدم له بهذه الكلمة القصيرة يدل فى وضوح
على أن صاحبه من الفئة الثانية من أولئك الرائدین ، المدرکین بأن عملهم
سوف يكون حجرا طيبا فى بناء المدرسة التاريخية فى الشرق الأوسط ، إذ
يعالج فى روية وأناة ، وأسلوب فنى ، علاقة نور الدين بالصلبيين ، وهى
ناحية واحدة من نواح متعددة فى تاريخ الحروب الصليبية ، ولا بد من التوفر
على تلك النواحي المتعددة ، بأبحاث منفردة مشابهة ، حتى يصبح من المستطاع
كتابة تاريخ الحروب الصليبية من الناحية الشرقية ، على وجه سليم . أما
الاعتماد على فهم الحروب الصليبية وتدريسها من الناحية الأوربية فحسب ،
ومن المراجع الأوربية فحسب ، فإنه لم يعد جديرا بالشرق الحديث .

ومما يجعل موضوع هذا الكتاب قينا يبحث منفرد ، أن العلاقات بين
نور الدين والصلبيين هى نقطة التحول فى تاريخ تلك الحروب ، لأن الأساس

الذى استطاع نور الدين أن يقيم أركانه ، هو الذى مكّن لصلاح الدين فى أرض مصر وفلسطين والشام وشمال العراق ، وساعده على إنجاح الحرب الخاطفة التى شنها على الصليبيين قبل حطين وبعدها ، حتى بات رتشارد قلب الأسد — ملك إنجلترا — يفكر فى إحلال المفوضية والمخالفة ، والصداقة والسلام ، محل المقاتلة والمناضلة ، والعداوة والقتال . وربما كان استيلاء نور الدين على دمشق ، سنة ١١٥٤م ، أكبر دليل على صحة الدعوى بأن أعماله هى نقطة التحول فى تاريخ الحروب الصليبية . وأبلغ من ذلك فى إثبات تلك الدعوى استيلاء نور الدين كذلك على مصر ، سنة ١١٦٨م ، بفضل قاداته الطامحين من بنى أيوب ، إذ المعروف أن مصر صارت مركز الهجوم والدفاع عن الشرق الأوسط ضد الصليبيين منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى فصاعداً ، وإليه يرجع الفضل فى إخراج الصليبيين نهائياً من الشام وفلسطين . على أن أفضال نور الدين لا تقف عند ذلك الحد البعيد ، بل يدل نجاحه فى توحيد الشرق الأوسط على ما تستطيعه البلاد الشرقية من الحياة الكريمة ، والهيبة والكرامة ، إذا توحدت أجزاؤها . وإذا كانت وسائل ذلك فى العصور الوسطى هى الفتوح والنصر القريب والبعيد ، فإن من وسائل التعاون الحديث فى ميادين الثقافة ، والاقتصاد ، والتعليم ، ما يكفل الوصول إلى تلك الغاية الضرورية لإضاءة الهلال الخصيب وبلاده وأطرافه التى صارت فى نظر الدول الأوروبية وحدة إقليمية ، كما ظلّت فى نظرهم زمن الحروب الصليبية .

وتبين تفاصيل استيلاء نور الدين على دمشق فى الفصل الثالث من هذا الكتاب اللامع ، حيث قضى نور الدين قضاء مبرماً على فكرة التوسع الصليبي جنوباً ، كما تبين أخبار الاستيلاء على مصر فى الفصل الرابع منه ، حيث يبدو واضحاً أن توفيق نور الدين فى تلك الناحية لم يرد إلى إزالة الخلافة الفاطمية فحسب ، بل تعداه إلى وضع الصليبيين بين شقي الرحى التى طحنت قواهم ، فى دأب واستمرار ، إلى أواخر الحروب الصليبية .

على أن لهذا الفصل الرابع أهمية أخرى ، وهي احتواؤه على صفحات مبتكرة تغير ما توارد في كتب المؤرخين بصدد بعض الحملات الصليبية ، لإخراج صلاح الدين وزير نور الدين من مصر . إذ المتوارد في تلك الكتب أن أموري — ملك بيت المقدس — حالف مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية ، وروج ملك صقلية ، لتنفيذ هذا الأمر ؛ والحقيقة — كما بينها المؤلف من المراجع الأصلية العربية والأجنبية في ذلك الفصل — هي أن كلا من أولئك الملوك عمل لحسابه طواعية لتحقيق أغراض اقتصادية بحتة ، متبعها ما للبلد الإيطالية من أثر في توجيه الصليبيين وغير الصليبيين ، منذ أن فتحت أسواق الشرق أبوابها للتجارة ، وصار البلد الإيطالية جاليات تجارية قوية .

وللفصل الخامس من هذا البحث ميزة تستوجب الانتباه ، إذ عالج فيه المؤلف موضوع العلاقات الاجتماعية السلبية بين الصليبيين والمسلمين ، رغم ما بين الفريقين من حرب متواصلة أحيانا ، متقطعة أحيانا أخرى ، وهو موضوع لم يسبق إليه بين المحدثين .

كل ذلك في أسلوب على يستشف منه أن المؤلف أوسع موضوعه — وحول موضوعه — قراءة وفهما ، وتحليلا وإمعانا ، في معرفة التفاصيل ، مع العناية بإبعاد التفاصيل عن سبيله في الكتابة ، وهو هنا مبتكر أيضاً إلى درجة لا يشاركه فيها إلا الأقلون من أبناء هذا الجيل ، فإن التاريخ ليس مجرد تدوين لتفاصيل أحداث الإنسان على نمط أصحاب الحوليات ، بل هو نقد وتحليل ، وشرح للقيم الحقيقية ؛ وهذا لا يتأتى طبعاً إلا بعد تحقيق التفاصيل وتمحيصها وهضمها ، وتقديم عصارتها تاريخياً يقرؤه الناس .

وأذكر أن المؤلف لم يأل جهداً في عمله ، ولم يحسب الوقت أو للامتحان ومواعده حساباً ، بل كان هدفه أن يخرج رسالة علمية خالصة ، في حجم معقول ، لا ضخامة فيها ولا تطويل ، ولا تنطع ولا رسوب في الأسلوب ، وأرجو

أن يلزمه التوفيق لمثل هذا النمط فيما يزعمه من التأليف ، وفيما سوف يتأهل
به لمكانة لائقة بين أفذاذ المؤرخين .

على أنى لا أقصر هنا على مجرد التمنى لمؤلف حديث وهو في أول الطريق ،
بل أرجو كثرة من أمثاله الذين تطمئن بهم قلوب أهل النهضة الحديثة ، كما
أرجو كثرة من أمثال كتابه الذى يعد بحق نموذجا فى التأليف الحديثة ، فى
المكتبة العربية الناهضة .

محمد مصطفى زبارة

بفداد الجديدة { رجب ١٣٦٧ هـ
مايو ١٩٤٨ م }

مقدمة المؤلف

في هذا الكتاب بحث مقارن في أطوار العلاقات بين السلطان نور الدين وملوك الصليبيين، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، قدّمته لقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير، ولم أغير من صورته الأولى لإقليل، مما اقتضته معاودة النظر في الموضوع ثانية. وعلى أية حال ملأت به بعض وقتي أثناء اشتغالي به، وجعلت همي الأول مطالعة المصادر الأصلية في العربية واللاتينية، إلى جانب المراجع الإنجليزية والفرنسية الحديثة، المتعلقة بالشرق الأدنى في ذلك القرن الذي شهد حركة إفاقة عامة في البلاد الإسلامية بعد أن حل الصليبيون في بعض أرجائها، وقد بدت تلك الإفاقة أول ما بدت بشمال العراق، ثم استتضات بها شخصيات الشام، حتى سطعت نهائيا في قيام الدولة النورية، ومحاولتها الناجحة في تكتل القوى الإسلامية لدرء الخطر الصليبي، وسبيل ذلك توحيد مصر والشام وشمال العراق تحت راية واحدة. وأحسب أن أمثال هذه الموضوعات، هي بعض ما يجب أن ينصرف إليه هم المشتغلين بالتاريخ الإسلامي في العصر الوسيط، لتجلية ما بالشرق من طاقات واستطاعات، وما يكمن فيه من وعى قومي يرمي إلى اعتبار الكتلة الممتدة من أطراف آسيا العربية إلى وادي النيل وشمال إفريقيا وحدة إقليمية، متشابهة الخصائص، متجانسة الصفات، متحدة الأسس والأهداف؛ وحوادث العصور الوسطى في الشرق الأدنى تشرح كيف تمكنت تلك البلاد من أن تدفع عن نفسها خطر القوات الصليبية، وأن تفسد أغراضها المتضاربة بفضل ذلك التكتل.

ويخال بعض القراء عند مطالعة عنوان هذا الكتاب أنهم سوف يجدون بين دفتيه عرضا لحياة نور الدين، منذ ولادته حتى مماته، وأخشى أنهم سوف يجدون غير ذلك، لأنني لم أكتب ترجمة لنور الدين، ولم أتعرض

لما بنى من المباني والعائر والربط والمساجد، بل إتنى شديد الكراهية للصورة التي يحاول بها بعض الكتاب المسلمين الترجمة لنور الدين، إذ يتخيله البعض رجلاً تقياً سهلاً في زى ملك، ألقت إليه الصدقة بزمam الحكم، وما ذلك عن كراهية من تلك الصفات - وهى جديرة بالاحترام - ولكن لما يسمونه له من صورة الدرويش، على حين أن الذين يستعرضون تاريخه يتجلى لهم فى وضوح مقدار الدهاء الذى انطبع عليه السلطان نور الدين، وهو يحرك الشخصيات المختلفة، لتحقيق فكرة الجهة الإسلامية المتحدة، وتكونها من القوى الصغيرة المشتتة، التى دبت فيها عوامل الضعف السياسى والاجتماعى والمذهبي، وبجمل القول أن نور الدين - فى أى وضع - رجل تساوت فيه نواحي الإبداع والعظمة من الناحيتين الروحية والسياسية.

والواقع أن الذى يطالع المصادر الأولى لهذا العصر لا يجد إلا انتقام بعثرة هنا وهناك لتقدير تلك الشخصية، لأن أصحاب تلك المراجع اهتموا - إن كانوا مسلمين - بإبراز الجانب الدينى فى نور الدين والمبالغة فى تقواه - وإن تكن غير منكورة - مما يخلل معه للقارىء أن السلطان كان منصرفاً إلى شئون أخراه بدرجة تصرفه عن معالجة شئون دنياه، وعالمه يومئذ علم يضحج بالصراع العنيف بين الشرق والغرب، ومظهره قيام الإمارات اللاتينية بالشرق، ومحاولة المسلمين القضاء على هذه الإمارات ذاتها. وهؤلاء الكتاب المسلمون مثابون بقدر نواياهم.

إما إن كانوا مسيحيين فتتجلى عظمته من حيث وصفهم لأعماله فى كثير من السخط أحياناً، واللعن أحياناً أخرى، ورب لعنة كانت أصدق من المدح فى الدلالة على أهمية الشخص، وهنا تتجلى صنعة المؤرخ فى استخلاص الحقيقة من أى مصدر، بالغاً ما بلغ فى المدح أو القبح.

ولا أحب أن استعرض فى هذه الكلمة فصول الكتاب، إذ أتركة يتحدث عن نفسه، لكننى أشير عرضاً إلى العلاقات السلمية بين المسلمين والصليبيين، لأن طبقات المجتمع فى هذا العصر هرمية، قتها السلاطين

والخلفاء والأمرام في المجتمع الإسلامى ، والباطرة والدوقات والقوامس
في المجتمع الصليبي ، أما ما تحت هذه القمة في كلا الجانبين فطبقات الشعب ،
وإذا كان هناك تنافر ما فإنه يقتصر على القميتين ، وأما ما سواهما فعلاقات من
المودة والرحمة والترابط ، التي تسمو إلى درجة الأخوة ، وأى سمو فى الأخوة
أجل من أن يفتح المسيحي كنيسة السلم للصلاة فيها !

وإننى لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة إلا بشكر أستاذى الدكتور
مصطفى زيادة الذى أتممت هذا البحث تحت إشرافه وإرشاده ، كذلك أرفع
الشكر لأستاذى صاحب العزة شفيق بك غربال وكيل وزارة المعارف
العنصرية ، لتشجيعه المتواصل إياى وغيرى من أبناء المدرسة الحديثة فى التاريخ .
وأزجى شكرى لأستاذى الدكتور حسن ابراهيم حسن ، لتفضله بالمشاركة
فى امتحان الماجستير والمناقشة ، ولا أحب أن يفترق التثوية بفضل مسيو
كوينتز M. Quentz ، مدير المعهد الفرنسى للآثار المصرية بالقاهرة ، إذ
تفضل فأذن لى بمراجعة ما أريد من مكتبة المعهد .

وبعد فأرجو أن أكون وفقت بعض التوفيق فى تبيان شئ من
ملاحظ ذلك العصر الغامضة ، وحسبى ذلك ، والسلام .

م. م. م. م.

منيل الروضة - القاهرة

الأحد ٢٦ سبتمبر ١٩٤٨

الفصل الأول

القوى الإسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى

في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي

ظهور حركة مقاومة الصليبيين بشمال العراق . حركة مودود الأولى سنة ٥٠٤ هـ . استغاثة رضوان بالخلافة العباسية . إعلان أهل بغداد للجهاد . حملة مودود الثانية ٥٠٥ هـ . اتحاد أمراء شمال العراق والشام . مقتل مودود . حملة إيلغازي لنجدة حلب . قيام ملك بالدعوة للجهاد وأسر جوسلين الأول ثم بلدوين الثاني . قيام آق سنقر في إمارة الموصل . مقتله على يد الحشاشين . ظهور زنكي بالموصل . محاولته تكوين جبهة إسلامية بالقوة . موقف دمشق . موقف صفوة الملك زمرد خاتون منه وزواجها به . حصاره بعلبك . اصطدامه بالتحالف الدمشقي الصليبي . جوسلين الثاني . زنكي والرها . سقوطها في يده ٥٤٢ هـ . معاملته لمختلف الجماعات بها . مقتله ٥٤٤ هـ .

طلع القرن الثاني عشر الميلادي على المسلمين وقد تكونت بالشرق الأدنى أربع قوى صليبية ، هي مملكة بيت المقدس وإمارات أنطاكية وطرابلس بالشام ، والرها بشمال العراق^(١) ، وكان للمملكة بيت المقدس الرئاسة على تلك الإمارات ، وإنما تزيد هذه الرئاسة أو تنقص تبعاً لشخصية المهيمن على شؤون المملكة ، كما يتضح ذلك من عهد بلدوين الأول (١١١٠ - ١١١٨ م) وفولك الخامس (١١٣١ - ١١٤٢ م) اللذين جعل كل منهما من شخصيته مؤثلاً وملاًذاً وناصباً لبقية أمراء الصليبيين بالشام واستتب الأمر

(١) فيما يتعلق بتفصيل تكوين هذه الإمارات اللاتينية ، راجع حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٤٨ - ٨٠ .

للصليبيين في تلك الجهات الأربع منذ قيامهم بها تقريبا ، ويرجع معظم الفضل في ذلك الاستتباب لما ترددت فيه الإمارات والجماعات الإسلامية من ضعف ظاهر للعيان ، فضلا عن الانشقاق المذهبي الناشب بين خلافة بغداد السنية وخلافة القاهرة الشيعية مما سهل على الصليبيين زحفهم إلى قلب فلسطين في كثير من الأحيان ، ولو تأتى للأقطار الإسلامية أن تتحد يومذاك فيما بينها ، وتنسى ما بين بعضها والبعض الآخر من الحزازات لاستطاعت أن تحفظ فلسطين من عبث الطارق الأجنبي ، وأن تحفظ بالتالى نفسها من تطلع هذا الغريب إليها ، ذلك أن فلسطين هي خط الدفاع الأول عن بقية العالم الإسلامى في الشرق الأدنى .

غير أن فكرة الوقوف في وجه الصليبيين أخذت تنمو في مستهل ذلك القرن بين أفراد قلائل من المسلمين بشمال العراق أولا ثم ببلاد الشام ولكنها لم تنضج تماما ، فلم يكن الدحارين «عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد»^(١) ، ولعل فكرة مناهضة الصليبيين قد وجدت بفضل زوال الخوف الذى استولى على مختلف القوى الإسلامية في بادىء الأمر من تقدم الصليبيين السريع في الشرق ، وبروز المطامع الشخصية بين زعماء الصليبيين أنفسهم ، حتى أخذ بعضهم في السكيد للبعض الآخر ولو اقتضى الأمر من أحدهم محالفة خصوم أبناء جنسه ودينه ، مع أنه لم يمحض على مجيئهم للشرق إلا بضع سنين .

أما العالم الإسلامى يومذاك — باستثناء مصر والعراق — فكان مؤلفا من ولايات صغيرة لا تعدو الواحدة منها — في بعض الأحيان — بلدا واحدا ، وكلها متنافر سياسيا ومذهبيا ، وأهمها حلب وأميرها رضوان الذى قصر في مساعدة القوات الإسلامية وتركها تواجه الصليبيين وحدها مما أدى إلى هزيمة الدماشقة عند بلدة « البارة » سنة ٤٩٠ هـ^(٢) . وتنبه رضوان —

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن القلانسى : شرحه ، ص ١٣٤ + Raym. d'Agiles , p. 244 ; G. T., p. 184 .

بعد لآى — إلى الخطر الصليبي ، فاتحد مع سكان صاحب خلاط ومع ابن ياغى سيان فى أنطاكية على مباغته العدو الزاحف جنوباً صوب أنطاكية بقيادة بوهيمند النورمانى فى فبراير ١٠٩٨ م ، إلا أن المسلمين لم يوفقوا فيما اعتزموه^(١) .

ثم هناك شيزر العربية الخالصة التى أرادت أن توجد لها مركزاً سياسياً مستقلاً عن السلاجقة بإيثارها العافية مع الصليبيين^(٢) ، وهذه سياسة نهجها بنو منقذ الكنانيون فعدوا فى تاريخ تلك الحقبة مثلاً للسلامة والأخوة وأمثال هذه الصفات ، فلم يكونوا رغم كثرتهم فى شىء من الشر وإن هان ، فترام يحزون من ظلم الصليبيين مغفرة ومن إساءتهم إحساناً .

أما دمشق فكانت وقت مقدم القوات الصليبية الأولى تحت إمرة طغتكين الذى عقد مع بلدوين الأول ملك بيت المقدس سنة ١٠٩١ م معاهدة اتفاقاً بمقتضاها أن يتقاسم الاثنان مع الفلاحين أرض السواد و عجلان وجبل عوف^(٤) . على أن تلك التوفيقات التى صادفها الصليبيون أنتجت سلسلة من الأمراء المسلمين الذين حملوا علم الجهاد بشمال العراق ، لا سيما بعد أن بدا عجز السلاجقة عن الوقوف فى وجه الصليبيين . لكن ما هى علة ظهور حركة المقاومة فى شمال العراق خاصة دون بقية نواحيه ودون بقية العالم الإسلامى عامة ؟ ... لعل نظرة إلى الخريطة تفسر لنا السبب ، وهو متاخمة الرها التى استولى عليها الصليبيون لذلك الإقليم الذى أدرك أهله أن لابد من تطلع

(١) Gesta Francorum, p. 85; G. T., p. 194—199. حبشى : الحرب الصليبية الأولى . ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) Gesta Franco., p. 181, note 6, G. T., p. 295.

(٣) Derenbourg : Vie d'Ousama, t. I, p. 15 — 28, Ency. Isl. art. Shaizar, (٣)

J. R. A. S., 1933, p. 279.

(٤) لم يلبث ملك بيت المقدس أن قفص هذه المعاهدة ، راجع ابن القلانسى ، القيل ،

Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades, p. 92

ص ١٦٤ ، ٢٧٤ ،

Grousset : Hist. des Croisades, t. I, p. 678 — 684.

وراجع للمحقق الوارد فى

الصليبيين — أن آجلا أو عاجلا — للتوغل في بلادهم وانقضاضهم على أطراف تلك المناطق العليا من العراق عند أول فرصة ملائمة ، وهكذا لعبت الجغرافية دوراً هاماً في بعث المسلمين على التفكير الجدى في المبادرة إلى مهاجمة المسلمين ، وبدءوا بالرها ذاتها .

كانت الرها من أقرب البلاد إلى نفوس المسيحيين من الناحية الدينية ، بسبب ما يزعمونه من القوى السحرية الفعالة لبعض قديسيها أمثال مار برسومة ، واعتزازها بمنديل المسيح^(١) ، وقد أصبحت الرها بعد استيلاء الصليبيين عليها سنة ١٠٩٨ م من أمنع المعاقل بفضل تحصيناتها لها ، ولم يخف على المؤرخين الذين كتبوا بصدد هذا مقدار الأهمية التي ينعم بها من تكون الرها في يده ، لتوسط موقعها ولسيطرتها على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل^(٢) ، فهي تقع على وجه الإجمال غربي دجلة وتصل جنوباً إلى الصحراء وتوجد في شمالها جبال أرمينيا^(٣) ، ولقد كانت هذه الحدود قديماً عرضة للتغيرات بتغير العصور والأمم المجاورة ، ومهما يكن الأمر فقد كانت في الغالب بمنجاة من أيدي المغيرين^(٤) ، أما سكانها فأغلبهم من الأرمن الذين لعبوا دوراً غير تافه في تاريخ تلك الحقبة واتجهت أهواؤهم إلى الصليبيين ، لذا كان طبيعياً وقت ذاك أن يفكر كبار الأمراء المسلمين في انتزاعها من أيدي الصليبيين ، واتخذت الفكرة مظهرها العملي سنة ١١٠٩ م في اتفاق رضوان أمير حلب وإيلغازي أمير ماردين على الإغارة على أملاك تنكريد النورمانى أمير الرها ، غير أن الجفوة لم تلبث أن دبّت بينهم ، وسرعان ما تحولوا إلى محاربة سنقر أمير الموصل ، ومن ذلك وحده يظهر

Migne : Ency. Theol. arte "Edesse". (١)

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٤ ، Gussaud : Topographie Hist. de

la Syrie , p. 482 ; Stevenson : Crusaders in the East , p. 153. (٣)

(٤) يذكر Duval : Hist. Pol. Relig d'Edesse , p. 97. أن للرها سنة

Docum. Arm., t. 1, p. G. T., p. 708 أيضا ١٨٩١ ، أنظر أيضا p. 340 — 342.

جليا أن فكرة « الجهاد » لم تكن محتمة في النفوس تماماً ، وأن حركة بعض الأمراء المسلمين وقتذاك لم تكن خالصة لوجه الجهاد .

على أن الفكرة لم تلبث أن ظهرت قوية على يد مودود أتابك^(١) الموصل سنة ١١١٠ م ، إذ اغتنم فرصة استغاثة القاضي ابن عمار^(٢) أمير طرابلس بالخليفة البغدادى المستظهر بالله لدرء الخطر الصليبي عنه وأعلن الجهاد بعد موافقة الخليفة ورضاء السلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه . وخرج مودود بجيش كبير وإن كان الانسجام مفقودا بين عناصره ، فرحف أولا على أطراف الرها — وهى أقرب الإمارات إليه — حتى لا يطعن من الخلف إذا تقدم صوب طرابلس ، ولعل ما شجعه على ذلك أيضا ما ترامى إلى سمعه من التنازع وقتذاك بين بلدوين دى بورج أمير الرها وبين تنكريد أمير أنطاكية ، فطمع مودود أن تيسر الجفوة بينهما عليه فتح الرها ، وكيفا كان الأمر فمن الطبع أن يتطلع مودود إلى ضرب تلك الإمارة بعد أن انضم إليه إيلغازى أمير ماردين وسكمان القطبي أمير خلاط وميافارقين ، فرحف صوب الرها وألقى الحصار عليها سنة ١١١١ م^(٣) .

لم يكن من العسير على مودود فتح الرها لما اجتمع عنده من العسكر الكثيف والرغبة في الجهاد ، هذا إلى الجفوة التى استحكت حلقاتها بين بلدوين

(١) أجل ابن القلانسي ، ص ١٨٨ ، سيرة مودود ، أما تفسير « أتابك » في الدولة السلجوقية فراجع عنه دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « أتابك » .

(٢) ولى بنو عمار أمر طرابلس منذ ١٠٧٠ م ، وهم سلالة أسرة شيعية انحدرت من بلاد المغرب مع الفاطميين ، وتولت حكم طرابلس شبه مستقلة عن مصر حتى جاء الصليبيون فهددوها بزعمامة كونت تولوز ، راجع تاريخها بالتفصيل في حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٧٦ — ٧٩ ، ابن القلانسي ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٧٨ — ١٨٠ ، وابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٢٨ ، والدائرة ، مادة « ابن عمار » وطرابلس ،

Gesta, p. 185 — 188 ; Raym. d'Agile, p. 275, Derenbourg : Autobiographie d'Ousama p. 378 seq., Dussaud : Topogr. Hist. p. 84.

Albert d'Aix : Liber Christianae (R. H. Occ. Cr.) t. IV, p. 670 ; (٣) Matthiew d'Edesse, p. 91.

دى بورج وبين تنكريد ، غير أن آماله ذهبت بددا لإزالة بلدوين الجفوة بين الأميرين الصليبيين وجمعه كثيرا من الأرمن تحت رايته وسيره بهم شطر الرها ، مما حمل مودودا على رفع الحصار والرجوع عن محاولته ، وبذلك فشلت أول محاولة في سلسلة «الجهاد» ضد الصليبيين في تحقيق أهدافها ، وإن دلت في الوقت ذاته على إفاقة القوى الإسلامية ، وليس أدل على تلك الإفاقة من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة في البلدان المستظلة بظل الخلافة العباسية واعتناقها إياها إلى حد أنذر الخليفة العباسي بوجوب الانتباه إلى الروح الجديدة التي تمثلت في قدوم جماعة من أشرف حلب وصوفيها وتجارها وفقهائها إلى بغداد مستغيثين من إفساد الصليبيين في بلادهم ، إذ اجتمع أهل بغداد وقت صلاة الجمعة في شعبان ٥٠٤ هـ وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحظموه ، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد ، وزادوا فتمنعوا الناس من الصلاة — وهو حدث جد خطير في الدولة الإسلامية — وتكرر هذا الحادث مرة أخرى بمسجد الخليفة ذاته ^(١) .

ويرجع مقدم الحليين إلى بغداد إلى أن تنكريد وجد — حين رجوعه من الرها إلى أنطاكية بعد جلاء مودود — أن رضوان ملك حلب أغار على أنطاكية في غيبته وذلك رغم مواعدة مبرمة بينهما ، وكان الدافع لرضوان على تقرير تلك المحاولة ما جال بخاطره من أن الأمر أوشك أن ينتهي بالخلاص من الصليبيين على يد مودود وأحلافه أمام الرها ، فطمع أن يساهم بنصيب في محاربتهم بالإغارة على أنطاكية ، لكن الحوادث جرت على غير ما توقع وتمنى ، فلم يستطع الاستمرار في حملته على أنطاكية بل انعكست الآية حين خرج تنكريد سنة ٥٠٤ هـ متخشن الصدر على حلب وأهلها وأميرها ، وعاث فسادا في بعض نواحيها ، وأسرف في الانتقام من المسلمين الذين صادفهم ، ولم يكتف تنكريد بذلك بل ازدهاه النصر فتقدم إلى

(١) ابن القلائس : الدبل ، ص ١٧٣ .

الآثار — وهى من أملاك حلب ومن أقوى الحصون الإسلامية إذ
ذاك — واشتد فى حصارها حتى سقطت فى يده فى ديسمبر ١١١٠ م
(= ٥٠٤ هـ) ، وتتابعت انتصارات تنكريد بعد ذلك فى القرى المجاورة .
وهكذا أدت سياسة رضوان إلى هزيمته ، وهل هناك ما هو أدل على تدهور
أحوال حلب من اضطرارها إلى دفع جزية كبيرة إلى أمير أنطاكية بعد
ذلك كله ^(١) ؟ وتلك الأحوال هى التى حملت بعض الحلبين قبلا إلى قصد
بغداد طالبين من الخليفة إعلان الجهاد ، كما أدت بالكثيرين من أهلها إلى
النزوح عنها والتماس الحياة حرة فى أماكن أخرى .

أدعن الخليفة وقتذاك لمظاهرة البغداديين لإغاثة الحلبين ، وشجعه على
تلك الحركة أن الكسيس كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية كتب إلى السلطان
محمد السلجوق يستعديه على الصليبيين لما رآه فيهم من سوء النية ، كما بعث
إلى السلطان بكثير من الهدايا والتحف ، وأنفذ الكتب يطلب إليه الإيقاع
بالفرجة ويعرض عليه اتفاق القوات البيزنطية والإسلامية على طردهم ويشير
من طرف خفى إلى نواياهم فى قصد بلاده ، إذ يذكر أنه منعهم من « العبور
إلى بلاد المسلمين » . وغير بعيد أن يكون الكسيس قد رمى من وراء ذلك
كله إلى ضرب القوات الصليبية بالإسلامية ليفرغ له الجو وليضعف كلا من
الجانبيين ، ومع أن هذا رأى قد خفى على المسلمين إلا أن عزيمة بغداد
استقرت على وجوب تسيير الجيوش للجهاد ، ومن ثم أُلقيت القيادة مرة
أخرى إلى مودود سنة ٥٠٥ هـ (= ١١١١ م) ، فتوافد عليه أمراء النواحي
المختلفة بجنودهم وغلبانهم ، ودبت فى القوم الحماسة تذكيا شتى العوامل ، منها
ما هو دينى ومنها ما هو شخصى بحت . وخرج مودود فى سنته هذه بتلك
القوى قاصدا الرها معقل الصليبيين الأشب ، فعزت عليه هذه المرة أيضا
بسبب وجود بلدوين الأول ملك بيت المقدس بها وقتذاك فرأى مودود

(١) راجع الشروط فى ابن العديم : منتخبات ، ص ٣٩٨ ، وابن الأثير ، الكامل ،

الانصراف عنها إلى ضواحيها ، ومال بمن معه إلى تل بآشر أملا في أن يجد في الاستيلاء عليها ما يعوضه عن الارتداد عن الرها . واشتد مودود في حصار تل بآشر^(١) التي دافع عنها صاحبها جوسلين الأول ، وكادت البلدة أن تستسلم لولا أن عمده جوسلين إلى رشوة أحد القادة المسلمين واسمه أحمديل الكردي فأبى هذا القائد مواصلة الحصار ، وأشار بوجوب الرحيل عنها لنجدة حلب^(٢) التي كان تنسكريد النورماني قد عزم على التثكيل بصاحبها رضوان انتقاماً منه بسبب مهاجمته لأنطاكية من قبل في غيبته ، وتظاهر أحمديل الكردي بوجوب استغاثة رضوان بجيش مودود الذي خاف مغبة الانشقاق في صفوفه ، فنزل على إرادة أحمديل ، وتحويل مودود بمن معه إلى حلب ، وأغذ القوم المسير حتى بلغوها ، ولكنهم لم يجدوا من أميرها ترحيباً إذ فرغ من كثرة عددهم ورفض السماح لهم بدخولها أو مديد المساعدة لهم ، رغم أنهم قدموا لنجدة واستجابة لدعوة الحلبيين أنفسهم ، وظل مودود أمام أبواب المدينة حتى انصرف عنه معظم قواده ورجاله مؤثرين العودة إلى أوطانهم .

على أن مقدم مودود إلى حلب — وإن لم يرد إلى نتيجة ما — فإنه نقطة انتقال هامة في تاريخ حركة الإفاقة الإسلامية ، إذ يبدو أنه أدى إلى تطلع مودود لمهاجمة الصليبيين بالشام ذاتها ، وإلى تفكيره في القطع بينهم وبين الرها ، وبذلك انتقل مسرح النضال بين زعماء حركة الإفاقة الإسلامية وبين الصليبيين إلى أرض الشام ، ومن ثم أخذ مودود في التقرب إلى بعض الأمراء الشاميين من المسلمين ، فانعقدت المودة بينه وبين طغتكين أتابك دمشق ، واتفق

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، وابن الشحنة : الدر المنتخب ،

ص ١٦٩ .

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ١٧٥ ، وابن العديم : منتخبات ، ص ٥٩٩ — ٦٠٠ ،

Matthiew d'Edesse, Chroniques, p. 114 — 115.

رأيهم ما على مهاجمة الصليبيين في طرابلس ، ووعدهما سلطان بن منقذ أمير شيزر بالمساعدة ، وهكذا ظهرت بادرة من الاتحاد بين الأمراء المسلمين بشمال العراق وبلاد الشام لأول مرة منذ مقدم الصليبيين إلى الشرق ^(١) .

غير أن تلك الحملة التي هاجمت طرابلس سنة ١١١١ م لم تستطع تحقيق شيء ما للحلول فصل الشتاء ، لذا رحل مودود عن الشام ، ثم مالبت بلدوين ملك بيت المقدس أن أغار على بعض قرى دمشق سنة ١١١٣ م ، فكتب طغتكين إلى مودود يطلب إليه القدوم إلى الشام مرة أخرى ، واجتمع الأميران بمرج سلبية ^(٢) وذهبا معا إلى دمشق لإعداد العدة ، وهناك قتل مودود بيد أحد الباطنية في تلك السنة ، فكان مصرعه ضربة للجهاد الإسلامي وإنقاذا للجماعات الصليبية ، لكن إلى حين .

ذلك أن فكرة محاربة الصليبيين هدأت مؤقتا بعد مقتل مودود لاضطراب الأمور بين أمراء المسلمين بشمال العراق ^(٣) ، كما ساور الشك نفس السلطان محمد تجاه طغتكين ، ورأى أن مقتل مودود إنما هو أمر مدبر بين طغتكين وبين الحشاشين ، وطبعي أن يؤدي هذا السوء في الظن بطغتكين إلى الجفوة بينه وبين السلطان السلجوقي وإلى خمود فكرة قتال الصليبيين ، لكن الفكرة ما لبثت أن انبعثت من جديد على يد إيلغازي فحمل الراية بعد مودود ، وكان الخطر الصليبي لا يزال محققا بحلب من ناحية أنطاكية التي تولى أمرها روجر (١١١٢ — ١١١٩ م) بعد تمكريد ، إذ أدرك هذا الأمير الجديد ما تحت الوثبات الإسلامية السالفة من معنى ، فأراد أن يهزمها بالحرب قبل استواء عودها ، وتبين له أن في قدرة الإمارات الإسلامية

(١) ابن القلانسي : الأدبل ، ص ١٧٥ ، ١٨٤ — ١٨٥ ، Albert d'Aix, Op. Cit., p. 693 — 696 ; Metthiew d'Edesse : Chronique, p. 107 — 108, G. T., p. 486.

(٢) ابن القلانسي : شرحه ، ص ١٨٥ ، Stevenson : Op. Cit., p. 62 — 63.

(٣) راجع الدائرة مادة « إيلغازي » .

المختلفة — إذا اتحدت جهودها — أن تقذف بالجماعات الصليبية من الشرق ، سواء أكان ذلك عن طريق الحرب أم المقاطعة الاقتصادية . لذلك تطلع روجر لأخذ حلب فقام سنة ١١١٩ م بالإغارة على بعض بلادها ، واستولى على « بزاغة »^(١) وضيق على حلب نفسها حتى كادت أن تعدم القوات ، ولم يرجع عنها حتى قاسمها بعض المناطق الواقعة قرب أبوابها ، فالتست حلب النجدة من بغداد مرة أخرى فلم تنلها ، فاتجهت نحو إيلغازي فوجدت فيه مليها لها بالعتاد والرجال ، وخاف صاحب أنطاكية من تخرج الأمور بإمارته إذا ما ترامي بين أهلها خبر النجدة الإسلامية ، فاستغاث ببلدوين الثاني ملك بيت المقدس لقرابته منه^(٢) . غير أن روجر استبطأ النجدة الصليبية فقام بمهاجمة « إيلغازي » دون أن يأخذ للأمر أهبة من القوة ومن رباط الخيل ، فانتصر عليه أمير ماردين ، واستولى منه على حصن « قسطون » غربي معرة النعمان ، وكانت خاتمة النصر مقتل روجر نفسه . على أن أهمية هذه الحادثة لا تقف عند حد النصر المادي القريب ، بل تمتداهما إلى ما صحبها من اتحاد بعض الأمراء المسلمين أمثال ديبس بن صدقة أمير الحلة في العراق ، وسلطان بن منقذ أمير شيزر ، وطغتكين أتابك دمشق ، ووقوفهم جميعا إلى جانب إيلغازي^(٣) ، ولم يكن ثم شك في أن انتصار إيلغازي ومقتل روجر كانا ضربة وجهت إلى صميم القوى الصليبية في الشام ، ورن صداها في كل مكان ، حتى إن الخليفة المسترشد بعث إلى إيلغازي خلعة التشریف وسماه « نجم الدين » تعظيما لقدره^(٤) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) G. T., p. 536 ; Rey : Résumé Chron. de l'Hist. des Princes d'Antioche, p. 340 — 342.

(٣) ابن العديم : منتخبات ، ، ص ٦١٥ — ٦١٩ .

(٤) لم يفت الشعر تسجيل ما جرى فيقول أحد الشعراء .

قل ما نشاء وقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل
واستبشر القرآن حيث نصرته وبكى لفقد رجاله الإنجيل

راجع ابن الأثير : السكامل في التواريخ ، ص ٢٢٥ .

قويت نفوس المسلمين بهذا النصر، كما تعرضت أنطاكية لأحرج موقف يمكن أن تصل إليه أحوالها، لولا قيام « برنارد » الأسقف البابوي بجمع الأمور في يده، فلم تطر نفسه شعاعاً رغم تضعف نفسية أهلها المحليين وما لاحظته عليهم من العزوف عن مقاومة العدو وميلهم إلى التسليم، فقام بخطة تنطوي على كثير من الشجاعة ولعلها تنطوي أيضاً على كثير من التهور، إذ عمد إلى تجريد سوربي أنطاكية من أسلحتهم حتى لا يثبوا على الفرنجة إذا قدم العدو، وذهب إلى أبعد من ذلك فمنعهم من مغادرة بيوتهم إذا جن الظلام، ووكّل إلى الصليبيين وحدهم حماية الأسوار والحصون والقلاع، وجعل منهم العسس، وأخذ يطوف بنفسه ليرى مدى تنفيذ هذا الأمر... خطة حاكم عسكري حازم لبلد محارب في عصر حديث.

أقبل بلدوين الثاني ملك بيت المقدس واستطاع دخول أنطاكية سالماً فتلقاه أهلها بالترحاب، والتحم بعد ذلك بالمسلمين بقيادة « إيلغازي » عند « تل دانيث » في أغسطس ١١١٩ م، وقدر له النصر عليهم، فاطمأنت أنطاكية وأخذت جيوشها تشن الغارة على بعض البلاد الإسلامية^(١).

وبينما تلك الحركة الإسلامية الأولى بين مد وجزر بشمال العراق وأطراف حلب، واجهت الرها سنة ١١٢١ (= ٥١٦ هـ) خصماً عنيفاً في « بلك بن أرتق » صاحب قلعة خرتبرت^(٢)، الذي تطلع أيضاً للقضاء على الصليبيين بتلك الجهات الشمالية. لذلك رأى جوسلين الأول — وهو صاحب الأطاع الكثيرة وخضم القوة الإسلامية — أن يتربص لهذا الخصم وينقض عليه قبل استفحال أمره، إلا أن الحظ وافي « بلك » فأسر جوسلين

(١) ابن العديم : منتخبات ، ص ٦٢٢ — ٦٢٥ ، Matthiew ، G. T. , p. 527 — 531 ;
d'Ed. p. 343 ; Dussaud : Topogr. Hist. p. 167, 192.

(٢) Le Strange : Lands of the Eastern Caliphate, p. 117.

ومن معه عند سروج^(١) وقادهم جميعا إلى قلعة خربوط ، وكان ذلك من أكبر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على الصليبيين في تلك الحقبة ، لما ترتب عليه من ضياع قوة صليبي الشام المعنوية ، وتطلع الجماعات الإسلامية إلى الوثوب عليهم من كل ناحية .

ولم يخف ذلك على بلدوين الثاني ملك بيت المقدس الذي صارت إليه الوصاية على إمارة أنطاكية بعدمقتل روجر ، وعلى الرها بعد أسر جوسلين ، وأدرك أن واجبه يحتم عليه القيام بعمل حاسم ليفهم المسلمون أن القوة الصليبية لا زالت قوية باطشة ، وأنها تستطيع الدفاع عما بيدها ضد أية محاولة إسلامية يراد بها إضعاف هيبة الصليبيين في أية إمارة من إمارتهم . لذا أخذ بلدوين الثاني في الاستعداد لمهاجمة حلب ، غير أن تلك فاجأ بلدوين في بعض الطريق وأسرره ووضع مع جوسلين ، وترتب على ذلك خلو ثلاث من الإمارات الصليبية الأربع — وهي أنطاكية والرها وبيت المقدس — من حماتها الذابين عن بيضتها ، فأصبحت في حال يرثى لها من الضعف ، وعدمت المدافع ، وصارت غرضا يرمى بالسهم ، على أنه بقيت هناك طرابلس ، ولم يكن في « بنص » أميرها ما يؤهله لجمع كلمة الصليبيين ولترجم حركتهم ، وليس لديه من القوة ما يمكنه من تخليص الأميرين الصليبيين ، كما تعرضت مملكة بيت المقدس ذاتها لخطر القوات الإسلامية المتاخمة التي طمعت في الاستيلاء عليها بعد أسر بلدوين الثاني ، لذلك عمد أهلها إلى إقامة « استاش جارنييه » Estache Garnier أمير صيدا مكان الملك إلى أن يطلق سراحه ، وكان استاش رجلا موطأ الكنف لجماعته ، وفارسا بارعا محببا إلى نفوس الصليبيين فأثروه بتلك المكانة وذلك العبء وهما جد ثقيلين^(٢)

(١) ابن القلانسي : الدبل ، ص ٢٠٨ ، ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٦٣٤ ،

ابن الأثير : الكامل في التواريخ ص ٣٤٤ ؛ Rey : Matth. d'Edesse, p. 131 — 132; Colonies Fran. p. 306.

غير أن جوسلين تمكن من الفرار من الأسر بمعرفة جماعة من الأرمن^(١) الفدائيين ، فذهب توالى إلى الرها ، وجيش جيشاً لاستخلاص سيده بلدوين ملك بيت المقدس . ثم خرج جوسلين من تل باشر قاصدا حلب سنة ١١٢٢ م فأحرق بعض نواحي بلدة « باب » انتقاما من ملك ، كما هدم كثيرا من قبور أولياء المسلمين بناحية « حيلان »^(٢) ، وعاد إلى تل باشر محملا بالغنائم والأسلاب ، وبعد ذلك بقليل مات ملك ١١٢٤ م (٥١٨ هـ) وهو قائم على حصار « منبج »^(٣) التابعة لإمارة طرابلس الصليبية ، ففقد المسلمون فيه رجلا أثبتت أعماله أنه زعيم بجمع كلمة القوى الإسلامية ضد الصليبيين^(٤) .

انتقل عبء الجهاد بعد ذلك إلى الأمير الاسفهلار^(٥) « آق سنقر البرسقى » أتابك الموصل الذى استغاث به أهل حلب^(٦) فى سبتمبر (شعبان ٥١٨ هـ) حين حاصروهم بلدوين الثانى وحليفه ديبس بن صدقة وشرعا فى قتالها والمضايقة حتى قلت الأقوات وخيف وقتذاك على حلب ، وأرجف القوم من الجانبين بقرب سقوطها لولا أن أدركها آق سنقر البرسقى بالجيش الضخم فرفع المحاصرون عنها الحصار ، « ورحلوا منهزمين وتبعهم سرعان الخيول يتلقطون من يظفرون به ولم يلو منهم منهزم على متاوى » ، فلا عجب إذا مال القوم إليه واجتهد هو فى المراماة دون البلد الذى تسلمه نوابه فى أواخر تلك السنة .

على أن هذا النصر الذى لقيه البرسقى أغراه بمتابعة حركته ضد الصليبيين ،

(١) ابن القلانسى : شرحه ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، الدول والملوك ، ج ٢ ، ص ١٨٨
ب — ١٩٢ ، والدائرة مادة Karpuz وراجع أيضا ، — G. T., p. 538 539 ،
Mat. d'Ed., p. 133—134. Stevenson : Crusaders in the East, p. 111, note 8.

(٢) ابن العديم : شرحه ، ص ٦٣٨ — ٦٣٩ ، والدائرة ، مادة « حلب »

(٣) ابن الفحنا : الدر المتخبط ، ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٤) ابن العديم ، شرحه ، ص ٦٤٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

(٦) راجع فى تحديد التاريخ وتحقيقه ، Stevenson : Crusaders in the East, p. 111, note 8.

كما أن تسلبه حلب أطمعه في تكوين محور إسلامي يمتد بين الموصل وحلب، ولعل هذا هو الذي دفعه إلى الانقضاض على بعض البلدان المتاخمة له والموجودة بيد الصليبيين، مثل « كفر طاب » والتأهب لمقاتلتهم، إلا أن جماعة من الحشاشين وثبوا عليه ^(١) سنة ١١٢٦ (ذو القعدة ٥٢٠هـ) وقتلوه، وهكذا زالت الشخصية الرابعة من بين الشخصيات الإسلامية التي فكرت في الجهاد ضد الصليبيين، وتجلى خطر الجماعات الاسماعيلية التي أخذت تثب فتقتل كل عامل للوحدة الإسلامية. وما كاد مسرح الحوادث يخاو من البرسقي حتى خيل للناس ولمن يرقبون تطور الأمور في بلاد الشام آئذ أن الجو قد صفي للصليبيين، إلا أنه ما لبث أن ظهر زنكي وهو أقوى الشخصيات التي تمخض عنها النصف الأول من القرن الثاني عشر.

لم يكن عماد الدين زنكي وليد الصدف، ولكنه نشأ على مقربة من مسرح النضال بين القوتين الإسلامية والصليبية، بل اشترك في بعض الحوادث التي جرت بينهما، ثم إنه منذ نعومة أظفاره لمس التناحر بين القوتين الإسلامية ^(٢) وحظي بكثير من عطف السلطان محمود السلجوقي أحيانا، وتمتع بصداقة الخليفة المسترشد العباسي أحيانا أخرى، كما شهد عن كثب ما هنا لك من الصراع بين السلطان والخليفة حول السيطرة الفعلية في الدولة الإسلامية وساهم إلى جانب السلطان في ذلك الصراع الذي انتهى بانتهزام الخليفة سنة ١١٢٧ م.

من ذلك كله يتجلى إلمام زنكي التام بأحوال العالم الإسلامي المضطربة إبان تلك الفترة الانتقالية في تاريخ العصور الوسطى، ولم يخف عليه مقدار الضعف الذي دب في أوصال القوة المسيطرة على ذلك العالم الذي يكون رقعة غير

(١) ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ص ٦١ .

(٢) ابن الأثير : أنابكة الموصل ، ص ٣١ ، ٣٤ — ٣٥ .

صغيرة تمتد من العراق إلى مصر وتشمل جميع منطقة بلاد الشام والجزيرة العربية، وإن فرقت العقائد بين أفرادها، وأدرك زنكي أن الأمر معقود للقوة، وطمع أن يكون هو ذاته صاحب تلك القوة. لكنه رأى أن الأمور مرهونة بأوقاتها وظروفها، وأن عليه اغتنامها عندما تلوح له الفرصة التي تبدت له فعلا حين دس جماعة من أنصاره وأقاربه يحسنون للسلطان توليته أتابكية الموصل، ونجحت خطته وتم له ما أراد، وخرج منشور السلطان بتعيينه^(١) سنة ١١٢٧ م (٥٢١ هـ).

ومن ثم يمكن القول بأن عماد الدين لم يكن يعجز عن تحقيق مآربه بمختلف الوسائل التي سنراها ممثلة في سياسته التي يرمى من ورائها إلى تقوية نفوذه في النواحي التي تحت سلطانه أولا، ثم محاولة ضم ما يمكن ضمه من البلدان الإسلامية التي سوف يعتمد عليها لتموين قواته، حتى إذا تم له ذلك كله استطاع أن يخرج بما اجتمع لديه من القوات لمحاربة الصليبيين وطردهم عن أطراف العراق والشام واستخلاصها لنفسه.

بدأ زنكي سنة ٥٢٢ هـ بتأمين حدود ولاية الموصل من الشمال وذلك بالاستيلاء على جزيرة « ابن عمر »^(٢) شمالي الموصل، ثم نصيبين والخابور وحران^(٣)، وأصبح يتأخم الرها أكثر من قبل، فلما فرغ من تلك الناحية اتجه ببصره إلى بلاد الشام، وطمع في حلب التي كثرت بها الفتن الداخلية وقتذاك حتى طمع فيها من الصليبيين جوسلين الأول أمير الرها، وبو هيمند الثاني أمير أنطاكية، ولم يعدم زنكي الوسيلة لتبرير زحفه على حلب فاتخذ من أخبار تفكير الأميرين الصليبيين في مهاجمة حلب ذريعة للتدخل في شئون

(١) ابن الأثير، الكامل ج ١٠، ص ٢٤٧، وأتابكة الموصل، ص ٦٠ — ٦١،

وابن خلدون: العبر، ج ٥، ص ٥٤، Stevenson: op. cit. p. 122،

(٢) الدول والممالك، ص ٢٢٤ ب — ٢٢٥ أ.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٠٢، ٣٨٣، Le Strange: Lands of The Eastern Caliphate, p. 93.

الشام ، فاستصدر من السلطان السلجوقي عام ٥٢٢ (١١٢٨ م) منشورا بأن تكون حلب من بين البلاد الداخلة في حكمه (١) ، وأضاف إلى ذلك زواجه من ابنة رضوان صاحب حلب سابقا حتى تكون له شرعية الحكم بها (٢) . اتجه زنكي بعدئذ صوب الجنوب حيث إمارة دمشق وهي التي شغلت الجزء الأكبر من مجهوده وعزت عليه ، وكانت دمشق من الإمارات الإسلامية الهامة بالشام ، وفي وقت ظهور زنكي كان متولى أمرها ظهير الدين أتابك الذي رفع من مكانتها في أعين المسلمين والفرنجية على السواء ، لكنه مات سنة ١١٢٨ م بعد أن استخلف على دمشق من بعده ولده تاج الملوك بوري . وحوالى ذلك الوقت امتد خطر الباطنية بالشام ، ولاسيما حين تولى أمرهم إسماعيل العجمي الذي اتخذ « بانياس » مقاما له ، إذ علم إسماعيل هذا بعزم بوري على الفتك بطائفته ، فلم يجد سيلا لمضايقته إلا بمنح بانياس للصليبيين والانتقال إلى بلادهم (٣) ، وعند ذلك أخذ بوري يعمل على مضايقة الحصن ، ورأى الصليبيون وقتذاك أن الفرصة قد سنحت لمهاجمة دمشق (٤) ، وأقبلت جماعاتهم في نوفمبر ١١٢٩ بقيادة فولك ملك بيت المقدس الجديد لتحقيق ما تمناه كثير من أسلافهم لتكون دمشق جزء من الدولة الصليبية بالشام . لذلك جرت المراسلات بين بوري وزنكي لدفع ذلك الخطر عن دمشق ، وكتب بوري إلى ولده « سونج » — وكان على حماة — يأمره بالانضمام إلى زنكي لمحاربة الصليبيين ، على أن زنكي لم ينهض لمساعدة بوري حبا في إنقاذ دمشق من الفرنجية بل جريا وراء تحقيق أطاعه ، ولم يلبث أن قبض على « سونج » ، وزحف على حماة وحصص واستولى عليها ، واكتفى بذلك مؤقتا (٥) .

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

(٢) ابن العديم : منتخبات ، ص ٦٥٨ .

(٣) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٨ .

(٤) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٢٤ — ٢٢٦ ، Gibb : Damascus

Chronicle, p. 197 et seq.

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ص ٥٦٨ — ٥٦٩ .

في تلك الأثناء وقع الأمير ديبس بن صدقة صاحب الحلة في يدي بوري، وكان ديبس حليفا للصليبيين، فر من العراق خوفاً من الخليفة المسترشد بالله، فأراد زنيكى الاستحواذ عليه ليجعل منه رهينة يستخدمها في تحقيق مآربه وأطماعه لدى الخليفة، فكتب إلى بوري يعرض عليه استعداده لإطلاق سراح «سرنج» إن أسلمه ديبس، وتم الاتفاق والتبادل، ثم لم يلبث بوري أن قتل في أوائل يونيو ١١٣١ (٥٢٢٦هـ) بيد الباطنية^(١)، وخلفه ابنه اسماعيل، فظن الصليبيون أن ساعة دمشق قد دنت لصغر سن صاحبها وطمع فيها من لا يعتمد به، فاجتروا «دي بوري» أمير بيروت على أخذ عدة أحمال من السكتان الذاهب إلى دمشق تحرشاً بالأمير اسماعيل، على أن خاتمة الحوادث خيبت ظنون الصليبيين وهدمت آمالهم لما أصابه اسماعيل من الفوز في مهاجمة حصن «بانياس» وامتلاكه إياه في نوفمبر ١١٣٢ (محرم ٥٢٧هـ) مما أحدث دويماً شديداً ارتاع له الأفرنج «وامتلأت قلوبهم رعباً ووجلأ وأكثروا التعجب من سهولة الاستيلاء على بانياس مع حصاتها وكثرة الرجال فيها»^(٢).

هنا يحق للشخص أن يتساءل عن علة عدم تحرك مملكة بيت المقدس وعدم مدها يد المعونة إلى جماعة الصليبيين، وترجع علة جمودها إلى انشغال ملكها فولك بمزامة «هيج دي بواسيه» كونت يافا^(٣)، على أن اسماعيل

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، JRAS., p. 273 ، وقد رثاه الشريف الرضي على قبره بقصيدة جاء فيها :

بعدا ليومك في الزمان فإنه أفدى العيون وقت في الأعضاء

أنظر أيضا ابن القلانسي ، الذيل ، ص ٢٢٩ — ٢٣٠ ، ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) ابن القلانسي ، ص ٢٣٧ .

(٣) جاء «دي بواسيه» أبوهيج المذكور هنا ، إلى الشام مع قريبه بلدوين الثاني وصار والياً على يافا ، ثم مات فقام هيج مكانه ، وأيده بلدوين الثاني لحبه إياه وعطفه عليه ، لإذ نشأ في بيته وبين بناته ، فلما كبرت مليزاند وتزوجت فولك كانت صلات «هيج» بها مما أثار شبهة زوجها لحقد عليه وخاصمه ، فما كان من هيج إلا أن اتخذ من بين الأمراء من اتخذته

لم يكتف بهذا النصر بل توجه إلى حماة واستولى عليها من يد مستحفظها « سنقر » غلام الياغسياني تابع زنكي^(١) ، وكأن هذا الانتصار وما سبقه من الانتصارات قد أمدّه بقوة طمع بها أن يستولى على كثير من البلدان المجاورة فحاول أخذ شيزر ونزل عليها ، وأمر بالعيش فيها وفي نواحيها حتى حمل إليه أميرها سلطان بن منقذ من الهدايا ما أشبع طمعه ، فانكفأ إسماعيل إلى دمشق في ذى القعدة ٥٢٦ هـ (= سبتمبر ١١٣٤ م) بعد أن صالحه أمير شيزر على مال يحمل إليه^(٢) . ولم تنقض بضعة أشهر من بعد ذلك حتى هاجم إسماعيل شقيف تيرون المطل على ثغر بيروت^(٣) ، وأخذه من يد الضحّاك بن بجدل التميمي .

حدث كل ذلك والصليبيون يعدون العدة للسير إلى دمشق ، ولم يلبث الخبر أن شاع بأنهم تحركوا فعلا للزحف عليها ، فلم يكن من إسماعيل إلا أن قابلهم في « حوران » ثم غافلهم وأغار على عكا والناصرية^(٤) وطبرية ، مما أدى

== لمساعدته في الانتقام من فولك ، ثم نشب نزاع بين هيج وبين جوتيه القيصري الذي وقف في حشد من الصليبيين في بلاط فولك ورى كونت يافا بتهمة محاولة اغتيال الملك . فحاجه هيج وانفقا على المبارزة . وفي اليوم المضروب اختفى هيج لاذ هرب إلى عسقلان واحتفى بمحاميها المصرية التي اغتنمت هذه الفرصة وأخذت تعيث في الشمال . فأغضبه ذلك الأمر ، فرجع إلى فولك يسأله العفو . وفي هذا الوقت استولى أتاك ديشق على بانياس من الصليبيين مما جعلهم يؤمنون بضرورة الاتحاد فيما بينهم . فاصطالحوا على أن يبعد هيج ثلاث سنوات عن بلاد الشام يذهب فيها إلى إيطاليا . غير أن أحد الفرسان الصليبيين اغتاله فثارت الشبهات حول فولك . وأرجف الناس بأنه المدر لذلك الاغتيال . فدفع التهمة عن نفسه بأن قتل قاتله . بعد أن أقسم القاتل أنه قام بذلك من تلقاء نفسه . غير أن مليزاند اشتد غضبها على زوجها وعلى قاتل هيج . أما فولك فقد حاول أن يستل من نفس زوجته كل حقد عليه . فأسلم إليها مقابلد الأمور « حتى إن جميع شئون المملكة صارت تدبر بمشورتها ، وتجري وفق إرادتها » كما يقول مؤرخ العصر ولیم الصوري وهي عبارة يمكننا أن نفسر على ضوءها مجرى الحوادث في أنطاكية فيما يلي .

راجع 634 — 626 G. T. p. وكذلك ابن العديم . ص ٦٩٦ .

(١) ابن الفلانسى : الدليل ، ص ٢٣١ — ٢٣٩ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣

(٢) ابن الأثير : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٣) Rey : Colon. Franc. p. 513

(٤) الدول والملوك ، ج ٣ ، ص ١٥٧ .

إلى رجوعهم عن دمشق للدفاع عما ييـدـهم وذلك في ذى الحجة ١٢٨ هـ (= أكتوبر ١١٣٤) . ومهما يكن من أمر تلك الحرب فالواضح أنها أضرت بمصلحة الفريقين المتحاربين واستفاد منها زنكي، ولا عجب أن يدرك الصليبيون ذلك ويطلبوا الصلح من اسماعيل لا خوفاً من بطشه كما يزعم الكتاب المسلمون^(١)، بل إبقاء عليه ليكون شجى دائماً في حلق زنكي .

غير أنه يظهر أن رضاء اسماعيل بمصالحة الصليبيين جعله في نظر المعاصرين خائناً لمصالح المسلمين، وكان من بين أولئك أمه زمر دخاتون التي أخذت تأتمر عليه، خشية أن يتخذ زنكي من ذلك الموقف ذريعة للغارة على دمشق بحجة حماية المصالح الإسلامية . فلها رأى اسماعيل أن يد القتل قد تمتد إليه بين لحظة وأخرى كاتب هو زنكي يسأله القدوم عليه لأخذ دمشق^(٢) . ولعبت أمه دور السياسى الماكر إذا هتبلت هذه الفرصة فجمعت الأكابر والمقدمين، وعرضت عليهم قتل ولدها اسماعيل لم تأخذها في ذلك وشيجة البنوة أو عاطفة من الرحمة والمحبة، فأقروها على ما اعتزمت القيام به^(٣)، ومن العجيب أن ابن القلانسي^(٤) يمدحها المدح العظيم لهذه الفعلة، فيقول إنه قد حملها « فعلمها الجليل، ودينها القويم، وعقلها الرحيم، على النظر في الأمر لما يحسم دأه، ويعود بصلاح دمشق ومن حوته، فتأملت الأمر في ذلك تأمل الحازم الأريب، فلم تجد لدائه دواء، ولا لسقمه إشفاء إلا بالراحة منه [أى من اسماعيل] فصرفت الهمة الى مناجزته، فأمرت غلبانها بقتله، وترك الامهال له، غير راحمة له ولا متألمة لفقده » .

هنا وضحت الفرصة لزنكي وضوحاً تاماً لتحقيق حلمه في ضم دمشق، فبادر بإرسال رجاله للشخص إلى تلبيبة لدعوة صاحبها اسماعيل، غير أن

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٣ .

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ١١ ص ٩٠، النجوم الزاهرة، ج ٥ ص ٢٥٦ و Gibb : op. cit. p. 230.

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٤، ص ٩٠ .

(٤) راجع ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

زمرد خاتون كانت قد أتمت تنفيذ الخطة التي رسمتها بقتل ابنها ، وإقامة أخيه « محمود » من بعده سنة ١١٣٤ م (ربيع الآخر سنة ٥٢٩ هـ) . فما كاد زنكي يبلغ ظاهر دمشق ويعسكر بأرض عذراء تمهيداً للحصار حتى علم بما جرى ، وسرعان ما أدرك ألا أمل له فيها أراد لما رأى من شدة مراس الدماشقة ورغبتهم الصادقة في الدفاع عن مدينتهم ، إذ أبوا أن يدخلها عماد الدين إلا على آخر جثة من رجالهم . وكان الخليفة المسترشد بالله يخشى من نفوذ زنكي ، وينظر بعين جازعة إلى توسعه في الممتلكات . ولم يخف عليه غرضه من الزحف على دمشق ، فأرسل يأمره برفع الحصار عنها ، وهل كان إلا أن يؤمر فيجيب ؟

عندئذ فكر زنكي في الوسيلة التي تمكنه من الاستيلاء على دمشق دون أن يغضب أهلها ، أو يثير الخوف منه في نفس الخليفة العباسي ، فزوج^(١) من « زمرد خاتون » وتمكن بفضل هذا الزواج الذي تم سنة ١١٣٨ (٥٣٣ هـ) من أخذ الأمور في يديه . بيد أنه عجز عن إدراك مشروعه العظيم وتحقيقه^(٢) . ثم لم تلبث الفرص أن خدمته إذ اغتيل محمود صاحب دمشق يوم ٢٢ يونيو ١١٣٩ (٢٣ شوال ٥٣٣ هـ) على يد ثلاثة من غلبانه ، فخرنت أمه عليه ، وأرسلت إلى زوجها زنكي — وكان بالموصل — تحرضه على الانتقام من مغتاليه . واتخذ زنكي — من حادث الاغتيال — ذريعة توصله إلى مأربه . فادعى أنه يريد معاقبة القتلة وحماية دمشق نفسها بما قد يديته الصليبيون نحوها

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٢) كان زنكي يريد أخذ حمص ، فعزت عليه أولاً لشدة مراس القائم بتدبير أمورها وهو أتر (ابن العديم ، منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٦٦٧ ، ٦٦٨) ، ثم لم يلبث زنكي أن تسلمها وعوض « أتر » عنها حصن بعين (ابن العديم ، شرحه ، ص ٦٧٨ — ٦٧٩) وكانت حجته في الاستيلاء عليها أن يتخذها مركزاً لصد الجماعات الصليبية ، لاسيما وقد اغتم فولك الثالث — ملك بيت المقدس — فرصة قدوم تيير الإلزامي ١١٣٨ م مع جماعة من القريسان الحجاج ، ووجههم في حملة خربت أرباض تل عجلون . G. T. , p. 665 — 668 . أما زواجه من زمرد خاتون فبإراد بعض المؤرخين المسلمين ضرورة اقتضاها ما رآه هو من تحكمها في دمشق ، فظن « أنه يملك البلد بالاتصال بها » ، أنظر الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥ ، ومفرج السكروب لابن واصل ، ص ٤٥ .

عاجلا أو آجلا على غرار ما فعلوه سابقا. هذا وقد رأى زنكي في قرارة نفسه أنه هو ذاته خير من يحمل الراية الإسلامية في نضاله ضدهم، فلم لا تكون دمشق تحت سلطانه الشرعي حتى يتمكن من الدفاع عنها، وهل هناك من هو أجدر منه بذلك العبء؟ إلا أنه أراد شيئا وأرادت المقادير سواه، ثم حققت المقادير ما أرادت حين آلت الأمور في دمشق أخيرا إلى يد الأمير أنر صاحب بعين وبعليك^(١).

على أن ذلك التطور في أحوال دمشق لم يقلل من عزم زنكي في الاستيلاء عليها، فرأى أن يبدأ ببعليك^(٢) التابعة لها، فشدد الحصار عليها حتى تخاذلت أمام هجماته القوية وسلمت له بالأمان، لكنه لم يرع عهده ونكث^(٣) بوعده. وأحس لدماشقة أن ساعتهم قد قربت، ولا سيما أن زنكي صار على مقربة منهم، وتبينت لأنر ضرورة التعاون مع قوة أخرى لرد عادية زنكي عن دمشق. وتمخضت هذه الضرورة عن التحالف الدمشقي الصليبي^(٤). ورحب الصليبيون باستغاثة أنر ترحيا كبيرا^(٥)، لما فيها من الفرصة المواتية لتحطيم زنكي وقوته الفتية التي هددت أملاكهم وأوفد أنر رسولا من قبله هو أسامة بن منقذ^(٦) إلى ملك بيت المقدس فولك الخامس، (١١٣١—١١٤٢) فوجد الرسول العربي من الملك الصليبي إقبالا واضحا لفكرة الحلف بين دمشق والصليبيين. على أن فولك لم يشأ أن يبت في الأمر دون استشارة مجلس المملكة، أو بعبارة

(١) الكامل ج ١١، ص ٣١—٣٢، ابن العديم، منتخبات، ص ٦٨١، Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol 1, p. 172.

(٢) كانت بعليك في ذلك الوقت في يد أنر الذي تسامها من يد محمد بن بوري بعد مصرع أخيه محمود؛ أنظر في ذلك ابن القلانسي، ص ٣٦٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل، ج ١١، ص ٣٢.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٥١.

(٥) G. T., p. 689.

(٦) ابن القلانسي : ص ٢٥٩—٢٦٠، وابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٤، وابن العديم : منتخبات ص ٦٨٢، وهذه المراجع لاتنص صراحة على اسم أنر، لكن يستفاد ذلك من كتاب أسامة نفسه، والظاهر أن فولك الخامس كان على اتصال بأسامة، شديد الانحياز بالفارسي العربي، راجع كتاب الاعتبار، ص ٦٥.

أخرى لم يرد الموافقة على الحلف إلا بعد دراسة ما حملته إليه أسامة من عروض .

لكن ماهي العروض التي قدمها أسامة باسم « أنز » ثمة لتلك المساعدة لدرء الخطر عن إمارة إسلامية لها ماض غير منكور في دفع الصليبيين عن بلاد الشام ؟ الواقع أنه ليس لدينا غير ما رواه ابن الأثير وابن القلانسي من أن أسامة تعهد للصليبيين بأن يحاصر الأمير أنز « بانياس » ويسلمها إليهم ، وكانت خاضعة لزنكي ، غير أنه عرض عليهم أن يسلمهم عددا من الرهائن توكيدا لصدق تعهده ، كما جعل نفقة الحملة التي ينهضونها لمساعدته على حسابه^(١) . وتم الاتفاق أخيرا بين ريموندري بواتيه أمير أنطاكية وبين فولك الخامس على مساعدة أنز ضد العدو المشترك .

تقدم فولك بجيشه صوب دمشق في جمادى الآخرة سنة ٥٣٤هـ (يونيو ١١٤٠) ، فلما رآه زنكي تظاهر بالفرار أمامه خديعة منه ، حتى إذا أبعدته عن الطريق إلى دمشق انقلب إلى الهجوم عليه ، وما زال به حتى هزمه ففر فولك في ثلة ضئيلة من الصليبيين إلى حصن الأكراد ، وهناك حاصرهم زنكي وقطع عنهم الإمدادات ، حتى أكلوا لحوم الخيل والحمير « بلا ملح » . وهناك أرسل فولك إلى أمير أنطاكية وإلى جوسلين الثاني أمير الرها ليجمعا قواتهما وينهضا لمساعدته^(٢) ، وبينما هذان الأميران وجيوشهما في الطريق لنجدة فولك اعترضهما ابراهيم بن طرغت والى بانياس من قبل زنكي ، فالتجم الفريقان في وقعة قتل فيها والى ابراهيم . وعندئذ تحول الأنطاكيون صوب بانياس ذاتها وانضم إليهم ريموند الثاني صاحب طرابلس وفولك وأنز ، واشتد أتابك دمشق في حصار بانياس حتى قل القوات عند حاميتها فاضطرت للسليم إلى أنز الذي

(١) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٢ ، والكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٣٤ .

(٢) J. R. A. S. 1932 p. 194 .

ير بوعده للصليبيين فأعادها إليهم^(١)، وتملكها وليم دى بور^(٢)، ولما أدرك الصليبيون صدق أن في تحقيق الشروط المبرمة بينه وبينهم عملوا على تحقيق هدفه ألا وهو ضمان استقلال دمشق منعا من سقوطها في يد زنكي الذي كان يتأهب لحصارها وقتذاك .

على أن زنكي لم يرد حينئذ أن تتطور الحوادث إلى حروب سافرة بينه وبين الصليبيين بل كان يتجنب الاصطدام بهم وجهها لوجه ، فأكاد يسمع بتجمعهم مع عسكر دمشق حتى رحل إلى ناحية حوران ، غير أنه سرعان ما عاد إلى الغرطة ، فلما كان صباح السبت السابع من ذى القعدة ٥٣٤ هـ (٢٢ يونيو ١١٣٩)^(٣) اقتربت الجيوش الزنكية من سور دمشق قبل أن يتنفس الفجر وأحدثت بالمدينة على حين غفلة من أهلها . ولذا استولى زنكي على كثير من الخيل والغنائم ، وإن عجز عن دخول دمشق ذاتها^(٤) ، ولم يكد فولك يسمع بما جرى حتى نهض لإغايتها ، فاضطر خصمه لرفع الحصار عنها ، غير أن دمشق لم تفد من تلك الحوادث كلها شيئا كثيرا ، بل كان الصليبيون هم الذين أفادوا منها كل الفائدة ، لاسترجاعهم بانياس دون خسائر جمة ، ولإيقاعهم الخلف بين القوى الإسلامية وانقسامها بعضها على بعض . لكن زنكي لم يرفع الحصار عن دمشق إلا لأنه رأى أن يؤخر محاسبتها ليوم يكف فيه الصليبيون عن مساعدتها ، ولم يخف ذلك على خصميه أنر وفولك فاضطرا للبقاء على تحالفهما .

ولقد أدى هذا التحالف الدمشقي الصليبي إلى نتيجة سلبية وأخرى موجبة، أما النتيجة السلبية فتتمثل في أن عماد الدين خاف من هذا الاتحاد ، فأرجأ

(١) G. T., p. 671 — 673

(٢) راجع قصة إيجاب فولك لوليم دى بور على رد غنم استولى عليها إجابة لسؤال أسامة . وهي واردة في الاعتبار ، ص ٦٤ — ٦٥ .
Derenbourg : Vie d'Ousama, Vol. I, p. 185,—186 Autobiogr d'Ousama, p. 393.

(٣) تحقيق التاريخ العربي والبلادي في 1 note 262, op. cit. Gibb

(٤) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

مهاجمة دمشق إلى وقت آخر تواتيه فيه الظروف ، وأمنت دمشق هجومه عليها إلى حين ، فقام أنر وأسامنة بن منقذ بزيارة الصليبيين في بيت المقدس^(١) ، وتوثقت عرى المودة بين رجال الجانبين ، وصار هناك شبه « أخوة » بينهما ، وكتاب أسامة حافل بهذه الصور المشرقة التي تجلوا لنا صفحة من الحياة الاجتماعية ، وهي صفحة فيها شيء كثير من التفكه والنسكة ، فضلا عما فيها من دلالة على الاتحاد الوثيق الذي نشأ بين الدماشقة ، والصليبيين^(٢) ، أما النتيجة الموجبة فظهرها تفكير زنكي في توجيه القوة الحربية الإسلامية التي تحت يده في سرايا نحو بلدان الصليبيين ، مما كان عاملا على تقوية الأطراف البعيدة^(٣) . على أن زنكي لم يأخذ في إنفاذ تلك السرايا إلا حين مات فولك ملك بيت المقدس وتولت الأمر الملكة مليناند ، إذ قامت في نوفمبر ١١٤٣ بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث الذي لم يعد عمره ثلاث عشرة سنة .

من الطبيعي أن يتأثر سير الأمور في دمشق بمجريات الحوادث في مملكة بيت المقدس ، ويعد تولى مليناند الحكم نقطة انتقال في تاريخ التسكتل الصليبي لانصرافها إلى عمل كل ما من شأنه إبقاء السلطة في يديها والاستئثار بهادون ولدها ، وتغلب مظالمها الشخصية على الصالح الصليبي العام ، مما أدى فيما بعد إلى فشل الحملة الصليبية الثانية وإلى انقسام من حولها من أمراء بيت المقدس وإلى قيام النزاع بين أنطاكية والرها وطرابلس ، بعد أن كانت شخصية زوجها فولك الثالث خير عامل على التوحيد والنصرة . والواقع أن الصليبيين لاسيما بعدموت فولك الخامس — أصبحوا يستجدون زنكي ضد بعضهم البعض وقد

Derenbourg: La Vie d'Ousama, t. I, p. 188 ; Aut. d'Ousama, p. 460—465. (١)

Derenbourg : La vie d'Oussama t ; I: p. 166. (٢)

(٣) بعث زنكي سرية بقيادة الأمير لجة التركي ، كإقام نائبه في حلب الأمير سوار بدفع أمير أنطاكية عن بزاعة سنة ١١٤٢ . واستولى زنكي في نفس السنة على قلعة « أشب » التي عرفت فيما بعد « بالمادية » راجع 1 Gibb : Damascus Chronicle, p. 264, note 1

واظفر أيضا ابن القلاي . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٣ — ٢٧٨ .

تجلى ذلك قبل هذا التاريخ بعدة أعوام في مسألة أنطاكية^(١). حين استعانت أليكس زوجة بوهيمند الراحل بزنى ضد أيها رغبة منها في الاستئثار بحكم أنطاكية، وحركتها الأطلاع لركوب هذا المركب الوعر^(٢) على إن لهذا دلالة الصريحة على مبلغ ما وصلت إليه القوة الإسلامية من البأس والخطر، ومبلغ تأثير المطامع الشخصية في توجيه السياسة الصليبية.

(١) استطاع بوهيمند أمير أنطاكية خلال فترة حكمه القصيرة أن يجتذب إليه قلوب رعيته لتساوى الإبداع في الحلقى والخلق، إلا أنه ما لبث أن مات في عمر الزهور إذ لقي مصرعه على يد جماعة من جنود إيلغازى الدانمندی وحملت رأسه إلى بغداد في فبراير ١١٣٠ م. راجع G. T., p. 599 — 600, Michael, III, 2, p. 217.

(٢) لم يخلف بوهيمند سوى طفلة صغيرة هي كونستانس من زوجة أليكس التي أدركت أن قيام أيها بالوصاية سيبل يدها، فوافقت زنى بخضوع أنطاكية له إن هو نهض لمعاونتها، إلا أن أباه بلدوين الثانى قبض على رسولها في بعض الطريق. فنهض إلى أنطاكية في رعب من الأشراف ودخلها رغم أرادة ابنته التي راحت إليه تلتئم منه العفو فأجابها إليه بعد أن خلعها من الوصاية، وقطع الطريق على زنى ثم لم يلبث بلدوين أن مات تخلفه فملك دوق أنجو تبعاً لوصية الملك الراحل (G. T., p. 601 — 602) ورأت أليكس الفرصة سانحة لجمع الأمور في يدها لا سيما بعد أن ضمت إليها بعض الأمراء الأقوياء أمثال جوسلين الثانى أمير الرها، وبنس صاحب طرابلس، ووليم صاحب حصن صهيون، وقد وقف بنس ضد فملك فيما بعد أثناء قدومه إلى أنطاكية (انظر ابن العديم، منتخبات، ص ٦٦٤، والكامل طبعة أوربة، ص ٤٠٠ Gipp : op. cit, p. 512). ولعل انضمام أولئك الأمراء إليها أصرح دليل على أن القوة الصليبية في الشام أخذت تسير في الدور الذي مرت به القوات الإسلامية من قبل، ألا وهو دور الانحلال والضعف، على حين نجد أن القوة الإسلامية أخذت تمضي قدماً في سبيل القوة المادية والتكاتف الذى تجلى في شخصية نور الدين فيما بعد مما لم يخف على أشراف أنطاكية، وأدركوا وجوب القضاء على تلك المؤامرة الصليبية الإسلامية قبل استفحالها فدعوا فملك لتجدة الإمارة والضرب على أيدي العابثين بهدوئها، الطامعين في امتلاكها والقضاء على النفوذ الأكبر لملك بيت المقدس من الذى اشتد التفاف الأمراء حوله يوماً بعد يوم، وأخذ الثورة قبل أن تستمرى، وعهد بتدبير الأمور إلى رينوما سوار الأنطاكي، راجع Rev: Les Dignitaires p. d'antioche, p. 117, G. T., p. 613 — 614, Du Cang's- Rey: 391. إلا أن أليكس كانت دائماً التطلع لأخذ السلطان في يدها، فراحت تلتئم المعونة من يزنطة. لذلك رأى ملك بيت المقدس ومشيروه وجوب الإسراع في البحث عن زوج لكونستانتس فاختاروا ريموند دي بواتيه راجع: G. T., 649 — 651 Chalandon. Comènes, II, p. 180.

ثم جاء دور الرها حين ظهرت الجفوة بين ريموند دى بواتيه صاحب أنطاكية وبين جوسلين الثانى صاحب الرها ، وهى جفوة اشتدت بين الأميرين الصليبيين حتى كان كل منهما — على قول وليم الصورى — ^(١) يفرح إذا أملت بالآخر نكبة . وعلى الرغم مما بذله فولك من العمل على التوفيق بينهما مخافة قوة المسلمين التى لم يخف على أحد تفاقمها ، إلا أن هذه الجفوة سرعان ما عادت بين الأميرين عقب موت فولك . ذلك أن جوسلين الثانى صاحب الرها كان على جانب كبير من الرعونة أدت به إلى إقحام نفسه فى المنازعات الكهنوتية داخل الكنيسة اليعقوبية رغم مهادتها للكنيسة الرومانية ، إذ أبى الاعتراف بأثناسيوس الثامن (١١٣٨ — ١١٦٦ م) ، وأسرف فلم يظهر أدنى احترام للقدسات الدينية ^(٢) ، وكان اليعاقبة يعتزون بكف مار برسومة ويتبركون به فى ديرهم المعروف باسم هذا القديس ، فتجاهل جوسلين ذلك كله وأنكره عليهم وأبى إلا أن يأخذه فيما سلبه منهم ، مما أثار غضبهم ودفعهم إلى الارتقاء فى أحضان المسلمين لا سيما مساعدتهم لمجاورهم قرا أرسلان ومسعود صاحب قونية .

أضف إلى ذلك انكباب جوسلين على ملذاته الخاصة ، وإيثاره الإقامة فى تل باشر وتركه مدينة الرها فى حماية جماعة من الأرمن والسرمان ، وهم يتألفون من الإسكافية والحاكة والبزازين والطرزية والشامسة ^(٣) . أما الفرنجة فلم يكن منهم من شارك فى حمايتها سوى شزيمة ضييلين . وكيفما كان الأمر فقد أضحت واضحة لزنكى أن الفرصة سنحت لمهاجمة الرها ، على أنه تظاهر بعدم التفكير فيها حتى لا يتيح الفرصة لمن بها للتجمع

(١) Stevenson : Crusaders, p. 149. G. T., p. 709.

(٢) بل إن هناك من المسيحيين من يذهب فيعهده أميراً غير مسيحي ، يبين لنا ذلك من كلام Michael., Chroniques, p. 342 حيث يقول إن رهبان دير مار برسومة ساروا أمامه . « كالو كان مسيحياً » .

J R A S, P. 280. (٣)

ضده أو لم يد المعونة إلى أهلها ، وإذذاك يتعذر عليه امتلاكها ، ولذا خرج زنكي سنة ٥٣٨ هـ يريد الاستيلاء^(١) على أطراف الإمارات التي حوله كديار بكر . ومع أن المؤرخين رأوا أن خروجه إلى تلك النواحي كان حيلة منه لستر مقصده الحقيقي فالواقع أن استيلاءه على ديار بكر في تلك السنة كان من الخطة الزنكية المرسومة لتوطيد المملكة التي يريد إنشاءها ، وتكوين جبهة إسلامية شامية على أنقاض الإمارات والبلدان التي بأيدي الفرنجة والأمراء المسلمين الضعاف على السواء ، علما منه بأنه في هذه الأوقات ذاتها كانت هناك قوات الإمبراطورية البيزنطية ترقب الأمور عن كشب ، رغبة منها هي الأخرى في امتلاك تلك البلاد .

ولقد رأى زنكي أن الموقف يحتم عليه تكوين هذه الجبهة لدفع الخطر البيزنطي من الشمال ، واستئصال شأفة الفرنجة في الغرب والجنوب ، ومع أن هجومه على ديار بكر يمكن — مع هذا كله — أن يعتبر تعمية فإن الحيلة جازت على جوسلين الثاني ، إذ اطمأن باله وفارق إمارته وعبر الفرات إلى « تل باشر » ، ثم جاءت عيون زنكي إليه وعلى رأسها فضل الله بن جعفر نائبه على حران تحمل إليه نبأ مفارقة جوسلين لمدينة الرها . فلم يلبث قائده صلاح الدين الياغسياني أن تقدم بجموعه يوم ٢٨ نوفمبر^(٢) (أول جمادى^(٣) الآخرة ٥٣٩ هـ) نحو الرها ، كل ذلك وجوسلين عاكف على صботاته ، على حين قام بالدفاع عن البلدة ثلاثة من رجال الدين أحدهم فرنجي ، والثاني

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ٤٤٣ ، ج ١١ ، ص ٤٣ .

(٢) هذا هو التاريخ الوارد في الحوليات السريانية التي نشرها الأستاذان جب وترتون في J. R. A. S. , 281 ، أما عماد الدين فقد قدم لمحاصرتها يوم الخميس ٣٠ نوفمبر .

(٣) تفصيل قوات زنكي وقواده وموقع كل منهم بالنسبة إلى الرها وارد في J. R. A. S. , 280 — 218 ، أما فيما يتعلق ببعض أسماء الأماكن الواردة هنا فراجع op. cit. p. 103

4. note هذا وقد حلفت المصادر العربية بذكر الدفاع لزنكي على هذا الحصار ، راجع الروضتين لأبي شامة ، ج ١ ، ص ٣٦ ، وابن خلدون . العبر ، ج ٩ ، ص ٥٣٥ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ . J. R. A. S. , p. 280 — 281

سرياني ، والثالث أرمني^(١) ، ريثما تصل إليهم الإمدادات من أميرها جوسلين ومن مليزاند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس ومن ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية . على أن الفضل في استمرار هذه المقاومة وشدة الدفاع يرجعه وليم الصوري إلى « هيج » مطران البلد اللاتيني^(٢) ، وقد ترك لنا هذا المؤرخ صورة مشرقة لدفاع أهل البلدة وتفانيهم في القتال ، فضلا عن الموقف النبيل الذي وقفه المطران هيج من دفعه الرواتب من ماله الخاص لحماية الرها ، وقوله « إنه يسعده أن يموت في الدفاع عنها » ؛ وقد تباطأ ريموند دي بواتيه في نجدة الامارات الصليبية ، وتلك من الغلطات الجسام التي أخذها عليه أحد المؤرخين الصليبيين حين راح يستعرض حياته بعد قتله^(٣) ، أما ملكة بيت المقدس فقد أرسلت نجدة بلغت البلد متأخرة .

خاف زنكي أن يتسرب الملل إلى جنده ، لاسيما التركمان من طول مقاومة الأعداء لهم وشدتهم ، وخشى أن يجد العدو فسحة من الوقت تصله فيها الإمدادات ، فكتب أهلها طالبا التسليم فأبوا ، فعجل بنصب آلات الحرب وضربها بالمجانيق ، وعملت المجاعة في القوم عملها ، فلم تلبث المدينة أن سلمت إليه يوم ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ (٢٣ ديسمبر ١١٤٤)^(٤) بعد حصار عنيف وبعد أن أحيط بها من جميع الجهات وحيل بينها وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات ، حتى « صار الطائر لا يكاد يقترب منها خوفا من صوائب سهام منازلها ويقظة المضيقين عليها »^(٥) ، كما ترك لنا أحد شعراء الأرمن وصفاً لشدة قتل المسلمين بمن كان داخل الأسوار^(٦) .

J R A S, 1932, Op. Cit (١)

G T, p. 711. (٢)

G.T., p. 773. (٣)

(٤) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٩ ، المنتظم لابن الجوزي ، ج ٨ ، ورقة ١٠٠ .
JRAS, p. 284 ; Gibb : op. cit. p. 267.

(٥) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٧٩ .

(٦) فيما يتعلق بهذه الناحية في الشعر الأرمني راجع Documents Armenien 5, 258
vers 960 — 1045 ; Greg. Le Prêtre, p. 158.

ثم آمن زنكى أهل الرها وحلف لهم الأيمان المغلظة على ذلك وإن اختلفت المراجع في بقاءه على هذا اليمين^(١). والظاهر أن جند زنكى قد ازدهام النصر والفتح، فأخذوا في السلب والنهب، الأمر الذى لم يرض زنكى ألبتة، إعجابا منه بالبلد وإكبارا منه أن يفسدها، ورأى أن فى تخريب مثله ما لا يجوز فى السياسة^(٢)، والظاهر أن زنكى لم يستعمل المظالمة إلا مع الفرنجة^(٣)، أما من سواهم كالأرمن والسرمان والروم فقد وسعهم رحمته، يؤيد هذا رواية ميخائيل الشامي والمؤرخ المجهول^(٤).

لكن ما هى أهمية سقوط الرها فى يد زنكى؟ ألا أنها معقل من معاقل الكاثوليكية؟ أم لأنها بقعة من الغرب المسيحى وسط الشرق الإسلامى؟ أم لأنها كانت تهدد طرق القوافل التى تمر عبرها إلى شتى بقاع البلاد الإسلامية؟

الواقع أنها ذلك كله، وهى أيضا أول ثغرة نفذ منها المسلمون إلى غيرها من البلدان الصليبية التى لم تلبث أن سقطت فى يد زنكى. ثم إن سقوطها فى أيدي المسلمين يعتبر أول لغم وضع فى أساس البناء اللاتينى فى الشرق، كما أنه أطمع المسلمين وأمرأهم لاسيما فى عهد نور الدين من بعد — فى الانقضاض على أطراف تلك الأمارة، التى لم يبق منها فى يد جوسلين سوى تل باشر

(١) الفارقى فى ابن القلاسى، ص ٢٧٩، حاشية رقم ١.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ٤٤.

(٣) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, p. 191.

(٤) J R A S. p. 285, 290, Mich., p. 263. ويذكر المرجع الأخير أن صلاح الدين

الباغسانى ذهب إلى القلعة بعد دخول المسلمين الرها وأمسك بيد المطران وقال له « نطلب من قداسكم أن تقسم لنا على الصليب والإنجيل أن تخلى لنا لأنك تعلم تمام العلم أنكم جميعا تستحقون الموت لأنكم قاومتونا واحقرتم نبينا، ونحن مستعدون لأن نحسن معاملتكم ونطلق سراح أسراكم، وأنكم لتعرفون أنه منذ احتلال المسلمين لهذا البلد بى فى عيْنهم مدة قرنين مزدها بالسكان، واليوم — بعد خمسين عاما من احتلال الفرنجة إياه — صار خرابا، وإن الحاكم [يعنى زنكى] لمستعد لحسن معاملتكم »؛ فأخرجوا من القلعة جميع من بها من السرمان والأرمن ونهبوا الفرنجة وحدهم، كذلك يشير إلى أن المسلمين لم يتعرضوا لغير كنائس اللاتين.

وسميسطا ودلوك ومرعش وعنتاب وعزاز وألبيرة، التي لم يلبث جوسلين أن
سلمها من تلقاء ذاته إلى نجم الدين قمر تاش صاحب ماردین عدو زنكي^(١) .
وسواء أكان تسليم ألبيرة رغبة من الصليبيين في صد زنكي عنهم أم زيادة
في الإيقاع بينه وبين صاحب ماردین ، فالواقع أن سقوط الرها كان أول
ضربة عملية ضد القوة الصليبية في الشام ، ودلت على أن أمورهم أخذت منذ
ذلك الحين « تتفسخ ، ومعاقبها تفرع »^(٢) ، وهذه هي أول خطوة عملية في
إقامة السياسة التي انتهجها نور الدين فيما بعد .

لكن ما هو الثمن الذي حصل عليه الصليبيون لقاء تسليمهم ألبيرة ؟ لاشك
أن هناك غاية أعمق من زيادة النزاع ، والمتبع لسياستهم في هذا العصر يرى
أنهم أخذوا في تكوين شبه تحالف مع الإمارات التي يمكن أن تناهض القوة
الإسلامية الفتية الجديدة ، فكان هذا ثمن المصادقة بين الصليبيين أصحاب ديار
بكر ضد زنكي ، غير أن هذه المحالفات كانت محالفات شخصية فردية .
ومهما يكن الأمر فقد عد المسلمون سقوط الرها فتحامينا ، وأن المحاربين
فيها كانوا مجاهدين ، ومن مات بسيف الصليبيين فقد مات شهيدا ، مغفورة
له خطايا^(٣) .

ترى هل يمر على المسيحيين انتصار زنكي دون أن تكون له ذبول ؟ وهل
لهم أن يطمثوا إلى مجريات الأمور على ذلك المنوال ، الواقع أن هناك

(١) هذه هي رواية ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ص ٧٦ — ٤٧ ، أما ابن القلانسي « الذيل »
ص ٢٨٠ فيذكر أن عماد الدين توجه إلى حصن البيرة وأخذ في مضايقته حتى ضعف أمره
وعدمت الميرة فيه ، وكاد أن يتم له الاستيلاء عليه لولا ما بلغه من وثوب الملك فرخان شاه على
نائبه بالموصل الأمير نصير الدين ، فخاف العماد من اضطراب الأمور في ولايته فرفع الحصار
عن ألبيرة ، وجرى بعد ذلك تسليم الأفرنج بها إلى صاحب ماردین في قول ، أو غزو صاحب
ماردین لها في قول آخر . أما ابن الأثير في كتابه أنابكة الموصل ، ص ١٢٦ ، فيرى أن
شدة مقاومة الحامية في الدفاع عنها أرغمت زنكي على الارتداد عنها ، أنظر أيضا JRAS.
p. 286 — 287.

(٢) البنداري : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٨٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٤٦ .

جماعات من أهلها ساءتھا النسبة الملمة ببلدهم فأخذت تتحين الفرصة للتخلص من المسلمين ، يدفعها إلى ذلك عامل الدين من جهة وعامل السياسة من جهة أخرى .

أما من الناحية الدينية فتتمثل لنا في غضب أهلها من استيلاء المسلمين على موجودات الكنائس ، وينص المؤرخون جميعا على أن الأرمن وحدهم بعد الصليبيين — كانوا أشد سكانها نقمة على المسلمين وتأفقا منهم ، فقاموا بتدبير الثورة ضدهم ، واهتبلوا فرصة انشغال زنكي في محاصرة دمشق فيما بعد لمحاولة إخراج المسلمين من الرها ، غير أن « مكتوم أمرهم ظهر ، ونخفي أمرهم انتشر »^(١) ، فبادر زنكي إلى الضرب على أيدي موقظي الفتنة^(٢) ولكنه كان شديد العطف على السريان ، حتى لقد زار في بعض المرات كنائسهم ، وأمر أن يوضع فيها جرسان كبيران كما كانت العادة قبل مجيء الفرنجة ، وعهد بحماية البلد إلى مطرانهم ، أضاف إلى هذا أن عسكر الصليبيين المتجمع بناحية تل عدي شمالي أنطاكية (وهو العسكر الذي أوفدته مليزاندة لجدة جوسلين الثاني) كان قد ورد الرها في رمضان ٥٣٩ هـ (= مارس ١١٤٥ م) لإنجاد أهلها ، فأنهض زنكي إليه حملة وافرة العدد من طوائف التركمان والأجناد^(٣) فأعملت في ذلك العسكر مقتلة عظيمة . ومن ذلك يتبين لنا أنه كان هناك شيء من الاتصال بين أرمن الرها وصليبي أنطاكية ، هدفه القضاء على العدو المشترك . لكن زنكي كان قد اطمأن باله من ناحية أهل الرها بعد أن أعطاهم درسا قاسيا عرفوا منه مقدار بأسه وشدة بطشه ، وبث عيونه حولهم ورآى أن يحتاط لأملاكه ياخضع الحصون والقلاع التي كان يخشى أن تكون في يوم ما مبعث خطر على دولته المرجاة كما أراد ألا يكون في وسط بلاده ما هو ملك غيره حزما واحتياطاً ، فأرسل تجهيزه حاصرت فنك ، ومضى هو لحصار قلعة

(١) ابن الفلاني ، الذيل ، ص ٢٨٢ .

(٢) J A R S , 1933 , p. 291 .

(٣) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ص ٩٤ .

دوسر أو جمبر محاولا أخذها من يد صاحبها سالم بن مالك العقيلي ، ولبث مضايقا لها دون أن يستطيع امتلاكها، وترددت بينهما الرسل بغية تسليمها إلى زنكي ، فأبى ابن مالك ، فأقام الأتابك على حصارها ، ودس صاحبها من كان عماد الدين يأتقه ويدنيه إليه وهو خادم فرنجي اسمه «يرنقش»^(١) ، فقتله ليلة ٦ ربيع الآخر ٥٤١ هـ (٤ سبتمبر ١١٤٦) ولعله كان باطنيا^(٢).

بهذا ختمت صفحة أعمال زنكي ، وبموته انتهت الحلقة الأولى من سلسلة المحاولات الإسلامية في تكوين جبهة قوية لمقاومة الصليبيين ولطردهم من بلاد الشام ، وعلى الرغم من فشل جميع المحاولات التي قام بها الأمراء المسلمون في شمال العراق لذلك الغرض فإنها اختمرت في النفوس ، ووجدت مايزكيها من أطاع زنكي ، وبدا ضعف الصليبيين ، ولكنها كانت تصطدم في ذلك كله بمؤامرات الحشاشين الذين آخروا تكوين الجبهة الإسلامية حتى منتصف القرن الثاني عشر لستم تأليفها على يد نور الدين بن زنكي . ويحمل القول إن محاولات الأمراء المسلمين في شمال العراق وبلاد الشام كانت بذرة طيبة وجدت تربة قوية طيبة فأثت أكلها بفضل التكتل الشرقي واستعداد البلاد الإسلامية وإفاقها من الضربات التي أخذت تتلاحق عليها منذ مقدم الحملة الصليبية الأولى إلى أطراف منطقة الهلال الخصيب .

(١) هكذا في ابن القلانسي ، ص ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ويسميه صاحب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ، «يرنقش» ، أما ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠ . JRAS, p. 291 (1933) . فلم ينص على اسم قاتله راجع أيضا 3 . Cibb : Damascus Chronicle, p. 271. note . وتاريخ الإسلام للذهبي ، ورقة رقم ٩٤ .

(٢) يحتمل المؤرخون لتبرير قتله . فيزعمون أن الأتابك نام لينته وهو سكران فشرع الخدام في اللعب فزجرهم بخافوه . فلما نام وثب عليه كبيرهم فقتله . والظاهر أن هذا الخادم كان على صلة بسالم بن مالك العقيلي . يؤيد ذلك أن قتله خرجوا بعد ذبحهم ليأه . وراحوا إلى قلعه ، انظر الذهبي تاريخ الإسلام ، ص ٩٥ . المنتظم لابن الجوزي . ج ٨ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧ . اخبار الدول المنقطعة ، ورقة ١٦١ ب ، وأبوشامة في الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٢ ، وابن الأثير : الأتابكة ص ١٣٢ . والكامل ج ١١ ص ٥٠ ، والنجوم الزاهرة . ج ٥ ، ص ٢٧٩ وابن العديم : منتخبات . ص ٦٨٨ وابن عساكر ، ج ٥ ص ٣٨٥ . Gregoire, le Prêtre, p. 159 — 160 et note 1, p. 160.

الفصل الثاني

السلطان نور الدين

وبلدوين الثالث ملك بيت المقدس

(١١٤٣ - ١١٥٤ م)

سياسة نور الدين إزاء إمر . محاولة التوصل إلى الاستقلال عن دمشق . موقف صليبي بيت المقدس من حركته . نقض التحالف الدمشقي الصليبي . تسليم صرخد لأثر وفشل الحملة الصليبية . أسباب هذا الفشل . البابا يوجين الثالث يدعو للحرب الصليبية الثانية . استجابة لويس السابع وكونراد الثالث . موقف الأمبراطورية البيزنطية . موادعتها مسعود سلطان قونية . وصول لويس السابع إلى أنطاكية . فشل ريموند دي بواتيه في توجيه الحملة الصليبية ضد حلب بسبب سياسة مليزاند ملكة بيت المقدس . الجفوة بين ريموند ولويس السابع . مؤتمر بيت المقدس الصليبي . تقرير مهاجمة دمشق . عوامله ونتائجه . بلدوين الثالث ومحاولته الاتفاق مع دمشق . تخوف نور الدين وقيامه بحملة حورات . استغاثة دمشق ببلدوين ١١٥٠ . نور الدين « يجاهد » أرباب دمشق . الصلح بينهما . معاودته إثارة دمشق . رحيل الصليبيين . هجوم نور الدين على دمشق ونزوله « البقاع » . أبقى يطلب الصلح . مهاجمة بلدوين الثالث لعسقلان تحمل نور الدين على ضم دمشق إليه نهائياً سنة ١١٥٤ .

انقسمت مملكة زنكي بعد وفاته إلى قسمين . الشرق وعليه ابنه الأكبر غاري ومقره مدينة الموصل ، والغربي وعليه ولده الآخر نور الدين محمود ومقره مدينة حلب . وقد أدى الوضع الجغرافي للقسم الغربي لأن يكون صاحبه وريثا للمشككتين الكبيرتين اللتين صرف زنكي في معالجتهما معظم أيامه ،

وهما دمشق والقوات الصليبية بالإمارات اللاتينية المختلفة .

على أن نور الدين في مملكته بحلب كان أحسن مكاناً من أييه، لاضطلاع أخيه غازي من ناحية الشرق على الأقل بمراقبة القوات المتطلعة للوثوب من كل حذب وصوب على شقي المملكة الزنكية . والواقع أن نور الدين لم يكذب يستقر بحلب حتى بدت له أطاع دمشق حيث كان « أنر » صاحب الكلمة النافذة والرأي المسموع إلى جانب أميرها محمد بن بوري، فتم طلع أنر لاسترداد بعلبك قبل أن يفيق الزنكيون بما نزل بهم من مقتل عميدهم ، ولم يجد أدنى صعوبة في تحقيق بغيته ، إذ سلمها إليه واليها نجم الدين أيوب بن شاذي في جمادى الأولى ٥٤١ هـ (أكتوبر ١١٤٦ م ^(١)) . وقد قرر أيوب أن يسلمه إياها اعتقاداً منه فيما يبدو أن نور الدين لن يتحرك لنجدته إذا هو اختار المقاومة ، وأن أنر سيكون الشخصية البارزة بين القوى الإسلامية من بعد زنكي ، ولا أقل من المسارعة إلى كسب صداقته بتسليم بعلبك إليه ، ولم يعدم من المؤرخين من يبرر عمله هذا فينعتبه بأنه « عمل دل على معرفة منه بالأمور » ويظهر أيضاً أن أيوب كان أكثر جنوحاً للسلم في كل أعماله ، وأن ما عرضه عليه « أنر » ثمناً لتسليم بعلبك قد كفاه مؤونة التردد ، إذ أقطعه أتابك دمشق إقطاعاً ومالاً وعشر قرى من بلاد دمشق ^(٢) .

ولقد بدا كأنما نجم الدين كان محقاً فيما فعل من تسليم بعلبك لأنر، فإن نور الدين لم يحرك ساكناً على الرغم من ذلك التحدى العنيف السافر من أتابك دمشق ، على أن هذا الموقف السلمي الذي استهله به نور الدين عهده إنما يرجع إلى السياسة التي رسمها لنفسه لتكميل مشروع أييه ، وهو المحافظة على الرها والتفرغ لمحاربة الإمارات الصليبية الباقية، إذ رأى أن تلك العملية

(١) Gibb : Damascus Chronicle, p, 273.

(٢) ابن القلانسي : الذيل، ص ٢٧٧ — ٢٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٥٣ ،

Gibb : Op. Cit. Loc. Cit., note 1.

تتطلب منه اكتساب عطف المسلمين الذين عليهم مواقف زكي منهم أن يقفوا من ابنه موقف التشكك والارتياب، واعتقد أن سياسة الحرب ضد الصليبيين أن يقدر لها النجاح إلا بعد لم شمل القوى الإسلامية وتكتملها جميعها كتلة واحدة يمكنها من المقاومة بل ومن الهجوم، لذلك تقرب نور الدين إلى أنر بدلا من أن يعلن الحرب عليه أو يحاول إخراج عماره، فتزوج من ابنته سنة ١١٤٧ م. على أن زواج نور الدين من ابنة أنر لم يؤد إلى إلغاء الحلف القائم بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس وسائر الصليبيين بالشام، بل ظل أنر حافظا للوادة التي بينه وبينهم، لعله أن ضياع ذلك الحلف قد يؤدى إلى ضياع دمشق. ولو كان الأمر بيد « أنر » وحده لبقى ذلك الحلف قائما على الرغم من زواج نور الدين بابنته، غير أن الظروف عملت على تحطيم الحلف في سرعة غير منتظرة ولا مرجوة من جانب أتاك دمشق. ذلك أن « ألتونتاش »^(١) وإلى حوران فكر في الاستقلال بولايته، وأعلن الخروج على الأمير محمد بن بوري وأتابكه أنر، وتلفت حوله باحثا عن عضده فلم يجد سوى مملكة بيت المقدس لتحقيق مأربه، شجعه على ذلك عليه بأن سياسة المسالمة التي دأب عليها فولك الخامس نحو دمشق قد انتهت بوفاة هذا الملك في نوفمبر سنة ١١٤٧ م، وقيام الماسكة الوالدة مليوناند بالوصاية على ولدها بلدوين الثالث. وكانت مليوناند قد قربت إليها أحد أقاربها واسمه « مناسي »^(٢) الذي تطلع للاستبداد بالحكم، ولم تجد الماسكة

(١) هكذا في Stevenson. Crusaders in the East, p. 158, Gibb : Op. Cit, p. 276 والروضتين لأبي شامة، ص ٥٠، أما صاحب الذيل، ص ٢٨٩، ٢٩٠ فليسميه « أليونياس »، ويسميه وليم الصوري Tantayos، راجع ثبت الأعلام الواردة في آخر هذا الكتاب، وفي الاعتبار لأسامة بن منقذ شبه بهذا الاسم برسم « ألتونتاش »، وهو في المخطوطة الأصلية بغير نقط، وإنما التقيط من الناشر الدكتور فيليب حتى كما نص على ذلك في ص ٧٨ حاشية رقم ١٧٨.

(٢) Rey : Colonies Franques, p. 544. ; G. T., p. 780 — 781 وسأني تفصيل هذا الدور في نهاية الحرب الصليبية الثانية بعد قليل.

الوالدة أدنى غضاضة في مساعدته رغم أن ذلك يضر بمصالح ابنها والمملكة معا ، ولم تتخرج عن التآمر على ولدها بلدوين الثالث من أجل تحقيق مخطامع « مناسى » ، فلا عجب أن شجعت تلك الحال والى حوران على التفكير في مفاوضة مملكة بيت المقدس رجاء معاونته في الانفصال عن دمشق ، فغادر حوران في ذى الحجة سنة ٥٤١ تاركا بها زوجته مع قليل من الجند ^(١) التابعين لحوران. وقد رأى الأمراء الصليبيون في بيت المقدس في ذلك العرض فرصة طيبة لمد نفوذهم إلى تلك البقاع ، عسى أن يؤدى ذلك في النهاية إلى أخذ دمشق وما حولها وبذلك يجد أولئك المخاطرون إمارة جديدة تسع نشاطهم ويكوثون في نواحيها مناطق تستظل بالنفوذ الصليبي ، ووافقهم على هذا الرأي مؤتمر ضم أمراء أنطاكية وطرابلس ، فأرسلوا إلى « أنر » رسلا من قبلهم ينبئونه بانتهاء أجل المودعة التى بينه وبين القوى الصليبية بالشام ، وأنهم آخذون في مساعدة والى حوران لتحقيق مطلبه ، فأجابهم « أنر » بأن استمرار الحلف الدمشقي الصليبي يعود على الجانبين بالفائدة ^(٢) ، ووصل رسلمهم بكثير من الهدايا والخلع مما يدل على صدق فى رغبته إبقاء الحال على ما هى عليه .

الواقع أن أنر أدرك أن تحالفه مع الصليبيين — رغم ما فيه من الخط لكرامته فى أعين بعض المسلمين — أسلم عاقبة من بقائه وحيدا أمام نور الدين الذى ما فتى يتطلع إلى استرجاع بعلبك والعودة إلى مشروع الاستيلاء على دمشق لذلك رأى أنر ألا بد له من الإبقاء على ذلك الحلف . ويظهر أن جانبنا من مجلس الدولة بمملكة بيت المقدس كان يؤثر أيضا المحافظة على ما بين المملكة وبين دمشق من المودعة ، بدليل الرسالة التى أنفذوها إلى أنر مرة أخرى

(١) ابن القلانسي : الدبل ، ص ٢٨٩ .

(٢) G. T., p. 716 — 717.

يطلبون منه الإذن للقوات الصليبية أن تعبر أرضه لترد ألتونتاش إلى ولايته ويتعهدون له ألا يصيب دمشق وما حوله أي خطر منهم^(١). وقد حمل تلك الرسالة « برنارد فيشييه » « Bernard Vachiers » أحد فرسان الصليبيين وكان متقنا للسان العربي ، فعاد هذا الفارس إلى بيت المقدس وأيد رأي « أنر » وأوضح الملك بلدوين الثالث — وكان غلاما — ولحاشيته أنه من الخير للصليبيين بالشام أن يخضوا الطرف عن حملتهم التي جهزوها لمساعدة والي حوران .

غير أن جماعة من الفرسان والبارونات بمملكة بيت المقدس رأوا ألا يتراجعوا عن عهد قطعه لالتونتاش على الرغم من إدراكهم التام لضرورة المحافظة على التحالف الدمشقي الصليبي ، وذلك لأن مشروع مساعدة ألتونتاش كان قد اختلط في الواقع برغبة بعضهم في امتلاك أراض وحصون جديدة على حساب القوات الإسلامية المجاورة . لذلك انتهى الأمر بقيام الحملة بقيادة الملك بلدوين الثالث وجماعة الأمراء والبارونات في مايو سنة ١١٤٧ من طبرية ، ثم عرجت الحملة نحو « جولان » على شاطئ اليرموك لأنه أقصر الطرق المؤدية إلى حوران ، وواصلت السير حتى بلغت وادي الزيدى حيث انضمت إليها فئة من رجال ألتونتاش قاصدة صرخد^(٢) . وبينما الحملة الصليبية في طريقها خرج أنر بما استطاع جمعه من القوات الإسلامية وعزم على أن يقطع على المغيرين طريقهم ويحول بينهم وبين إتمام رحلتهم^(٣) . فنزل أولا على صرخد ، وفاجأها في غيبة صاحبها ألتونتاش ، لكنها استعصت عليه ، فأرسل يستعين بنور الدين الذي لبي دعوته ، وأقبل نور الدين في مايو

(١) G. T, p. 717.

(٢) ابن الجوزي : المنتظم في أخبار الأمم، ج ٨ ، ص ١١٥ — ١١٦ ، G. T. , p. 718.

(٣) ابن الفلاني : الدليل ، ص ٢٨٩ ، Gibb: Damascus Chronicle, p. 277.

١١٤٧^(١) في جيش كثيف وجماعة من التركان « فلم يشاهد أحسن من عسكره
وهيئته وعدته ووفور عدته » ، وقد فزع مسيحيو صرخد وأصحاب ألتونتاش من
قوة معين الدين ونور الدين « وزاد من جزعهم ما بلغهم عما لقيته هذه الحملة
الصليبية طول الطريق من الظمأ والمشقة » ، مما سيؤدي إلى تأخير وصولها
إليهم . لذا أرسلت زوجة ألتونتاش من حوران إلى أنز وإلى نور الدين
تتلمس منهما الأمان ، ولم تكن صادقة فيما أظهرته من الرغبة في الاستسلام
ولكنها طمعت في أن تكسب الوقت ، حتى إذا وصلت الإمدادات الصليبية
إلى صرخد صار من اليسير رفع الحصار عنها ، ولم يفت مرماها إلا تابك أنز
فألح في الحصار وتم له ما أراد ، فتسلم صرخد دون أن يتناهي خبر التسليم
إلى رجال الحملة الصليبية ، ومن ثم لم يعد هنالك ما يدعو لها ألبتة . كما أنه لم
يعد ثمة أمل في إرجاع الحلف بين دمشق وبين بيت المقدس بعد أن نهج
الصليبيون بمملكة بيت المقدس هذا النهج الخاطيء ورسموا لأنفسهم سياسة
ملتوية أضرت بمصالحهم ، وكشفت عن مبلغ فساد أمورهم وقصر نظر القائمين
بتدبير شئونهم .

على أن الحملة الصليبية لم تشأ العودة صفرا للدين ، بل رأت التحول عن
طريقها إلى بصرى ، ولم يكن رجالها مصيدين في ذلك التوجيه الجديد ، لأنهم
بلوا في أثنائه بنقص في الأقوات والمياه والجند ، فضلا عما عانوه من مشقات
الطريق^(٢) . ولما علم أنز ونور الدين بتلك الخطوة الجديدة « نهضت جيوشهما
كالشواهين إلى صيدها ، والبنزة إلى أحجالها » وكان الصليبيون قد تغلبوا على
بعض صعوباتهم حينما دهم ألتونتاش على آبار عذبة يستقون منها ، لكنهم

(١) حقق تاريخ هذه الحملة ونهوض نور الدين الأستاذ جب في المرجع السابق ، ص ٢٧٧ ، حاشية
رقم ١ ، كما صيغ ما جاء في ابن الفلاني ، ص ٢٨٩ ، س ٦ من تحت .

G. T., p. 719. (٢)

لم يكادوا يبلغونها حتى وجدوا أنز ونور الدين وجنودهما قد سبقوهم^(١) إليها ، وحالوا بينهم وبينها ، وجرت بين الفريقين وقعة حول تلك الآبار في السابع والعشرين من محرم ٥٤٢ هـ (يونيو ١١٤٧) ^(٢) . وامتلك المسلمون بعدها بصرى .^(٣)

لم يجد الصليبيون بدأ بعدئذ من التراجع إلى بيت المقدس مخافة أن تتقدم جيوش المسلمين فتغير على بلادهم بعد الاستيلاء على بصرى لقربها من حدود المملكة الصليبية . وقد أظهر بلدين الثالث - رغم صغر سنه - بطولة لم تكن تنتظر من فتى في مثل عمره ، لكن قد توجد الحكمة وسداد الرأي والشعور بالمسؤولية في الشباب والشيب ، إذ أبى التراجع والسلامة لنفسه دون رجاله وأصر على أن يشاطر جيشه مصيره ولو أدى به إلى التهلكة ، على أن أنز لم يتعقبهم أو يتخطف ساقتهم .^(٤)

ولعل أعجب الصور القلبية التي تركها وليم الصوري بكتابه هي تصويره لارتداد الصليبيين بقيادة بلدوين الثالث في أكل نظام وأعجبه فلم يصرفهم هول الموقف عن المحافظة على جرحاهم ومرضاهم ، فجعلوا منهم فريقا يحمل هؤلاء رغم المشقة التي لا قوها ، مما دعى المسلمين للإعجاب بهم وقولهم عنهم « إنهم شعب حديدى » ^(٥) . ولعل هذا الإعجاب هو الذي أدى بأنزل كلف المسلمين عنهم « إشفاقا من كرة تكون لهم » ^(٦) أى مخافة أن ينقلبوا إلى الهجوم فجأة فيفسدون عليه نصرته . ولعل « أنز » قد عمد إلى ذلك أيضا رغبة منه في إفهام نور الدين - من طرف خفي - أن الصليبيين لا يزالون على جانب من القوة لا يستهان به ، وأن هذه النكبة التي حاقت بهم إن هي إلا نكبة

G. T., p. 721. (١)

Gibb : Damascus Chronicle. p. 278. (٢)

(٣) ابن القلائسي : الذيل ، ص ٢٩٠ .

G. T., p. 720. (٤)

G. T., p. 723. (٥)

(٦) ابن القلائسي : شرحه ، ص ٢٩٠ .

عارضة لاتلبث أن تزول ، ويكون هدف معين الدين من ذلك هو إخافة نور الدين منهم ، وتهديده بتحالفه معهم إن عاد أمير حلب إلى التفكير في الاستيلاء على دمشق . وربما عمد أنر إلى ذلك الموقف من الصليبيين لأنه لم يرد القضاء على الصليبيين حفظاً للتوازن ، ولأن إضعافهم وتحطيم قواهم يؤدي بنور الدين إلى التفكير الجدي في الاستيلاء على دمشق وتيسير الأمر عليه .

وكيفما كان الأمر فقد ألقي الصليبيون أنفسهم في موقف صعب ، إذ أخذت نبال المسلمين تنوشهم من كل جانب رغم تعليقات أنر ، كما ترصد لهم الترياق في معارج الطرق والأوعار . ولم ير الصليبيون بداً من أن يبعثوا بمبعوث من قبلهم « يتقن اللسان العربي »^(١) ، ليسأل أنر ونور الدين أن يأذنوا لهم بهدنة يتمكنون خلالها من دفن قتلاهم ثم العودة إلى بيت المقدس فلم يقدر لهذا الرسول تأدية رسالته ، إذ عوجل في الطريق على يد نفر من المسلمين أردوه قتيلاً ، واضطر الصليبيون لمتابعة السير رغم أخطار الطريق وبعد الشقة وتربص العصابات لهم وقلة ما يدهم من الزاد^(٢) . وهنا تظهر حادثة تتمجلى فيها روح الفروسية التي امتاز بها العصر الوسيط ، فقد وصل إلى الصليبيين مبعوث من قبل « أنر » يمدحهم بالمشونة اللازمة حتى يعودوا إلى بلادهم ، كما جاءهم فارس عرني يبصرهم مسالك الطريق^(٣) ، أفلا يدل ذلك أيضاً على أن أنر كان مرغماً على مصالحة نور الدين ، وأنه كان يخشى أن تنجو دمشق من الخطر الصليبي لتقع فريسة للخطر النوري الذي لم يخف عليه ولا على بلدوين الثالث ؟ والواقع أن التحالف الدمشقي الصليبي كان

(١) G. T., p. 725. ولم ترد الإشارة في هذا المرجع المعاصر إلى اسم ذلك والأغلب أنه هو نفس الفارس الصليبي « برنارد فيشييه » ، حيث يذكر وليم الصوري في ثنايا عرض هذه الحال إلى أنه أوفد من قبل في بعثة إلى المسلمين ، ولم يسبق للصليبيين أن بعثوا من قبل سوى « برنارد فيشييه » .

G. T., p. 724. (٢)

G. T., p. 724—725. (٣)

في صالح الصليبيين أكثر مما هو في صالح الدماشقة ، وإنما انتفعت به دمشق مؤقتاً في إنقاذها من استيلاء زنكي عليها من قبل ، وكانت السياسة العامة تقتضى من الصليبيين أن يكونوا أكثر تبصراً وإدراكاً للحوادث والنتائج فلا يفصمرون عرى ذلك التحالف لنزوة طارئة من أجل رغبة جالت في نفوسهم ، وكان الأجدر بهم أن يردوا « ألتونتاش » عن قصده ، أو يتركوه لصاحب دمشق الذى كان بلا شك يعدّها لهم منة كريمة عليه ، وبذلك تتأكد عنده رغبتهم الصادقة في المحافظة على مودته ؛ غير أنهم لم يقصدوا الظروف ، فأيدوا « ألتونتاش » في نزوته وفشل كل منهما فيما استهدفه ، وهكذا خسر صليبيو بيت المقدس شيئين : أولهما تحالفهم مع دمشق وثانيهما استطاعتهم رد صاحبهم الأرمنى إلى بلده . ثم هنالك ما هو أشد من ذلك كله ألا وهو التحالف بين أنر وبين نور الدين ، الأمر الذى كان ينبغى على الصليبيين العمل على تجنبه حتى لا يتيحوا الفرصة لنور الدين للتدخل في أمور دمشق ، فيصبح على مقربة منها ومنهم ، وخطر أعظم عليهم . ولم يفت شبه هذا الأمر فولك الخامس^(١) ، فكان يسعى جهده لابقاء دمشق بعيدة عن مجال التحالف مع عماد الدين زنكي ، ولكن سوء سياسة ميليزاند ورعونة تصرف مناسي وصغر سن بلدين الثالث عملت على سرعة تدخل نور الدين في أمور دمشق تدخلا لم يكن من صالح أنر ولا من فائدة الصليبيين ، بل سيؤدى حالا إلى تمكين السلطان من تحطيم القوى الصليبية في بلاد الشام بأكملها .

على أن التحالف بين نور الدين وأنر أدى إلى أكثر مما يبدو لأول وهلة ، لأن الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وهى الحملة التى أخذت تتكون في أوربة

(١) دأب فولك الخامس (١١٣١—١١٤٢ م) على قطع كل صلة تحالف بين الإمارات الإسلامية وبين زنكي ، ولذلك نراه ينهض لدفع عماد الدين عن حمص في يوليو سنة ١١٣٧ ، وإن فرسها السكتاب المسلمون برغبته في امتلاكها وضمها للصليبيين ، أنظر في ذلك ابن العديم ، ص ٦٧٢ — ٦٧٣ .

بعد سقوط الرها لم تفكر حين وصولها إلى الشرق في تحقيق ما جاءت من أجله - أي استرجاع الرها - بل وقعت تحت تأثير الخطر الذي أحست به مملكة بيت المقدس من جراء التحالف بين نور الدين، ووجهت قواتها ضد دمشق بغية الاستيلاء عليها.

ذلك أنه لم تؤكد أخبار سقوط الرها وانتصارات نور الدين فيها على من بها من الصليبيين تبلغ مسامع البابا «يوجين الثالث» حتى اعتزم أن يمثل الدور الذي مثله إربان الثاني من قبل، وهو تأليب أوروبا، لا لاسترداد بيت المقدس بل لنصرة الصليب الذي أصبح مهدداً بالزوال من الشرق الأدنى، فبعث إلى لويس وغيره رسالة جاء فيها «من الأسقف يوجين، خادم خدام الرب، إلى أعز أبنائه في المسيح لويس (السابع) ملك فرنسا. وإلى أبنائه الأحباء... إن الرها قد احتلها الكفرة كما احتلوا كثيراً غيرها من قلاع النصاري» والخطاب طويل حفظته لنا الوثائق الغربية بنصه^(١)

ومن قام بالدعاية لتلك الحملة القديس «برنارد» الذي دفعته حماسته إلى مطالبة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا للمشاركة مع لويس السابع ملك فرنسا في قيادة الصليبيين إلى الشام، وقد لبى الإمبراطور والملك هذه الدعوة واستجابا لها وأخذ كل منهما يعد جيوشه للرحيل، وبذا يمكن أن يقال إن هذه الحملة الصليبية المعروفة بالثانية كانت حملة نظامية وليست هجرة شعوبية كالأولى؛ ولقد تطلع روجر الثاني ملك صقلية للمساهمة بنفسه في هذا المشروع رغبة منه في أن يخرج بنصيب، سواء أكان ذلك على حساب المسلمين أم الصليبيين بالشرق. على أن الواقع أنه كان يتطلع على وجه الخصوص إلى أنطاكية التي عدها من حقه^(٢) بحق قرابته للأمير الراحل،

(١) Hist. Docum. translated by E. Henderson, p 333 - 336.

وهذا الخطاب من كتاب «وثائق تاريخية متعلقة بالمصور الوسطى» مترجمة بقلم المؤلف ولم ينشر بعد.

(٢) Chalandon : Comnènes, t. II, p. 265.

ولم يفت ذلك الملك لويس السابع ملك فرنسا، فلم يوافق على ما عرضه «روجر» من الاستعداد للمساهمة بنفسه في الحملة، فضلا عن الرجال والسفن لأنه لا يتأتى للملك فرنسا أن يقبل تلك العروض التي كانت لابد أن تؤدي إلى اصطدام روجر بالأمير الفرنسي ريموند دي بواتيه صاحب أنطاكية وعم الملكة «إلينورا» زوج لويس السابع. على أن مشغلة لويس السابع بأمر أنطاكية لم تنته برفضه لعروض روجر، إذ جاءه رسول من عند مانويل كومنين إمبراطور الدولة البيزنطية وهو في بعض الطريق عبر أوربة يعرض عليه استعداده لتموين الجيش الفرنسي على شرط أن يعترف لويس السابع بسلطان الدولة البيزنطية على أنطاكية^(١)، وذلك فضلا عن مطالب أخرى طلبها الإمبراطور البيزنطي من كل من لويس السابع وكروثر الثالث على أن تلك المطالب لم تلق قبولا.

تلقت مانويل حوله ليري وسيلة تساعد على تحقيق هدفه وإفهام الأوربيين أنه قادر على إيدائهم إذا شاء. وأراد أن يطعنهم في الصميم. وأية طعنة أشد وقعاً على الفرنجة من أن يتم الصلح بينه - وهو الإمبراطور المسيحي - وبين مسعود - سلطان قونية المسلم - الذي لا بد من أن يعبر الصليبيون ببلاده^(٢). وهكذا خدمت الظروف نور الدين خاصة والإمارات الإسلامية عامة حيث شب النزاع بين إمبراطور الدولة البيزنطية وقادة الحملة الصليبية. ولم يلبث ذلك النزاع أن استحال إلى انقسام المسيحيين إلى معسكرين يسمى كل منهما الظن بالآخر. ثم وصل لويس السابع إلى أنطاكية^(٣) يوم ١٩ مارس ١١٤٨م عن طريق القسطنطينية وآسيا الصغرى،

(١) Chalandon : op. cit. t II, p. 289 - 290 (d'après Oden de Deuil)

(٢) يصرح المؤرخ اليوناني «نيكتاس» أن مانويل كومنين بعث بالرسائل إلى مسعود سلطان قونية يحثه على التهنؤ لقتال الألمان في الوقت الذي كان فيه يعد العدة لاستقبالهم ويتظاهر بالإخلاص لهم، أنظر : Stevenson : Crusaders in the East, p. 159; Dict. : des Croisades, p. 285.

(٣) فيما يتعلق بأوليات نزول الفرنسيين في أنطاكية، والبارونات الذين سحجوا الملك

لويس السابع راجع : Rey : Hist. des Princes d'Antioch, p. 367

فبعث مقدم حملته الفرخ في نفوس ريموند دي بواتيه ورجاله وأهل الإمارة جميعا . ذلك أن أنطاكية كانت تتوقع منذ زمن بعيد أن تكون هدفا من أهداف نور الدين . إذ دلت بعض حركاته التي انتهت باستيلائه على أرتاح وكفر لانا القريبة منها على أنه شديد الرغبة في الاستيلاء على أنطاكية أو في إضعافها على الأقل بالاستيلاء على أعمالها القريبة منه حتى لا تكون منفذاً يثب منه الصليبيون أو البيزنطيون على حلب والأملاك الإسلامية بين حين وآخر . ولذا أشار « ريموند » بتوجيه الجيوش الفرنسية بقيادة لويس السابع ضد حلب وحماة . وطمع أن يتمكن بمعونة الفرنسيين من الاستيلاء على مدن عدوه وحصونه قبل أن يتحرك ذلك العدو نحو أنطاكية . ولم يكن ريموند مبالغا أو مشمتطا في تقديره ، فإن إمارة أنطاكية كانت ملاصقة لأملاك نور الدين ، وخريطة الحروب الصليبية تبين أن أنطاكية والرها أشد الإمارات اللاتينية بيلا بالشام حاجة لمساعدة الأوربيين ، وهما في الوقت ذاته محور الصراع الحقيقي بين نور الدين والصليبيين والبيزنطيين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

لم يفك ريموند دي بواتيه أن يبين للصليبيين الأوربيين الخطر الجسيم الذي يهدد الإمارات اللاتينية بالشام من جراء وجود نور الدين قويا في حلب ، لأن مجرد هذا الوضع الجغرافي يمكنه من السيطرة على الطرق المؤدية إلى أنطاكية ، ومن ثم إلى طرابلس وبيت المقدس ، ومعنى هذا قدرته التامة على ضرب الإمارات الفرنجية في الشام متى شاء ، فإن لم يفعل ذلك فلا أقل من أنه يظل مصدر فزع ورعب لها ، أضف إلى ذلك أن استيلاء نور الدين على أرتاح وكفر لانا أدى إلى وجود سور من الحاميات الإسلامية شرقي نهر العاصي ، يحول بين صليبي أنطاكية وبين الداخل ، ويهدد سلامة الإمارة بين حين وآخر .

وقد يقال هنا إن مملكة بيت المقدس كانت أولى بتلك الجيوش الفرنسية التي بقيادة لويس السابع من أية إمارة صليبية أخرى لوجود الفاطميين في

مصر وقيام الدولة البورية في دمشق ، وكلاهما من يستطيع الإضرار ببית المقدس . والرد على هذا القول يتلخص في أن مصر كانت تحتاز دوراً عصياً هو دور الوزراء وتنازعهم السلطان فيما بينهم ، مما صرف الخلافة الفاطمية عن كل شيء إلا مشاكلها الداخلية ، أما إمارة دمشق فقد أخذت ترقب عن كشب الصراع بين نور الدين وبين الصليبيين دون أن تتدخل في صف أحد الفريقين . أما المسلمون من أهل شمال الشام فقد رجفت قلوبهم ، وخافوا على مصيرهم ومصير الإسلام في تلك الفترة العصية ، حتى يرى وليم الصوري أن الفرصة كانت جرد مواتية لتحقيق الهدف الصليبي لو لم يجعل الملك الفرنسي زيارة بيت المقدس مقدمة على ماسواها ، بل لقد ذهب لويس إلى أبعد من ذلك فصارح ريموند بأنه لم يحمل الصليب إلا دفاعاً عن مملكة بيت المقدس وزيارة أماكنها المقدسة ، مما أحق أمير أنطاكية . وربما يرجع سبب ذلك إلى أن مليناند - القائمة بالوصاية على عرش مملكة بيت المقدس - بعثت إلى لويس تصرفه عن مهاجمة حلب ، وتدعوه للإسراع إلى بيت المقدس حيث كان الملك كونراد في انتظاره^(١)

أضف إلى ذلك أن سوء ظن الملك ريموند عم زوجته دفعه لسلوك سييل أذهب ريح الحملة ، فقد كره لويس من « إيلانور » ماتبديه من محبة لعمها ريموند^(٢) ، كما كره منها انفرادها معاً أثار ريبتة ، وإن أمكن الرد على ذلك بأن ريموند كان يحاول إفهام « إيلانور » الخطر النوري على إمارته ،

G. T., p. 751 — 756; Rey : Hist. des Princes d'Antioch, p. 367. (١)

Rey : Hist. des Princes d'Antioch p. 367; J.R.A.S. 1932, p. 278 .

(٢) بل لقد حدثت في مارس ١١٤٨ « قضية كبرى » بأنطاكية لعلاقات كانت بين ريمونددى بواتيه وبين ابنة أخيه « إيلانورا » ، حتى لقد جاهر الملك بعصيانها أن تتبعه ، فرأى عليها ، إلا أن من حوله أشاروا عليه بتأجيل ذلك الطلاق إلى حين رجوعه إلى فرنسا ، حتى لاندلج الألسن عرض الملك أنظر في ذلك : G. T., p. 753, Laviss : Hist. de : France, vol III, Paris. I, p. 17 — 18, Migae: op. cit.

ويدعوها للتأثير على زوجها بما يتلاءم والصالح المسيحي ، وتوجيه قواته ضد نور الدين وحده .

ثم كشف لويس القناع عن خطته ، وتها هو وجيشه للرحيل إلى بيت المقدس ، وطبيعي أن تصحبه ملكة فرنسا ، إلا أنها أصرّت على البقاء إلى جانب عمها في أنطاكية ، وتآزمت الأمور حتى طلبت الطلاق^(١) من زوجها بسبب نكوصه عن تنفيذ رغبات ريموند ، ولعلها توقعت أن يرجع لويس السابع عن فكرته إذا هي هددته بالطلاق ، ويعود إلى تحقيق ما يريد دى بواتيه ، غير أن زوجها أبى التراجع عما اعتزمه ، ورحل — تحت جنح الظلام — إلى بيت المقدس دون أن يخبر أمير أنطاكية برحيله . ولم يكد الصليبيون الأوريون يرحلون عن أنطاكية ، وتترامى أخبار الجفوة بينهم وبين أميرها حتى تنفس المسلمون الصعداء ، وحمدوا الظرف الذى خلصهم من خطر أوشك أن يلم بهم^(٢) .

انقسم الصليبيون إلى معسكرين : أحدهما مؤلف من الجماعات الوافدة فى الحملة الصليبية الثانية ، والآخر قوامه الفريق الذى يرى ضرورة معالجة نور الدين ، لاسيما والظروف مواتية ، وهذا الفريق الثانى يتزعمه — بطبيعة الحال — ريموند دى بواتيه الذى رأى أنه أحكم الصليبيين بالشام . لكن إذا كان الصليبيون قد عمدوا إلى غير ما تمناه ريموند ، ولم يقوموا بعمل إيجابى لانقاذ الرها أو مساعدة أنطاكية فقد فكر ريموند أن يحمل الراية التى تخلى عنها ملوك أوربة من أجل المصالح الصليبية ، ورأى أن الفكرة التى لبث على المطالبة بها — وهى مهاجمة حلب — لا بد وأن يظل قائماً بها ، ولعله هدف من وراء ذلك أن يحرك العطف على مطالبه إذا هو نهض وحده للقضاء على نور الدين .

ثم بلغ لويس السابع بيت المقدس فى يونيو ١١٤٨ م فوجد كوزراد فى

G. T., p. 753. (١)

Stevenson : Crusaders in the East, p. 155. (٢)

انتظاره بها ، فنزل ضيفا على بلدوين الثالث ، كما توافد عليه رعييل كبير من أمراء الفرنجة وأشرفهم من جميع بلاد الشام ، وفريق غير ضئيل من أمراء أوروبة . والتأم عقد الصليبيين من الملوك والأمراء والأشراف والبارونات ورجال الدين في ٢٤ يونيو ١١٤٨ م لتحديد وجهة الحملة المزمع القيام بها ^(١) . وكان من الطبيعي في غير تلك الظروف الراهنة أن يكون الاتفاق على وجهتها أمراً قد فرغوا منه قبل تحركهم من أوربة . غير أن الأحداث الطارئة دعت القوم إلى معاودة التفكير في القيام بعمل ما — غير مساعدة أنطاكية — حتى يثبت الصليبيون أنهم لم يقصروا في واجبهم .

وتقرير وجهة تلك الحملة إنما هو في الواقع تقرير لمصير القوات الصليبية والإسلامية في الشرق الأدنى في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وتبيان صريح لمدى ما قد يكون هناك من النصر والتآلف بين الجماعات الصليبية . ومقدار استعداد أوربة لتأييدها بالمال والرجال ^(٢) .

تداول المؤتمرون في حالة الصليبيين بالشام ، ومن الغريب أنهم أمسكوا جميعاً عن الإشارة إلى خطر نور الدين ، والأغرب منه أنهم رأوا توجيه قواتهم ضد دمشق حليفة بيت المقدس ، وتلك الخطة خطأ شنيع في سياستهم . إذ بدلا من محاولتهم ضم دمشق — كحليف — إلى جانبهم جاهدوها بالعداء الصريح الذي لا مبرر له . ومن ثم أتاحوا لنور الدين فرصة ملائمة للتفكير الجدي في ضم دمشق إليه فيما بعد والاتحاد معها الآن ^(٣) .

ولا بد أن الصليبيين قد تعللوا بأسباب يبررون بها مهاجمة دمشق ، والواقع

(١) G. T. P. 758 - 759.

(٢) تقييد عن هذا الاجتماع صليبيو أنطاكية وماراباس ، أما أنطاكية فلنزاع القائم بينهم وبين لويس السابع كما تقدم بالمتن ، وأما فرجة ماراباس فللنزاع القائم بين برتراند (بدران) بن ألفونس جوردان وعمه ريموند الثاني كونت طرابلس وانشغال الكونت ريموند بذلك النزاع ، راجع : Crousset : Hist. des Croisades, Vol. II, p. 255, note 1 (d'après : Vaissette : Hist. de Languedoc.).

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 155, 159 - 160.

أنه ليس بين أيدينا شيء صريح نستطيع الاستدلال به على تلك الدواعي، وإن كل ما هنالك من دلالة هو أن القائمين بتدبير شئون مملكة بيت المقدس لم يكونوا يفكرون في المحافظة على الهيبة التي اكتسبتها المملكة الصليبية بالشام، بل اتجهوا إلى النفع المادي القريب وهو تأمين حدودها. وإزالة قوة دمشق حتى لا تكون في يوم من الأيام مصدر خطر يهدد سلامتها، ثم إن تلك الفكرة وافقت هوى في نفس لويس السابع الذي انصرف عن نصرته ريموند دي بواتييه، بل خرج من لدنه وقد جرح جرحاً عميقاً هيئات أن تبرئه الأيام. ثم خرج الجيش الصليبي بأجمعه ونزل وادي العجم عند بلدة منازل العساكر^(١) جنوبي غربي دمشق. وتحول بعد ذلك إلى «داريا» وأحرق بالغوطة من ضواحي دمشق. وأخذ من ثم في مهاجمة دمشق ذاتها^(٢) واستطاع الصليبيون امتلاك المزة لقربها من الماء^(٣)، وكذلك نيرب والربوة، فلا عجب إذا اضطرب أهل دمشق وخافوا أن يتمكن الصليبيون من تحقيق هدفهم، وبذلك تصبح مملكتهم إمارة لاتينية لا سيما أن الإمبراطور كونراد الثالث أبدى من الاستبسال ما يمكن الصليبيين من احتلال الربوة^(٤).

لكن كان هناك معين الدين أنر وهو الحكيم الذي لا يمكن أن يفوته

(١) ابن القلاسي : القليل ، ص ٢٩٨ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 283 ;

Dussaud : Topographie Hist. p. 315.

(٢) وذلك يوم السبت ٦ ربيع الأول ٥٤٣ هـ = ٢ يوليو ١١٤٨ م، وهذا التاريخ

بتحقيق Stevenson : Crusaders in the East, p. 160, note 4 ، وراجع المصادر العربية

التي ذكرها بالهامشية بالإضافة إلى ابن القلاسي وترجمته الإنجليزية ، وكتاب الروضتين لأبي شامة

ص ٥٦ .

(٣) Dussaud : Topogr. Hist. p. 309 — 310.

(٤) في كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن القلاسي ، ص ٢٩٨ ، Gibb : Op. Cit. p.

764 — 764 ; G T. p. 7 — 284 — 283 وكتاب الروضتين لأبي شامة ، ص ٥٦ ، وابن الأثير :

الكامل ، ج ١١ ص ٥٨ — ٥٩ .

تدبير ما يلائم الموقف مهما تخرجت الأمور . وقد أشار على الدماشقة بوجوب الارتقاء في أحضان نور الدين مما عجل بتسكين الجبهة الإسلامية فيما بعد . وأدرك الدماشقة أنهم أضعف من أن يقاوموا الصليبيين ورأوا أنه من الخير لهم أن يكونوا مع بقية المسلمين في الشام يداً واحدة^(١) ؛ ولم يعتمد أنر إلى الاستصراخ بنور الدين إلا بعد أن أيقن استحالة دفع الخطر الصليبي الأوربي عن دمشق . ويذكر شاهد عيان أن الأتابك حصن ما يخشى من الجهات ، ورتب الرجال في المسالك والمنافذ ، وقطع مجارى الميرة إلى منازل الأفرنج ، وطم الآبار وعفى المناهل ، وذلك بعد ثلاثة أسابيع من شروع الصليبيين في حصار دمشق ومهاجمتها .

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات الضخمة فإن الصليبيين استظهروا على الدماشقة الذين ارتاعوا لهول ما شاهدوه ، وضعفت قلوبهم ، وأدى بهم الخوف إلى تفسيرهم كل ظاهرة بأنها تنطوى على مكيدة تدبر لهم . لذلك لم يجد الدماشقة بداً من إنفاذ المكاتب إلى ولاية الأطراف مستصرخين مستنجدين .

وهنا انتقلت الحرب إلى المرحلة الثانية ، وهى المرحلة التى أخذت فيها خيل التركان ورجالة الأطراف والغزاة^(٢) تتتابع ، ففوقت نفوس المسلمين وجرت بينهم وبين الصليبيين مناوشات دلت على عودة الطمأنينة إلى قلوب الدماشقة الذين ساعدتهم الظروف بوقوع الخلف بين قواد الحملة الأوربيين ، ذلك أن فريقاً من الأشراف الصليبيين أخذوا يثبطون همة كونراد ولويس ، ويصعبون أمامهم الموقف الحربى ، ويشيرون عليهما بإخلاء ناحية الغوطة ، وجاز الأمر على العاهلين الأوربيين ، فما هى العلة التى دفعت هذا الفريق

(١) يذكر ابن الفلانى وابن الأثير وأبو شامة أنه لم يتأخر عن القتال السكحول ولا الزهاد ولا الفقهاء ولا الأئمة ، وعد المسلمون كل من يقتل في ذلك اليوم شهيداً يستجاب الدعاء عند قبره .

(٢) راجع تفسير هذا اللفظ عند 3 Gibb : op. cit. p. 28.3 note

من الصليبيين إلى ذلك الموقف الشاذ وإلى محاولة التأثير على ملك فرنسا بما يضر المصالح الصليبية في الشام ؟

هل كان ذلك راجعا إلى خيانتهم للمسئولية التي يحملونها ، أو إلى نجاح أثر في شراء ضمائرهم ووقوفهم إلى جانبه كما يزعم مؤرخو تلك الحملة المسيحيون ^(١) ؟ ، الأغلب أن هؤلاء الأشراف كرهوا أن ينالوا حليفهم أثر بضرر ما ، وهو الذي أمدهم بالمتونة — عن غير ضعف — حين تراجعوا مخذولين عقب فشلهم في حملة حوران ^(٢) .

كذلك يجب أن نبحت عن هذا الدافع في ناحية أخرى ، تلك هي تضارب مطامع زعماء الحملة واختلافهم حول تملك دمشق ، ذلك أنهم أيقنوا من غلبتهم عليها ، فأطلت الأهواء ، وامتدت أيدي المخاطرين الصليبيين لامتلاكها ^(٣) ، فقد حدث أن ذهب تيير الإلزابسي كونت فلاندر إلى ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا وإلى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس سائلا إياهم أن يولوه إمارة دمشق عقب أن يتم لهم فتحها ، فأجابه بعضهم إلى ملتصقه ، وبذلك كان بيع فراء الدب قبل صيده مشيرا للحسد في نفوس بقية الأشراف الذين رأوا أنهم لا يقلون عن كونت فلاندر مكانة ولا إقداما ، أفهل يبعد أن تدفعهم الغيرة للعمل على إغراء العاهلين بالتخلي عن الغوطة حتى لا يتاح لصاحبهم ما يتمناه ؟ ذلك ما لا يستبعد منهم ، ولم تخف هذه المسائل على ابن القلانسي المؤرخ المسلم المعاصر لهذه الحوادث ، فقد ذكر أن الحال استقرت بين الإفرنج على منازلة دمشق ، وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بامتلاكها ، وتبايعوا ضياعها وجهاتها .

G. T. p. 765 et seq. ; Michel le Syrien, Chroniques t. III, p. 276 ; (١)

Lavisse : Hist. de France, t. III, Part 2, p. 18 — 19. لم يذكر إلى اسم أحد من هؤلاء الأشراف الذين أغروا الملكين بالانصراف عن مهاجمة دمشق والذين اتهمهم بالرشوة .

G. T. p. 726. (٢)

Rey : Les Seigneurs de Beirut, p. 14 — 15. (٣)

أما الرواية الإسلامية فترى أن العوامل التي دفعت الصليبيين للرحيل الجفائي عن دمشق هي ما تواتر إلى سمعهم من أن العساكر الإسلامية خفت من شتى النواحي لنجدة دمشق ، ثم ما تراهي إليهم من اجتماع نور الدين وأنز قرب البلد ، ونهوضهما إلى حصن « عريمة » ومحاصرتهما إياه ، وأسرهما برترام بن ألفونس وأمه ، وانضمام جنود غازي أخى نور الدين إلى العسكر الإسلامي^(١) ، وكيف كان الأمر فقد تم رحيل الصليبيين عن الغوطة ، وحينذاك فقط أدركوا الخطأ الجسيم الذي ارتكبوه بتخليهم عن المنطقة التي كانوا فيها . ذلك أن الناحية الجديدة التي ضربوا معسكراتهم بها — وتعرف بباب كيسان — جعلتهم يلاقون المشقة الكبرى في الحصول على الماء والذخيرة .

أما نور الدين فقد التقى بأتابك دمشق عند حمص في أواخر ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ (= سبتمبر ١١٤٨) أى بعد جلاء الصليبيين عن الغوطة بيضعة أشهر ، وفي حمص اتفق الاثنان على الشروط التي يطمنن إليها بال أنز ، وهي أن يحتل فريق من جند حلب قلعة دمشق لدفع الخطر الصليبي ، كما اتفقا على أن يخرج ذلك الجيش النورى عن دمشق حال انكشاف الغمة عنها ، وتأكد بينهما ذلك بالآيمان الغليظة . غير أن الآيمان مهما غلظت لا تكفى فيما يبدو لتخير السياسة التي ورثها نور الدين عن أبيه ، ولم يكن من المعقول أن تبرح كتائب نور الدين قلعة دمشق بعد رحيل الصليبيين^(٢) . لكن كيف جازت تلك الاتفاقية على أنز وهو السياسى الحكيم ؟ .. الواقع أنه لم تفته أطاع نور الدين ، لكنه أراد أن يلوح للصليبيين بالخطر الذى يضطرونه لوضعهم فيه إذا هم احتلوا دمشق ، وذلك بأن يسلمها إلى عدوهم . ثم إن أنز بعث

(١) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٩ ،

Gibb : Damascus Chronicle , p. 286 — 287.

(٢) ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١٦١ .

إلى الصليبيين سر آيبين لهم الخطر النورى عليهم إذا أسلم دمشق إلى نور الدين، كما هددهم بقوة غازى (١).

والخلاصة أنه إذا استعرضنا موقف الصليبيين الحربى وتضعضع قوتهم ونفسياتهم، واستيلاء اليأس على قلوبهم، ونهوض نور الدين وأخيه سيف الدين لنجدة أنز، ومجيء القوات الإسلامية لمعونة دمشق، وذكرنا النزاع الذى دب بين قواد الحملة الصليبية وأشرافها، وتحرك الأطايع فى صدورهم، ونظرة فرنجية الشام إلى الألمان نظرتهم للغريب (٢) أمكننا أن نحكم بفشل الحملة الصليبية الثانية؛ بل إن هذا الفشل تأكد منذ قدومها إلى الشرق حين وقف الإمبراطور ما نويل دى كومنين منها موقفه الملتوى، ثم نشوب النزاع بين ريموند دى بواتيه وبين لويس السابع، وعدم مهاجمة حلب رأسا، مما أتاح الفرصة للقوات النورية أن تتأهب للدفاع، بل وأن تتحول من الدفاع إلى الهجوم استجابة لإغاثة أنز. لذلك كان لا بد لتلك الجماعات الوافدة من الغرب أن تتلصق السبيل لخروجهما سليمة من هذا المأزق الحرج، فاتفق رأى ملك فرنسا وإمبراطور المانيا على الرجوع إلى بلديهما، ورحلوا يوم الأربعاء ٢٨ يونيو سنة ١١٤٨ (٣).

هكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية فشلا أزرى بكرامة الصليبيين فى الشام وأدى إلى تدخل نور الدين الفعلى فى أمور دمشق تدخلا أسعفته عليه ظروف مملكة بيت المقدس، ذلك أن الأم الملكة ميليزاند كانت وقت وصايتها على ابنها بلدوين الثالث — قد ألفت بمقاليد الأمور إلى مناسى (٤)، فلما بلغ بلدوين مبلغ الرجال تطلع لأخذ الأمر فى يديه باعتباره الملك الشرعى، إلا أن أمه كابرتة، وطمعت فى بقاءه تحت وصايتها وأن تتصرف هى فى الأمور

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ٥٩.

(٢) Stevenson: Crusaders in the East, P. 163.

(٣) G. T., P. 768.

(٤) Rey: Les Colonies Fran., P. 544.

كما تشتهى ، فلم يرض ذلك ابنها ، فطالبها بالحكم فأبت ، فألح فكأبرت ، فتحاربوا ، فاعتصمت هي ببית المقدس طمعا في أن تثير عليه ثائرة رجال الدين إذا هو اقتحم البلد ، وكان الأشراف يؤيدون الملك الشاب ، كارهين لتصرفات الملكة الوصية ومناسى الذى اعتصم هو الآخر بحصنه المعروف بمجدل بابا^(١) فضيق الملك عليه الخناق فاستسلم الحصن ، كل ذلك تمهيدا لاستنزائها من معتصمها وحتى لا يهب مناسى لنجدتها إن بادرها بلدوين ، وشرع بلدوين الثالث بعدئذ في مهاجمة أنصارها ، فهاجم فيليب ميل^(٢) ، ووقف إلى جانبها ابنها أمورى صاحب السيرة العظمى في تاريخ مصر ، وعلى الرغم من قلة نصرائها إلا أنها كانت امرأة جبارة الإرادة ، إذ اعتصمت ببرج داود في قلعة بيت المقدس ودافعت عنها دفاعا دلا على قوة شكيبتها ، وأنها جديرة بالملك وبالحكم ، وكان رجال الدين من حزب الملكة الوالدة وعلى رأسهم فوشيه بطريك بيت المقدس الذى حاول عبثا إصلاح ذات البين بين الملك وأمه ، وتمكن بلدوين الثالث في النهاية من إنزالها من برجها ، وأخذ الأمور في يديه^(٣) .

انتهت الفترة التى قامت خلالها الملكة مليزاند وحزبها بالوصاية على عرش المملكة ، وأخذ الملك بلدوين الثالث يعمل على تحقيق سياسة أبيه فولك وهى الإبقاء على الحلف بين مملكة بيت المقدس وبين دمشق ، غير أن المراجع لا تشفى غلا هنا في معرفة المقدمات التى سبقت عودة الحلف الدمشقي الصليبي ، ولم يذكر مؤرخ تلك الحقبة — وهو ابن القلانسي — سوى أن الدماشقة عاهدوا الإفرنج أن يكونوا يدا واحدة^(٤) ، وهو نص يرجح أن الملك بلدوين الثالث سعى إلى ذلك الحلف حتى حصل على وعد بالعودة إلى المصافاة

Rey : Op. Cit., P. 412 — 413. (١)

Rey : Les Seigneurs de Berut, P. 29 ; De Cange-Rey: Les Familles (٢) d'outre-mer, P. 251.

G. T., P. 780 — 781. (٣)

(٤) ابن القلانسي : الدبل ، ص ٣٠٨ .

في أواخر ١١٤٩^(١) ، وإن كنا على غير يقين تام من شخصية المسلم الذي تم على يده عودة التحالف بين دمشق ومملكة بيت المقدس ، أهو أنز أم خليفته مؤيد الدين الرئيس^(٢) ؟ ويرجع الشك في شخصية الأمير المسلم إلى عدم النص على تاريخ الحلف في المراجع التي أشارت إليه ، ولعل أوضح تحديد له هو ما ذكره ابن القلانسي من الإشارة إليه مقرونا بتولى الظافر بالله أمر مصر ، أي في جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ (= أكتوبر ١١٤٩ م) ، على حين أن أنز مات في آخر ربيع الآخر من نفس السنة ، والفترة بين موت أتابك دمشق أنز وبين تولى الظافر أقل من أن يتم فيها مثل ذلك الاتفاق ، وإذن فالأرجح — دون الجزم — أنه تم على يد معين الدين نفسه وبرضاء بحير الدين أبق .

ومهما يكن الأمر فقد علم نور الدين بامر ذلك الاتفاق بعد عقده بقليل ، وأدرك مدى الخطر الذي تواجهه آماله من صيرورة دمشق وبلدوين الثالث إلماً واحداً عليه ، إذ دلت السوابق على الخطر الذي يهدد نور الدين من جراء وقوع المواجهة بين دمشق وبين مملكة بيت المقدس ، كما دل بلدوين الثالث على استطاعته تحويل دفة سياسة المملكة الصليبية في وقت قصير إلى غير ما صارت إليه زمن أمه الملكة ، على أنه يبدو أن نور الدين فكر في احتمال مخالفة الدماشقة لسياسة الرئيس ، كما يبدو أيضاً أنه اعتقد أن المصافاة الجديدة بين دمشق وبين بيت المقدس لم تلاق كثيراً من التشجيع بين كبار رجال المملكة الصليبية ذاتها ، وهذا ما يفسر لنا اعتنام نور الدين الفرصة عند قيام

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٤٠ .

(٢) جرت عادة أنز على الإمعان في الأكل مما أدى إلى إصابته « بالجو سنطريا » Dysentery . ومالبت أن مات يوم ٢٣ ربيع الآخر ٥٤٤ هـ (= ٢٨ أغسطس ١١٤٩) ، وحينئذ ذلك اجتمع أرباب الأمور بدمشق كحسام الدين بلقي ، ومؤيد الدين الرئيس ، ومجاهد الدين بزان ، وأعيان الأجناد بمنزل الأتابك الراحل وانفقوا على أخذ الأمور بأيديهم ، ثم مالبت الاختيار أن وقع على مؤيد الدين بن الصوفي ، راجع ابن القلانسي ، القليل ، ص ٣٠٦ .

جماعة قليلة من الصليبيين التابعين لبلدوين الثالث بالبعث في الأعمال الحورانية، وكتابته إلى زعماء دمشق يطلب منهم أن ينجدوه بألف فارس مع أحد المقدمين (١).

لم يكن ذلك البعث من جانب الصليبيين يتطلب في الواقع مدداً ضخماً، ولكن نور الدين أراد بطلب النجدة أن يعرف موقف مدبري أمور دمشق ونزعة أهلها، ويلاحظ هنا أن حوران من أعمال دمشق، وليست تهم حلب اهتماماً يدعو نور الدين للنهوض إليها دون دعوة من الأمير أبق صاحب دمشق، وربما كان غرض نور الدين من حركته كلها أن يثبت أنه الشخصية الوحيدة التي تهتم بالمصالح الإسلامية وأنه مسئول عن دمشق وغيرها من البلاد مادام زعماءها يفرطون في مصالحها، وأنه وصى بالفعل على دمشق مادام أبق قاصراً. ولقد أدرك البعض مرمى نور الدين فردوا كتابته أسوأ رد (٢). لذلك نهض نور الدين في مارس ١١٥٠ م بمن معه من الرجال لا لدفع جماعة الصليبيين عن حوران، ولكن لنزال المسئولين في دمشق الذين ردوا عليه رداً جافياً. وأرسل هؤلاء إلى بلدوين الثالث يطلبون إليه القدوم لنجدة دمشق مما عساه يجد من الأخطار (٣). وهنا أعلن نور الدين أن في عزمه الاستيلاء على دمشق، وكأنما اعتبر رجالها من زمرة الصليبيين حين قال « لا أنحرف عن جهادهم »، غير أنه أمر جنسده وأصحابه بأن يسيروا سيرة حميدة في زحفهم في الأعمال الدمشقية حتى تواصل الدعاء « له من أهل

(١) ابن الفلانسى : شرحه ، ص ٣٠٨ ؛ وأبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٤٦٩ ، Gibb : Damascus Chronicle of the Crusades , p. 296 — 297.

(٢) لم ينس ابن الفلانسى : ص ٣٠٨ ، ص ١٩ — وهو المرجع الوحيد بين المراجع العربية والصليبية الذى انفرد بالإسهاب في تلك الناحية — على أسماء من عارضوا نور الدين ، ولكن يفهم من سياق قراءة الكتاب قراءة دقيقة ، ومراجعة الحوادث التاريخية أن تلك المعارضة كانت من جانب مؤيد الدين الذى خلف « أنر » .

(٣) كانت بلدوين الثالث قد نهض إذ ذاك لمعارة غزة ، Stevenson : Crusaders in the East , p. 167, note 1.

دمشق وأعمالها وسائر البلاد ، مما لا يدعو إلى الشك في أنه عمل وقتذاك على التفرقة بين أهل دمشق وزعمائها . والظاهر أن الدعاية النورية كانت قوية فعلا حتى لقد نسب الناس إلى بركتة وعدله وحسن سيرته توالى الغيث غب انقطاعه في حوران والغرطة والمرج ^(١) .

وفي سادس عشر ذي الحجة سنة ٥٤٢ هـ (أبريل ١١٥٠ م) اقترب نور الدين من دمشق ، فنزل نهر الأعوج إلى الجنوب الشرقي منها ، واستقر أخيرا عند جسر الخشب ^(٢) الواقع جنوب داريا ، وكتب من هناك إلى أبق وإلى الرئيس ابن الصوفي الذي حل محل أنر في الأتابكية يعيرهما بتقاعدهما عن نصرة المسلمين واطمئنانهم إلى الصليبيين ، كما يبين لهما قوته الشخصية وكثرة ما عنده من المال والرجال والعدة ، ويأمرهما أن ينفذا إليه حالا ألف فارس لإنقاذ عسقلان المصرية ^(٣) .

غير أن الرد الذي كتبه أبق على ذلك الخطاب لم يدل على شيء سوى قصر نظره إذ قال فيه مخاطبا نور الدين « ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الإفريج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت علينا » ؛ ولا شك أن اعتزازه بالصليبيين أساء كثيرا إلى سمعته ، وهو أكبر ما يسعى

(١) ابن القلانسي : شرحه ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) Du-saud : Topographie de la Syrie, p. 315, note 3

(٣) أما نص هذا الخطاب الذي بعثه نور الدين إلى أرباب دمشق فهو « إني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايه المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم ، وشقت نساؤهم وأطفالهم بين الإفريج ، وعدم الناصر لهم لا يعنى مع ما أعطاني الله — وله الحمد — من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولا يحل لي القعود عنهم والانتصار لهم ، مع معرفتي ببعزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفريج على محاربتكم وبذلك لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلموا لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا من المسلمين ، ولا بد من المعونة بألف فارس تراخ (بهم) العالة ، (و) تجرد مع من توثق بشجاعته من القدمين لتخليص نفر عسقلان وغيره » فكان الجواب عن هذه الرسالة ما هو وارد بالمتن . راجع ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، وكتاب الروضتين ص ٦٦ ، Gibb : op. cit. p. 298 — 299 .

إليه نور الدين من تشويه الفكرة العامة عنه . ومع هذا فقد انصرف نور الدين عن الحرب ، وتقرر الصلح بينه وبين دمشق في مايو ١١٥٠ م^(١) وربما كان أبق هو الذى سعى إلى ذلك الصلح حتى نجح فيه بدليل موافقته على إقامة الخطبة لنور الدين من منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان وكتابة اسمه على السكة^(٢) ، يضاف إلى ذلك أن نور الدين ربما رمى من وراء موادعته دمشق وأربابها إلى محاولته إظهار عطفه على أهلها اكتسابا لمحبتهم ولتأييدهم إياه ضد مدبرى أمورهم ، هذا فضلا عن أنه كان يسعى وقتذاك لتحطيم جوسلين الثانى الذى فكر فى استرداد الرها . والواقع أن نور الدين لم يكذب انتهى من عقد الصلح مع أبق حتى خف شمالا لدفع جوسلين عن الرها وسرعان ما التقى به وأسر^(٣)ه وبقى فى الأسر تسع سنوات^(٤) . ثم لم يكذب نور الدين يفرغ من أمر جوسلين حتى انقلب إلى الاستعداد لمهاجمة دمشق ، وتتفق الروايات على نهوضه لقتال دمشق فى مستهل سنة ٥٤٦ هـ (مايو ١١٥١) ونزوله على أرض عذراء ، حتى إذا أعد عدته للقتال أرسل فريقا من رجاله ليربصوا عند جبل قصيون للجند الدمشقية المعسكرة على مقربة من ذلك المكان ، غير أن ذلك الجند لم يكن مستعدا للنضال فهرب إلى داخل المدينة ، ولم يتمكن منهم نور الدين .

لذلك تقدمت الجيوش النورية حتى نزلت على عيون فاسريا ما بين دومة وعذراء^(٥) فأصبحت تهدد دمشق تهديدا واضحا ، واعتمد تلك الفرصة جماعة من

(١) Gibb : Damascus Chronicle, p. 299.

(٢) ابن الفلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ ، تحت سنة ٥٤٥ هـ .

(٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦٩ — ٧٠ وابن العديم ، ص ٥٢٤ .

(٤) ابن العديم : شرحه ص ٥٢٤ ، J R A S. , 1932 p. 301

(٥) ابن الفلانسى : شرحه ص ١٢ ، Gibb : Damascus Chronicle, p. 302-303

Dussaud : Topographie de la Syrie, pp. 304, 308, 310 وقد ألم الكاتب الفرنسى بالآحواش المختلفة التى تقع فى تلك الناحية ، أمثال حوش دير العاصير ، وحوش القارة الواقع جنوب عذراء ، وحوش عمار ، وحوش الكوكب .

الأوباش فأخذوا يعيشون في الضواحي الدمشقية فسادا، ومن المحتمل أن ذلك العيث كان بتدبير نور الدين نفسه ليدفع الدماشق إلى الثورة على ولادة أمورهم، ويجعل منهم بذلك عاملا فعالا في تيسير الفتح له . ومما يرجح ذلك أن نور الدين أظهر العطف الشديد على أهل دمشق وهو على أبواب مدينتهم ، إذ أنفذ كتابا إلى « أبق » يقول له فيه « أنا ما أوثر إلا صلاح المسلمين وجهاد المشركين ، وخلص من في أيديهم من الأسارى ، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على الجهاد وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الإيثار والمراد ^(١) » ، غير أن أبق لم يرد هذه المرة — فيما يبدو بشيء على كتاب نور الدين ، والمتأمل لكتاب نور الدين يدرك إصراره على وجوب نهوض أبق لمحاربة بلديين لعل عقد التحالف الدمشقي الصليبي ينفرط من جراء هذا النهوض ، والظاهر أن أبق أخذ يقارن بين مطامع نور الدين الرامية إلى القضاء على استقلال دمشق وضماها إلى ملكه وبين قصد بلديين في التحالف مع دمشق لدفع العدو المشترك ، وكان يدرك إلى جانب هذا أن هدف بلديين الأكبر هو الاستيلاء على الجنوب حيث مصر وما تبقى في يدها من بلدان الساحل الشامي ، والظاهر أيضا أن إحجام أبق عن الرد على كتاب نور الدين يرجع إلى رغبة أبق في ألا يتخذ خصمه وسيلة لإضعاف مكانته في نفوس مسلمي البلد كما فعل إزاء خطابه السابق له .

لم يلبث نور الدين أن رحل إلى مشهد القدم القريب من دمشق ، أي أنه أصبح أدنى ما يكون إلى البلد . ثم جرت المناوشات الأولى بينه وبين عسكر دمشق يوم ١٢ مايو سنة ١١٥١ م ^(٢) ، على أنه لم يحاول دخول المدينة عنوة حتى لا يدع مجالا لمدع ما بأنه اغتصبها من أهلها قسرا ، بل وقف دون قتال إشفاقا من قتل النفوس وإثخان الجراح ، وفضل الحصار ؛ وسرعان

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٣ ، والفارقي في نفس المرجع والصفا ، حاشية رقم ١ .

(٢) تحديد هذا التاريخ وارد في Gibb : Op. Cit. p. 302 وانظر الروضتين ، ص ٦٩ .

ما ارتفعت الأسعار وعظم الخطب في أرجاء دمشق ، لا سيما حين علم أهلها بنهوض مملكة بيت المقدس لنجدتهم ، لأن تلك النجدة تقتضى من الدماشقة تموين الصليبيين . فعمد نور الدين حينذاك للرحيل إلى داريا ليقطع السيل على نجدة العدو من الدنو من دمشق ، وعلم أنهم قاصدون نهر الأعوج فسبقهم إليه واستولى على بلدة « الزبداني » وأقام مضاربه في مشارفها^(١) . على أن النجدة الصليبية استطاعت الوصول إلى دمشق بقيادة بلدوين الثالث ، فخرج أبق وأتابكه وابن الصوفي لمقابلة ملك بيت المقدس والترحيب به وبياروناته ، وم كانت خيمة الدمشقيين — أو على الأصح خيمة مدبرى أمورهم — حين أبصروا تلك النجدة الصليبية في قلة من الرجال والعدد ، إذا هي قيست إلى نور الدين وجماعته .

ثم اتفق أبق وبلدوين الثالث على الخروج بمن معهما إلى ناحية حوران أو بالتحديد بصرى ، لعلهما يصرفان نور الدين عن دمشق^(٢) . وكان نور الدين قد فصل فئة من جنده للإقامة ببصرى إلى جانب سرجال عاملها من قبله ، حتى إذا قدم الصليبيون من تلك الناحية لنجدة دمشق كانت مهمة تلك الفئة قطع الطريق عليهم ، وقد أعلن نور الدين لأهل بصرى أنه مرسل إليهم بتلك الفئة من جنده لحمايتهم مما عسى أن ينزل بهم على يد الصليبيين ، وغرضه من ذلك ضم العرب إلى جانبه ليقارنوا بين صنيعه الجميل معهم وبين إهمال أبق إياهم . غير أنه يلاحظ أن الصليبيين تقدموا وحدهم صوب بصرى فوصلوا إلى رأس الماء^(٣) ، والتقوا هناك بجماعة من جند نور الدين فلم يقووا عليهم . ثم تحول الصليبيون بعدئذ إلى بصرى نفسها ، فبرز لهم سرجال برجاله ، وظهر عليهم وردهم عن مقصدهم . وهنا أحس الصليبيون

(١) ابن القلانسي : شرحه ص ٣١٣ — ٣١٤ ، Cibb : Op. Cit. P. 304 — 306

(٢) ابن القلانسي : الذيل ، ص ٣١٤ ، Dussaud : Topographie, P. 315 ,

(٣) Dussaud : op. cit. loc. cit. note 3 حيث يشير إلى المراجع العربية المختلفة التي

اعتمد عليها في تقرير موقع هذا المكان .

أن خيبتهم ترجع لنكوص « أبق » عن الخروج معهم إلى بصرى ، فأرسلوا إليه يلبسون باقى المقاطعة المندولة لهم ثمنا للمساعدة على ترحيل نور الدين عن دمشق (١) وقالوا له « لولا نحن ندفعه مارحل عنكم » ، وقد غضب أبق من هذا الكتاب ، وعاد الصليبيون إلى بيت المقدس دون أن يحققوا شيئا ما لأنفسهم أو لأصحابهم أبق (٢) .

لم يكذ الصليبيون برحلون عن بصرى حتى انقلب نور الدين عن فكرة الحصار إلى الهجوم مباشرة على دمشق ، واستقر رأيه هذه المرة على امتلاكها لعلمه بشدة ميل الأجناد والرعية إليه وإشارتهم إلى ولايته وعدله . فنزلت الجيوش النورية البقاع أولا يوم ٥ يولييه ١١٥١ ، ثم زحفت منها إلى أرض « كوكبا » فنزلتها يوم ٧ يولييه ١١٥١ ، وأخذت فى الاستيلاء على كل ما يمكن أن يتخذ ذخيرة يتمون بها أثناء الحصار ، وحصل نور الدين فى أثناء ذلك على الشيء الكثير من الأغنام والجمال والغلة والقمح والدواب ، فلما تم له ذلك رحل إلى جسر الخشب من أرض داريا (٣) ثم تحول عنها إلى أرض القطيعة جنوبي دمشق (٤) . وبنزول نور الدين هناك أصبح فى الواقع داخل حدود دمشق ، كل هذا وجندها ساكن لم يتحرك ، ولعلمهم رأوا ألا قبل لهم بدفع الجند النورى ، ولعل هذا الاعتقاد هو الذى حمل أبق على

(١) انظر ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٩ ، يذكر هذه « القطيعة » والإشارة إليها والمفهوم من كلامه أنها شبه جزيرة سنوية فرضها الفرنجة على الدماشقة ، وبذهب المؤرخ عنه إلى أبعد من هذا فيزعم أن تلك « القطيعة » أخافت نور الدين من امتلاك الصليبيين لدمشق « فلا يبقى حيثئذ للمسلمين بالشام مقام » مما دفعه للهوى للدفاع عنها .

(٢) ابن القلانسي : الدبل س ٣١٤ — ٣١٥ ، أبو شامة كتاب الروضتين ، ص ٤٧٢ ، Gibb : Damascus Chronicle p. 307

(٣) ويذكر Dussaud , op. cit. p. 315, 317 أن موقع هذا الجسر شديد القرب من

دمشق وإلى الجنوب منها ، انظر Gibb : Damascus Chronicle p. 308

(٤) هى أرض الميدان الحالية المعروفة لمن زار دمشق ، راجع Dussaud : op. cit. p. 317, note 1, d'après Sauvaire : Description de Damas II p. 233, أيضا

ابن القلانسي ، الدبل ، س ٣١٥ ، Gibb : op. cit p. 308

طلب الصلح من نور الدين ، وقد تم الصلح فعلا بين الفريقين يوم ٢٦ يوليو ١١٥٢ م^(١) على يدي برهان الدين علي البلخي الفقيه الدمشقي نيابة عن أبق ، والامير أسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب نائبان عن نور الدين . ومع أن ابن القلانسي كان معاصرا وشاهد عيان لحوادث هذه الفترة بالذات يوما بيوم إلا أنه لم يذكر لنا شروط الصلح بين الطرفين ، ومن ثم خلت بقية المراجع التي أخذت عنه كابن الأثير ، وأبي المحاسن ، وأبي شامة . وهكذا تم لنور الدين بسط سيطرته على دمشق ، وفتحها فتحا هينا فلم ينتقم ولم يبع المدينة لسكره ، بل كل ما جد أن صار « أبق » تابعا لها .

ولقد أدى هذا الموقف إلى تحفز الصليبيين للاستيلاء على عسقلان الذي أدى هو الآخر بدوره إلى قيام نور الدين بإنهاء مسألة دمشق^(٢) وذلك بضمها إليه ضمنا نهائيا ، ولتحقيق ذلك الهدف عمد إلى سياسة ظاهرها المودة والإخاء ، وباطنها القضاء على أبق واستخلاص الولاية منه . فسلك سبيل التقرب إلى أبق ، وأوهمه برغبته في تناسي الماضي وإن كان في الوقت ذاته لا يدع فرصة تمر دون أن يؤلب القلوب ضد مجير الدين الذي تناهى في الظلم والذي طأطا للصليبيين ، حتى كانت رسالهم تجوب أرجاء دمشق لجمع الجزية التي فرضها عليها ، ومعنى ذلك أنها تابعة تبعية إقطاعية لصليبي بيت المقدس^(٣) وكان قصر نظر أتاك دمشق بما لم يخف بطبيعة الحال على نور الدين الذي أكثر من وصله بالهدايا والخلع الجملة بين آن وآخر ، وشرع في مكاتبتة برسائل تفيض رقة استماله بها إليه . حتى إذا ضمن جانبه واطمئنانه إليه عمد إلى إثارته ضد كل من يتوسم فيهم معارضة مشروع ضم دمشق إلى المملكة النورية ، ونجحت خطة نور الدين نجاحا عظيما ، يدل عليه قيام « أبق » بالقبض على كثير من كبار رجالات دمشق ، ممن حبسهم وأبعدهم عن إدارة

(١) ابن القلانسي : القليل ، ص ٣١٥ — ٣١٦ ، Gibb : op. cit. p. 309 — 310

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) أنابكة الموصل ، لابن الأثير ، ص ١٨٩ .

الحكم أو قتلهم واستصغى لنفسه أموالهم^(١) ، ولم يجد نور الدين — المتدين —
التقى — أية غضاظة فيما أدى إليه عمله من الإيقاع بالآبرياء . وللسياسة
أحكامها .

وكان من أولئك الوزراء عطاء بن حفاظ السلمي ، الذي كان أشد الناس
حماسة لبقاء دمشق مستقلة ، وأدراهم بحقيقة نوايا نور الدين . وقد نجح
نور الدين في إيقاع صدر أبق على وزيره هذا ، حتى تجهم له وأمر بقتله ، فلما
أخذوه للنطع قال لأبق : لا تقتلني ، فإن الحيلة قد تمت عليك وذهب
ملكك ، وسترى^(٢) .

ثم عهد نور الدين بعد ذلك إلى منع الموثنة عن دمشق من ناحية الشمال
فأوقع في أيدي أربابها ، وجاع الشعب ، وتعالى صيحاته ضد أبق^(٣) ،
وتأزمت الأمور إلى درجة اتخذها نور الدين ذريعة للتدخل الفعلي في دمشق ،
لذا خرج نور الدين من حلب بجيشه وحاصر دمشق يوم ١٨ أبريل ١١٥٤
وعسكر عند عيون فاسريا ، ثم تقدم إلى بيت الأديار من نواحي الغوطة .
وحينذاك فقط تبين لأبق حقيقة الموقف ، وتجلي له أنه كان مخدوعا ، وأدرك
عظم خطئه في قتله كبار الدماشقة ، كما تبين صدق ما قاله له السلمي وهو
ماض ليقتل .

لم يجد أبق أمامه وسيلة للخلاص مما هو فيه سوى مكانة بلدوين الثالث
ملك بيت المقدس للنهوض لمعاونته مرة أخرى ، وتعهد بالتخلي له عن بعلبك

(١) من هؤلاء الوزراء حيدر الذي يزعم ابن الفلاني أنه ظهرت منه أشياء « مع
ما في نفس مجير الدين منه ومن أخيه المسيب » فضربت عنقه صبرا . راجع أنابكة الموصل ،
ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) سبط بن الجوزي في ابن الفلاني : الذيل ، ص ٣٢٦ ، حاشية رقم ١ وانظر أيضا
أنابكة لابن الأثير ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٣) أنابكة : ص ١٩١ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٨٨ — ٨٩ .

وبعض مناطق البقاع الوفيرة الإنتاج^(١) إذا هو أرسل النجدة الكافية لدفع نور الدين ، ولم يكن بلدوين الثالث بحاجة لم. يذكره بالخطر إن تمكن نور الدين من دمشق نهائيا ، لأن ذلك يسهل عليه توجيه قواته الحربية كلها ضد مملكة بيت المقدس أو يؤدي به إلى التفكير في الاستيلاء على مصر ، فيصبح الصليبيون محصورين بين قوات معادية من الشمال والجنوب والشرق ، لذلك كله لم يكن عجبا أن يسرع بلدوين الثالث لنجدة دمشق ، حتى ولو لم يكن هناك ما وعد به أبق من الأراضي الشامية .

ويبدو أن نور الدين توقع ما حدث فعلا بين أبق وبين بلدوين من المكاتبة وخاف أن يسرع الصليبيون إلى نجدة دمشق ، فبادر إلى العمل الجدي ، وقام يوم ٢٥ أبريل ١١٥٤ ، وهاجم الجيش الدمشقي حتى دفعه إلى أبواب كيسان وبذا صارت الجيوش النورية أمام الأسوار ، ثم تمكنت فئة من تسلق السور فتلقاها من بالداخل ممن اشتراهم نور الدين بالمال والعطايا ، ففتحوا الباب الشرقي وباب توما ، ودخلت قوات نور الدين البلد دون أن تراق نقطة من الدماء ، وتعاملت الصيحات بالتكبير والتهليل .

وقد خاف أبق أن ينتهي الأمر بقتله ، فاعتصم بالقلعة ، ثم راسل نور الدين في تسليم البلد ، على أن يقطع مدينة حمص ، فأجابه نور الدين إلى ما طلب ، إلا أن أبق لم يلبث أن فر إلى بغداد ، وبقى بها حتى مات سنة ٥٦٤هـ^(٢) وهكذا قضى على أسرة بوري التي ملكت دمشق منذ أمد بعيد ، وآلت دمشق بجندها وإدارتها وحكومتها وإقطاعاتها إلى نور الدين ، فكان ذلك «فتح الفتوح» وصارت المملكة النورية قطعة متصلة من الشمال إلى الجنوب :

(١) الأنايسكة : ص ١٩١ ، والكامل ، ج ١١ ص ٨٩ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٣٨١ ، ابن الفلانسى : الذيل ، ص ٣٢٧ — ٣٢٩ ، Gibb : Damascus Ghronicle , p. 319 — 320 ، وابن الأثير ، الأنايسكة ، ص ١٩١ — ١٩٢ . الكامل ج ١١ ص ٨٩ ، ابن العباد : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٠٢ .

ويعتبر سقوط دمشق خاتمة للحركة التي بدأت منذ زمن بعيد وهي توحيد القوات الإسلامية جميعها تحت لواء واحد ، لتقف صفا واحدا أمام قوات الصليبيين ، وفي ذلك من الخطر على الصليبيين ما سوف تشرحه الحوادث شرحا وافيا . على أن عجز الصليبيين عن رد نور الدين عن دمشق يشير من ناحية أخرى إلى التدهور الذي دب في أوصال الأداة الحربية الصليبية ببلاد الشام ، وهو دليل واضح على أن نور الدين نجح نجاحا تاما في تكوين الجبهة الإسلامية المتحدة ، مما كان أبوه زنكي يسعى إليه سعيا غير مقطوع .

الفصل الثالث

نور الدين وبقايا الصليبيين بالشام

جوسلين عدو نور الدين . تأمره مع الأرمن . هزيمته . أسره . ياتريكس أميرة
لرها . اتفاق نور الدين ومسمود ضدها . ياتريكس وبيزنطة . نور الدين وبيزنطة .
ريموند دي بواتيه عدو نور الدين . وقعة بغرى . مقتل ريموند . محاصرة نور الدين
لأنطاكية ورجيله عنها . خطر التوسع النورى على الصليبيين . كونستانس ومشكلة
زواجها . اتفاقية المصبصة . الصلح الفجائي بين مانويل ونور الدين . رينو دي
شاتيون فى أسر نور الدين . تأهب نور الدين لغزو أنطاكية فى غيبة أمورى
بمصر . نور الدين بأسر بوهيند الثالث . وقوفه عن متابعة الغزو .
رجوع أمورى ومفاوضته نور الدين . زيارة بوهيند لبيزنطة .
سياسة نور الدين لإزاء أنطاكية . توقع الحلف بين الصليبيين
والبيزنطيين . الصراع حول باناس . أسر بلدوين الثالث
مرض نور الدين . بلدوين يهاجم شيرز . نور الدين
يسترد شيرز . المواجهة بين نور الدين وبلدوين الثالث .

أصبح نور الدين بعد استيلائه على دمشق ، وقد خلى له الجولينصرف
إلى تحقيق الشطر الثانى من الإرث الزنكى وهو جهاد الصليبيين ، ووضعت له
خطة ذلك الجهاد بعد أن قامت مملكة بيت المقدس وملكها بلدوين الثالث
بما قامت به من دور واضح لمنع استيلاء نور الدين على دمشق . وإذن فقد
اتجه كل تفكيره الجديد نحو بيت المقدس وما قد تقوم به من دور لحماية نفسها
وحماية الإمارات الصليبية الأخرى منه ، متخذة فى سبيل ذلك شتى
المحاولات والسبل .

على أن أعدى أعداء نور الدين وأشدّهم تطلعا للوثوب عليه من بين
الصليبيين هو جوسلين الثانى أمير الرها ، التى أصبحت مقصورة على قلّ باشر
وسميساط ودلوك وراوندان ، وبقيت فى نفسه إحسن لا يهدأ أوارها على

البيت الأتابكي منذ أسر زنكي أباه جوسلين الأول ، بعد أن سلب منه مدينة الرها سنة ١١٤٤ . فلما قُتل زنكي طمع جوسلين وجماعته بمن بقي على الولاء له من أهل الرها في استرداد تلك المدينة الهامة والقضاء على البيت الأتابكي ^(١) ، وشجعهم على ذلك انقسام المملكة الزنكية قسمين ، اعتقاداً منهم أن القسمة كفيلة بأن تجعل الضعف يدب في حلب والموصل في آن واحد ؛ وعلى الرغم من اتحاد الأخوين غازي ونور الدين فإن جوسلين لم يأل جهداً في القيام بشيء ما ضد نور الدين ^(٢) ، وذلك بتحريك الأرمن من سكان الرها .

ولم يكن بقلعة الرها سوى حامية زنكية قليلة فأطمعت تلك القلة أولئك الأرمن المتطلعين لطرد المسلمين عن الرها ، وكان الأرمن بعكس السريان شديدي الميل للصليبيين ، لا سيما أن ابن جوسلين — كما تسميه المصادر العربية — من أم أرمنية هي أخت ليون الأول ملك الأرمن ^(٣) (١١٢٣ — ١١٤٤) ، أضف إلى هذا ما لقيه الأرمن من عطف الصليبيين عليهم وتقريبهم إليهم ، بقدر ما عاناه السريان منهم . لهذا كله دبر الأرمن فيما بينهم مؤامرة للتخلص من الحكم الإسلامي ، وطمعوا أن تمكنهم الأحوال إذ ذاك من التغلب على نور الدين الذي لما يعجموا عوده . وعرف جوسلين الثاني تلك النزعة فيهم ، فلم يكذب يبلغه خير مقل زنكي حتى كتب إليهم يستحثهم على التمرد والعصيان والامتناع على المسلمين وتسليم البلد إليه ، وواعدهم على يوم يصل إليهم فيه ^(٤) ، فلما كانت ليلة ٢٧ أكتوبر ١١٤٦ ^(٥) ، اغتتم فرصة

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٥٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ص ٤٨ ، Migne : Dict. des Croisades. arte "Edesse."

(٣) Tritton : (J.R.A.S.) أما المؤرخ المجهول في Migne : Op. Cit. arte "Armenie."

Jorga : Brève Histoire des Croisades, p. 275 ، أنظر أيضاً ، Greg. le Prête, t. I, P. 158 ; Oraison, P. 205 — 220. Croisades, P. 87 ; Michel, t. III, P. 269 ;

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥ .

(٥) Grousset : Hist. des Croisades, t. II, P. 199 — 200.

الظلام، ووقف بجنده أمام مدينة الرها، ثم رمى الجبال على الأسوار وتسلقها، وتلقاه الأرمن من الداخل حسب الاتفاق المبرم بينهما. فلما شاهد جوسلين نفسه داخل البلد ازدهاه النصر، ولم يفكر في الاستيلاء على قلعة الرها من حاميتها الضئيلة من المسلمين، حتى إن أحد المؤرخين المسيحيين ليرميه «بالحق» لانصرافه هو ورجاله عن قلعة الرها إلى نهب البيوت والأسواق.

والواقع أن انصراف جوسلين عن القلعة جعله هو ورجاله أسرى داخل أسوار المدينة، وإذن فقد أصبح أمام جوسلين — للخلاص من الأسر الذي اختاره لنفسه — أن ينتظر مقدم الجماعات الصليبية لنجدته من الخارج، أعنى من أنطاكية (ريموند دي پواتيه)، ومن طرابلس (ريموند الثاني) ومن بيت المقدس (مليزاند).

وقد ترامت أخبار اقتحام جوسلين للرها إلى نور الدين، فاعتبر تلك الفعلة الجريمة اختباراً جدياً لقوته وتحدياته، وأدرك إلى جانب هذا أن مبادرته إلى ضرب جوسلين قبل التمام القوات الصليبية خير من مواجهته إياها مجتمعة. لذا خرج نور الدين من حلب في جمادى الآخرة سنة ٥٤١ هـ في حشد كثيف من الفرسان عددهم عشرة آلاف، غير المشاة وغير الطلائع التي أنفذها أمامه بقيادة سيف الدولة سوار ليضرب جوسلين ضربة فاصلة. ولم يقو جوسلين على ملاقاته هذه الجموع خارج الرها أو داخلها، فلم يلبث أن انهزم أمامها إلى أحد الأبراج في عشرين من فرسانه^(١). ثم إنه أخذ ينفذ الرسل إلى أمراء الولايات الصليبية يدعوهم لنجدته والإسراع إليه قبل أن يتمكن منه نور الدين وتندم الحيلة، وتضيع هبة الصليبيين أمام الأرمن وغير الأرمن بمن وثقوا به فوقفوا إلى جانبه. على أنه لم تصله أية نجدة، بل تمكنت القوات النورية من البلدة تمسكنا تاماً بحمل جوسلين على طلب النجاة في الفرار، وحذا حذوه الأرمن الذين أدركوا ما ينتظرهم إذا ما

(٢) ابن القلاسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٨٨.

بقوا بالرها ، فخرجوا من البلد ، وقد انتصف الليل ، بعد أن أضرموا النيران في كثير من البيوت^(١) . وقد استطاع جوسلين الثاني النجاة إلى سميساط . غير أن كثيرا من الأرمن لم يستطيعوا إلا أن يقعوا في أيدي الجنود النورية التي حالت بينهم وبين المدينة عقابا لما برهن عليه الأرمن من نكران الجميل ، وأتاحت للمسلمين فرصة تأمين المواصلات بين حلب وبلاد الشرق الإسلامي^(٢) ؛ غير أن ذلك الفشل الذريع لم يفت في عضد جوسلين الثاني ، إذ كان في عزمه أن يحازف بكل شيء فيما فوز تعقبه حياة طيبة ، أو هزيمة تتلوها ميتة بميدان القتال ، وانتهت تلك المجازفة بأسره^(٣) يوم ٤ مايو ١١٥٠ ، واقتيد إلى حلب حيث بقي بها حبيسا تسع سنوات^(٤) .

عندئذ وكل أمر الدفاع عما تبقى من إمارة الرها إلى زوجته الأميرة بياتريكس ، وكان لها منه ابنتان وولد^(٥) ، فحاولت باسمه أن تحل محل زوجها حتى يبلغ ابنها مبلغ الرجال . غير أن توليها الحكم أطمع فيها كل من حولها ، إذ أسرع نور الدين فاستولى على عزاز في يوليو ١١٥٠ م ، ولم تلبث حارم^(٦) أن سقطت في يده ، وكان غرضه من تلك السرعة أن يبني من الحاميات خطا طويلا ليحول بين الصليبيين وبين النهوض لنجدة بياتريكس ، إذا هو عقد النية على إزالة البقية الباقية من إمارة الرها . ولم يخف ذلك على بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، فجمع ما استطاع من قوة حربية ، وسار لنجدة الأميرة من الخطر النوري الذي يوشك أن يفقد الصليبيين كل البلاد التابعة لهم شمال حلب . غير أن بلدوين الثالث أدرك أن ما لدى

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١ ، Michel Le Syrien: Chroniques, t., III, p. 270; JRAS, 1933, p. 293, G. T., p. 729.

(٢) Stevenson: Crusaders in the East, p. 153.

(٣) ابن الفلاس ، ص ٢١٠ ، الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ٩٦ .

(٤) J.R.A.S., 1932, p. 301.

(٥) Rev: Les Familles d'outre — mer, p. 300.

(٦) فيها يتعلق بحارم وتاريخها في هذه الفترة ، راجع ابن خلدون: العبر ، ج ٥ ، ص ٢٢٥

الصليبيين من قوة بالشام لا يكفي لمواجهة نور الدين ، ولذا عمد إلى الاستعانة بالدولة البيزنطية ، التي لاشك أنها قد رحبت بهذا الطلب ، ولم ترد اليد التي سألها النجدة ، لا لأنها يهمها مصالح الصليبيين أو المسيحية في بلاد الشام ، بل لكي تقوى حدودها وتخومها عساها تتمكن من القضاء على الصليبيين والمسلمين معا في هذه المنطقة يوما ما . لذلك رأى الإمبراطور أن يسارع لنجدة ياتريكس التي هربت إلى تل باشر ، وتقدم إليها مقترحا أن يشتري منها إمارة الرها بالمال ، على أن يجرى عليها وعلى أولادها طيلة حياتهم معاشا سنويا يكفل لهم العيش الرغد وإن فقدوا السلطنة والسيطرة ، وأخذ مانويل على نفسه عهدا بمحاربة نور الدين ومسعود صاحب قونية وغيرهما من أمراء المسلمين^(١) ، وكان ذلك عرضا جليلا يشكر عليه لو أنه تجرد عن المطامع الذاتية .

مضى مانويل كومنين يغرى ياتريكس بعيشة الرفاهية وحياة الطمأنينة إذا هي لبث شروطه لتتصرف إلى الاهتمام بشئون أبنائها ، وأخذ يستميلها بمختلف الهدايا التي بعث بها إليهم كبار رجاله ، فرضيت ببيع إمارتها له^(٢) ، أفهل كان يدور بخلد بلدوين أن يؤول الأمر إلى بيع تلك الإمارة الصليبية إلى إمبراطور الدولة البيزنطية الذي أفسد الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، كما فعل سلف له من قبل إزاء الحملة الأولى ، وعمل جهده على تفريق شمل رجالها بالخيانة والخديعة ومصافاة المسلمين ؟ على أن الأمر الذي يدعو إلى الالتفات هنا هو أن عروض مانويل أدت إلى انقسام الصليبيين بالشام فيما بينهم ، فرأى بعضهم وجوب رفض طلب مانويل ، وهؤلاء كانوا مدفوعين بالعاطفة الدينية ، ولعلمهم رأوا أن نجدة الأمراء — إن أمكن — في بلاد الشام كافية لإجلاء نور الدين وأتباعه عن الأماكن التي احتلوها سواء في الرها أو في

(١) Cf. Chalandon : Comnènes, t. II, , p. 424.

(٢) C. T., p. 785 — 786 ; Chalandon : Comnènes, p. 424 — 425 ;

شرقي نهر العاصي . أما الفريق الثاني فإنه رأى أن الدولة البيزنطية خير من المسلمين ، ولعل هؤلاء أدركوا هدف نور الدين من كثرة فتوحه ، واستشفوا منه أنه يعمل جديا على تكوين جبهة متحدة لقتال الصليبيين في الشرق ، ولعلمهم رأوا أيضا أن امتلاك الإمبراطورية البيزنطية للرها ليس يردى إلى كثرة الاحتكاك بدولة نور الدين ويولد النزاع بين الجارين مما يترتب عليه إضعافهما معا وإنقاذ الإمارات الصليبية على حسابهما . وقد جرى ذلك الانقسام في الرأي في جلسة عقدت خصيصا لمداولة الرأي في عروض ما نويل . ولعل نظرة واحدة إلى محضر تلك الجلسة التاريخية يساعد على فهم روح ذلك العصر ؛ فقد كان وليم الصوري — أكبر مؤرخي فرنجية تلك الحقبة — حاضرا المجلس وترك لنا صورة صادقة عنه ^(١) ، وهو نص كاف لإيضاح اختلاف وجهات النظر حول تلك المسألة الهامة ، إذ يتبين منه أن بياتريكس وكلت تقرير مصير إمارتها — أو على الأصح ما تبقى منها — إلى رأى بلدوين الثالث ملك بيت المقدس وعاهل الصليبيين في بلاد الشام ، ولم ير بلدوين أن يبت في الأمر برأى قاطع دون مشاورة باروناته ، فلما استقر الأمر على قبول مطالب مانويل كومنين حاول إقناع الأميرة ببيع تل باشر وسميساط وروم قلعة وألبيرة ودلوك وعتاب وراوندان إلى البيزنطيين ، وخرجت الأميرة وأولادها ، وتبعها في خروجها جمهور غفير من الأرمن الذين أدركوا مقدار الخطر الذي يهددهم من بقائهم تحت سيطرة النفوذ البيزنطي ، فأرادوا الإبقاء على حياتهم وأموالهم ومعتقداتهم .

هذا ما كان من أمر ما تبقى من إمارة الرها ، على أن ذلك لم يكن كل ما هنالك بين الصليبيين ونور الدين في السنوات الأولى من حكمه ، إذ كانت هناك أنطاكية ، التي أشار صاحبها ريموندى بواتيه على الحملة الصليبية الثانية

أن تبدأ عملها بحلب ، ولو أنها نزلت عند رأيها لما توجهت وجهتها الخاطئة صوب دمشق ، ولذلك لم يسكد الصليبيون الآوريون وعلى رأسهم لويس السابع يرحلون عن أنطاكية إلى بيت المقدس حتى تأهب نور الدين للقضاء على إمارة أنطاكية وصاحبها ، الذي كان يمكن أن ينجح في توجيه الحملة الصليبية نحوه ، وكان رايوند كان يتوقع أن يتحرك نور الدين ضده في سرعة فسبقه ، وخرج بجيوش أنطاكية سنة ١١٤٩ قاصدا إمارة حلب ، ولم يكن ذلك من الأمور التي ينبغى القيام بها في مثل تلك الظروف التي زال فيها الخوف عن نفوس المسلمين عامة وأهل حلب خاصة ، لانكشاف القوات الصليبية الآورية عن بلاد الشام ، وخروجها منها شبه منهزمة ، وظهور الخلف الشديدين الصليبيين ، وتضارب مطامع المقيمين منهم بالإمارات المختلفة .

ولم يسكد خبر تحرك الأنطاكيين يترامى إلى سمع نور الدين حتى استعد لمقاتلتهم ، والتقى الفريقان في مكان اسمه يغرى^(١) سنة ١١٤٩ ، واقتتل شديدا انجلى عن هزيمة الصليبيين . وهذا ما رواه ابن الأثير وابن العديم ، إلا أننا لا نجد شيئا عنها في ابن القلانسي ، بل إن كل ما يشير إليه صاحب الذيل هو هزيمة نور الدين أمام ريموند أمير أنطاكية^(٢) .

وتعليل ذلك أنه ربما كانت هناك وقعتان لنور الدين مع ريموند ، شالت في الأولى كفة الصليبيين ، ثم عادت فرجحت في الثانية ، إذ يذكر المؤرخ السرياني المجهول أن نور الدين هاجم يغرى في غيبة صاحبها ريموند ، فلما علم ريموند بذلك جمع رجاله وكرّ على المسلمين كرة أرغمتهم على الفرار ، حيث نجى مع نور الدين مائتان فقط من رجاله ، أما من عداهم فقد قتلوا عن آخرهم^(٣) .

(١) Dussaud ; Topographie, p. 436 - 439

(٢) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ٦١ ، وأتابكة الموصل ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وابن العديم ، ص ٥١٧ - ٥١٨ ، وابن القلانسي ص ٣٠٢ - ٣٠٣ ، Gibb : Damascus Chronicle, P. 148 ; JRAS., p. 301.

(٣) أما كتاب الروضتين ، ص ٥٦ ، فقررها كأمر مفروغ منه كما حفظ لنا الشعر العربي إشارة لهزيمة نور الدين في يغرى ، إذ قال أحد الشعراء في مدح أسد الدين شيركوه : =

ويمكن أن نقول إن الواقعة التي هزم فيها نور الدين على يد ريموند قد تشاقل عنها بعض المؤرخين المسلمين عن قصد ، فقد نص عليها أبو شامة ، فقررها كأمر مفروغ منه .

وكيفما كان الأمر فقد أعقب نور الدين وقعة يغرى بالهجوم على حصن حارم في مايو ١١٤٩ ، وهو الحصن الواقع على الشاطئ الشرقي لنهر العاصي . وقد استولى نور الدين على ذلك الحصن وعلى أرتاح^(١) وما حولها ، ولعل هذه الحركة من جانبه كانت تأرا للهزيمة التي لحقت به من قبل أمام يغرى . ثم مضى نور الدين يخرب ما حول حوران ، ولم يلبث أن انتصر على جماعة من الصليبيين عند « أنب » ، شمالي أفامية ، وأزالهم عنها^(٢) .

على أن ريموند كان فيما يبدو شديدا بنور الدين في العزم على مواصلة القتال إلى النهاية ، إذ تحرك بجيوشه^(٣) حتى بلغ « معرثة »^(٤) ، مما انطوى على الخطر الشديد عليه وعلى من معه . ولم يفت ذلك أحد الإسماعيلية الذين

== إن كان آل فرنج أدركوا فلحسا في يوم يغرى ونالوا منية المظفر
ففي الحطيم خطمت الكفر منصلتنا أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرى نهايا واتتهبت لنا على الحطيم نفوس المعشر البتر
كما أن الفيسرائي يشير في إحدى قصائده التي رفعها إلى نور الدين عقب نصره على ريموند دي
بواتيه إلى هذا الحادث فيقول :

قل للطفاء وإن صمت مسامحا قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم آنب والأيام دائلة من يوم يغرى بعيد لا ولا كتب
أغرکم خدعة الآمال ظنكم كم أسلم الجهل ظنا غرة الكذب
انظر أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٣٦١ Le Strange : Palestine
under Moslems, p. 436 — 437.

Dussaud : Topographie Hist. de la Syrie. p. 225 et seq. (١)

Dussaud : Op. Cit. p. p. 168 وابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص ١٧٧ ، (٢)

Gibb : Damascus Chronicle, p. 291 — 292 وابن القلانسي ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، وكان

هذا الانتصار في شهر صفر سنة ٥٤٤ هـ = (يونيو ١١٤٩ م)

Documents Armeniens, t. I., p. 161; G. T., p. 772. (٣)

Dussaud : op. cit. p. 167. (٤)

كانوا يتلصسون الوسيلة للقضاء على نور الدين ^(١) ، فقد أشار هذا الإسماعيلي على ريموند بالبقاء حيث هو نظر آ لقلعة جنده ^(٢) وانتظاراً لمقدم ما قد يفد عليه من الإمدادات الصليبية . بيد أن ريموند أهمل مشورة الإسماعيلي ، فتركه نور الدين حتى صار أمام معركة ليلة ٢٧ يونيو ١١٤٩ ^(٣) ، وعند ذلك تقدم نحوه وقاتله أعنف قتال ، وأبى أمير أنطاكية النزول على مشورة من أشاروا عليه بالنجاة بنفسه ، بل استبسل حتى خر صريعاً في الميدان . ولا مشاحة في أن مصرع ريموند كان من أشبهى الأمانى عند المسلمين ، فقد زال من على مسرح النضال رجل أقل ما يقال فيه إنه من أشد خصومهم قوة وأكثرهم كراهية لهم ، وحسبنا بيان شكيمته من تسميتهم إياه « باللعين » و « العاقى » ، ثم إنه عندهم أيضاً من « أبطال الصليبيين المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيلة ، وعظم الخلقة ، مع اشتهاه الهيبة وكبر السطوة والتناهى في الشر » ، وهو عند المسيحيين « الأسد المحصور » ^(٤) . وقد كانت نهاية ريموند على يد أسد الدين شيركوه ، فلما عثروا على جثته فصلوا رأسه وذراعاه اليمنى وحملوهما إلى خيمة نور الدين ، وزعم ولیم الصوري أنهما حملتا من هناك إلى الخليفة ببغداد ^(٥) ومهما يكن الأمر فقد كانت تلك

(١) لإبطاله « حتى على خير العمل » ، أنظر النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .

(٢) Chroniques du Michel, t. III, p. 289. وقد ذكر ابن القلانسي ص ٣٠٤

— ٣٠٥ أن جند نور الدين بلغ الستة آلاف فارس سوى المقاتلة والأتباع والسواد ، أما جند ريموند فكان أربعاً مائة فارس طعانة ، وألف رجل مقاتلة ، راجع أيضاً كتاب الروضتين ج ١ ص ٤٥٨ ، G.T. , p. 772

(٣) هذا التاريخ وارد في : Migne: Dic. des Crois.arte "Antioche" .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٦٥ ، المنتظم ص ١٢١ — ١٢٢ ، وابن القلانسي ص ٣٠٥ ، G. T. , p. 776 ; corhiques du Michel, t. III, p. 289 ; Rey : Les Familles d'outre mer p. 360

(٥) لم تنص المراجع العربية على تسمية المكان الذى قتل فيه أمير أنطاكية ، غير أن الشعر حفظ لنا اسمه ، فيقول أحدهم مخاطباً أسد الدين شيركوه ، ومنوها بما قد تم على يده من مصرع أمير أنطاكية

ففى الحطيم خطمت السكفر منصلتنا أباه المظفر بالصمصامة الذكر =

الوقعة وما أدَّتْ إليه من مقتل ريموند ثاني نكبة تنكب بها الإمارات الصليبية في الشام في مدى أعوام قلائل، ولم يعدل ألم الصليبيين بها سوى فرحة المسلمين^(١).

عدم أنطاكية من يدفع عنها عائلة المغير، إذ لم يخلف ريموند وراه سوى أرملته كونستانس وابنه الصغير بوهمند الثالث. فطمع نور الدين إذ ذاك في إرهاب أهلها، فتقدم يحيوشه حتى بلغ «باب السويداء» أحد أبواب المدينة، وطلب من أهلها الاستسلام له، فاضطربوا وخافوا على مصيرهم ومصير الإمارة، فتقدموا إليه بالهدايا والأموال عساه يرجع عما يهددهم به، بما فيه فناءهم كجاعة استقرت هناك منذ نصف قرن.

والواقع أن نور الدين لم يكن صادق الرغبة في الاستيلاء على أنطاكية، لأنه إذا اشتد في تهديدها فإنه يهيء للدولة البيزنطية ذريعة للتدخل في شؤون الإمارة، وهو ما لا يحبه مطلقاً، فجوار الصليبيين — على حد قوله — أحب إليه من مجاورة «ملك القسطنطينية»^(٢). ولا عجب إذا قبل نور الدين ما عرضه عليه الأنطاكيون من الهدايا والأموال، ورأى الارتحال عن بلدهم لمنزلة الحصون الأخرى.

ثم نزل نور الدين على أفامية^(٣) وهي من أمتع المعاقل الصليبية المطلة

== ويقول آخر عن ريموند

فاثقاد في خطم المنية أنه يوم «الخطيم» وأقصرت ثرواته

انظر أيضاً ابن الفلاس ص ٣٠٥، G. T., p. 774.

(١) حفظ لنا الشعر العربي صورة من فرحة المسلمين بانتصارهم على ريموند ومصرعه ونكبة

أنطاكية، فيقول أحدهم مخاطباً نور الدين

أغررت سيفوك بالإفرنج راجفة فؤاد رومية السكبرى لها يجب

ضربت كبشهم منها بقاصة أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب

ظهرت أرض الأعدى من دمائهم طهارة كل سيف عندها جنب

(٢) ابن الأثير: أنابكة الموصل، ص ٢٢٤.

(٣) G.T., p. 774; Van Berchem, Voyage en Syrie, p. 233; Dussaud: op.

cit. p. 168. وابن الفلاس، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٥؛ وأنابكة الموصل، ص ١٨٠؛

والكامل، ج ١١، ص ٦٧ وكان نزوله يوم ٢٦ يوليو ١١٤٠ م (= ربيع الأول سنة ٥٤٤ هـ)

على نهر العاصى، كما كانت مصدر خطر جسيم على الإمارات الإسلامية التى حولها، لاسيما شيزر وحماة، فرتب نور الدين الأمير صلاح الدين لحربها، وعهد إليه — ثقة منه به — بدفع كل قوة صليبية تفكر فى إنقاذها، ويثس أهل أفامية من الانتصار حين سمعوا بما حاق بأنطاكية، وانعدم رجاؤهم فى نجدة تصلهم، فلم يلبثوا أن طلبوا الأمان فأجروا إليه^(١).

وهنا يتضح لنا أن نور الدين كان يسير فى تلك الحرب وفق خطة مرسومة مدبرة، فهو فى جميع تلك الوقائع قد جعل نصب عينيه أمراً واحداً تبيينه لنا خريطة فتوحه إبان تلك الحقبة، ألا وهو محاولته الاستيلاء على كل البلاد الواقعة شرقى العاصى. على أن تحول نور الدين عن أنطاكية إلى أفامية لم يكن معناه صرفه النظر عنها نهائياً، بل انتظر بلدين الثالث أن يعود نور الدين إلى تهديدها مرة أخرى، حتى إذا قضى لبائنته منها توجهه إلى الجنوب حيث طرابلس ومملكة بيت المقدس، ولذا اهتم بلدين بأمر أنطاكية أشد الاهتمام، ولا سيما أنها لم تكن مهددة من جانب نور الدين فحسب، بل كان هناك كذلك الامبراطور مانويل كومنين. والواقع أن مانويل لم يخف مطامعه فى ضم أنطاكية إليه عقب مصرع ريموند دى بواتيه، ذلك أن كونستانس اعتبرته حامياً لها ولا مارتها، فرآى الفرصة سانحة لتحقيق مطامعه الملوكية، وذلك بربط إمارة أنطاكية بالامبراطورية البيزنطية برباط المصاهرة، فبعث إليها أميراً من ذوى قرباه، ولكنها صرفته بلطف، وتكرر العرض من جانب الإمبراطور أكثر من مرة^(٢).

أما بلدين الثالث فقد رأى أن زواج كونستانس من أمير صليبي من أتباعه يدعم الإمارة، وبالتالي يدفع عنها أطاع الإمبراطورية البيزنطية، ويمكن ملك بيت المقدس من الانصراف لمعالجة شئون الإمارات الأخرى بالشام،

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ٦٣.

(٢) Schlumberger: Renaud de Chatillon, p. 10.

ولذلك عقد بجمع في طرابلس ضم كبار الصليبيين ورجال الدين، وتصدره بلدوين الثالث^(١) وأمه وكونستانس، واستعرضوا أسماء من يطعمون في الزواج من الأرملة الشابة الحسنة، فأبى الأميرة الاقتراح بأحدا، وأصرّت على أن تبقى كما هي منصرفة إلى الوصاية على ابنها، وهناك من يعمل موقفها هذا إلى تدبير من بطريك أنطاكية أمررى دى ليمجوس، ليظل صاحب الكلمة في تصريف شؤون الإمارة^(٢). ولقد كانت كونستانس فتاة في ريق الصبا وميعة الشباب، لها قلب يخفق بالحياة، فلا تقيد بأوضاع معينة، أو رتبة، أو جاه، أو مال، وما لبثت أن أحبت فتى مغامر آ هو «رينودى شاتيون» الذى لم يكن له ما يؤهل للزواج بها غير جماله وقوته، ودأسته هي الفارق الاجتماعى العظيم الذى يفصل بينهما، وكانت من الدهاء بمكان، فتظاهرت بضرورة الحصول على موافقة بلدوين الثالث، فبعثت زوجها المختار إليه وهو مقيم على حصار عسقلان الفاطمية، متوسلا إليه الموافقة على زواجهما من بعضهما، فتم لها ما دبر^(٣)، وعاد «رينو» إلى أنطاكية سنة ١١٥٣ م، وعُدّ توليه الحكم أكبر سسبة فى تاريخها وفى تاريخ الإمارات الصليبية عامة^(٤)، لاسيما وقد أدت سياسته الخرقاء إلى أسوأ العواقب، كما غضب لهذا الزواج البطريرك الأنطاكي .

غير أن تطوّر الحوادث بأنطاكية على ذلك النحو لم يجعل منها ما أراد به بلدوين الثالث، الذى ما فتئ يوجس خيفة مما قد يكون الغرض التالى لنور

(١) كان سبب مقدم بلدوين إلى طرابلس محاولته التوفيق بين ريموند الثانى أميرها وبين زوجته «هدير» .

(٢) G.T., p. 790 — 791.

(٣) غير أن هناك مؤرخا يزعم أن اختيار رينودى شاتيون زوجا لكونستانس كان بتدبير بلدوين الثالث نفسه؛ راجع فى ذلك Schlumberger : op. cit., p. 5, note 1 d'après Chron. d'Ernoul.

(٤) Cf. G. T., p. 802 — 803. حيث يقول عن رينودى شاتيون Gregario nubere dignaretur أى أنه غير أهل للتولية.

الدين بعد أفامية . ولذا رأى بلدوين الثالث أنه من الخير له أن يبحث عن حليف قوى يستطيع أن يلوّح به في وجه نور الدين كلما هم يتنذر به بالخطر ، وقرّر رأيه أن يتخذ من الإمبراطورية البيزنطية حليفاً له ، فخطب إلى الإمبراطور مانويل كومنين ابنة أخيه « تيودورا » ^(١) غير متجاوزة الثالثة عشرة من عمرها ، فزفها الإمبراطور إلى بلدوين الثالث أروع زفة ، وقدر حب الإمبراطور بمشروع الزواج لما فيه من وسيلة للحلف بين مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية ، لعله بذلك يستطيع أن ينهى ما للإمبراطورية من أطماع في أنطاكية ، حيث كانت كونستانس هي الوصية على ابنها بوهيمند الثاني ، وإلى جانبها زوجها رينودى شاتيون ، الذى لم تلبث سياسته أن أدت إلى نهوض الإمبراطور سنة ١١٥٨ ، لمعاقبته على تعديه على عملائه في قبرص وعلى رجال الكهنوت الأغريق بأنطاكية . وخرج مانويل إلى المصيصة بجيش ضخم ارتعدت له أوصال الوصية وزوجها . فاستغاث رينو ببلدوين ، ولكن ملك بيت المقدس تلكاً بإيجامه من البطرك إيمرى ليمجوس ، وأدرك رينو أنه أمام اثنين أحلاهما مر : إما أن يخرج وحده لمقاومة جيش الإمبراطور وهو ما لا يستطيعه أبداً ، لأنه يردى إلى أسره أو قتله ، وهو الحريص على الحياة وأبهة الحكم ، وأما ثانيهما فهو الخضوع للإمبراطور ، وذلك ما أشار به عليه أحد المقربين إليه وهو جيران الناصرى أسقف اللاذقية ^(٢) واختار رينو الطريق الثانى ومضى إلى فسطاط الإمبراطور بالمصيصة عارى الرأس ، حافى القدمين ، مبالغة في إظهار طاعته وخضوعه له ، وركع أمامه مقبلاً يده ، وأعلن نفسه تابعا لإقطاعيا له ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك حين تعهد للإمبراطور بخلع البطرك الكاثوليكي ، وإحلال آخر يونانى مكانه ^(٣)

(١) Diehl : Figures Byzantines, t II, p. 106 — 108.

(٢) Du Cange — Rey : Familles d' outre — mer, p. 797.

(٣) فيما يتعلق بهذه الصورة التمثيلية العجيبة ، وما دار في ذلك المجلس بين الإمبراطور

مانويل دى كومنين ، وبين رينو دى شاتيون ، راجع G. T., p. 890

غير أن امتداد السيادة البيزنطية على أنطاكية بهذه السهولة لم يُرق في عين بلديين الثالث ملك بيت المقدس، الذي خاف من ضياع أنطاكية وتسليم قلعتها إلى مانويل، فأرسل رسلة تعلن للإمبراطور البيزنطي قدوم مولاها الذي دخل عليه فسطاطه في المصيصة راكبا غير راجل، ولعله فعل ذلك عن قصد ليشعر الإمبراطور بتكافؤ مكانتهما، وقد أحسن مانويل^(١) لقائه، وربما كان ما قام به مانويل وقتذاك من دعوة لمهاجرة أملاك نور الدين إنما قصد به صرف الصليبيين عن التفكير فيما حدث بأنطاكية.

وكيفما كان الأمر فقد نهض نور الدين في فبراير ١١٥٩ إلى البلاد الشامية المختلفة، لتطمين أهلها من شر الحلف البيزنطي الصليبي، وسار في عسكره إلى حمص وحماة وشيزر^(٢)، وكاتب عمال الأطراف وولاة الأقاليم لإنجاده بعساكرهم لصد ما عساه ينزل بالبلاد^(٣). غير أن هناك فجوة في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك الحقبة، فبدلا من أخبار الاستعدادات التي انصرف إليها نور الدين للتجهز للقتال، وبدلا من أخبار تأهب مانويل بحنده وحلفائه، إذا بصلاح يتم بين المسلمين والبيزنطيين في جمادى الأولى ٥٧٤ هـ = ١١٥٩ م، كأن لم يحدث بين قيام نور الدين وإتمام الصلاح شيء ما. ويشير الكاتب الأرمني القسيس جريجوار — ويتفق معه ابن القلانسي — إلى تردد رسل نور الدين على معسكر الإمبراطور، ولا شك أن نور الدين كان مستعدا للحرب، فقد تواصل الأمراء المقدمون وولاة الأعمال بجنودهم المجاهدة أحزاب الضلال وحماية الأعمال الإسلامية من شر الروم والأفرنج، ومع هذه الكثرة العددية إلا أن نور الدين أثر الصلح مع مانويل، حتى لا يجعل مملكته بين عدوين، ووافق على إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين لا زالوا في الأسر عنده منذ الحرب الصليبية الثانية^(٤) كما أرسل إليه مانويل هدية من الأثواب والديباج الفاخرة.

(١) G.T., p. 862, Doc. Armeniens, t.I, p. 188.

(٢) ابن القلانسي: الذيل، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ — ٣٥٨. Gibb: Damascus Chronicle, p. 354-355.

(٣) ابن القلانسي، الذيل، ص ٣٥٧.

(٤) G. T. p. 864-866; Gregoire le prêtre, t. I, p. 189-191.

والجوهر النفيس ، والخيمة من الديباج ، وما استحسن من الخيول المحلية ، ويتجلى من بقية عبارة لابن القلانسي فرح المسلمين برحيل الإمبراطور بعد الصلاح ، حيث عاد إلى بلاده « مشكوراً محموداً ، لم يرد أحد من المسلمين » (١) ، والواضح من ذلك كله أن مانويل كومنين لم يقصد إيذاء أحد من المسلمين ، بل كان غرضه من حركته أولاً تسوية مسألة أنطاكية ، حتى إذا تم له ذلك لم يبق عليه إلا أن يجرى على السياسة البيزنطية التقليدية ، التي رمت دائماً إلى توازن القوتين الإسلامية والصليبية في الشام ، بحيث لا تطغى إحداها على الأخرى طغياناً يهدد مصالح الإمبراطورية البيزنطية وأطاعها ، ولم يكن من صالح الإمبراطور أن يقضى القضاء للبرم على نور الدين ، هذا إلى ما ترمى إلى سمع مانويل كومنين من الاضطراب في عاصمته (٢) ، فأشار مشيروه بوجوب الإسراع في العودة إلى بلاده ، رغم أنهم أصبحوا وليس بينهم وبين أن يتركوا أبواب حلب سوى ثلاثة أيام .

وقد كان معنى الاتفاق بين نور الدين ومانويل كومنين إطلاق يد المسلمين في الأعمال الصليبية ومكيدة صليبي الشام ، ولعل الاتفاق قد تم بينهما على أن يقوم سلطان حلب ودمشق بمراقبة شاتيون نيابة عن الإمبراطور . ومن الدليل على ذلك أنه حدث أن علم رينو بوجود عدد وفير من الماشية والأغنام لبعض المسلمين فيما بين مرعش ودلوك من أعمال إمارة الرها ، فقام في نوفمبر ١١٦٠م وخرج في شردمة ضئيلة للاستيلاء عليها ، وقد تربص مجد الدين بن الداية عامل نور الدين على حلب لرينو في الطريق وهاجمه وأحاط به وبمن معه ، واستطاع أخذه أسيراً حيث بقى في سجن حلب إلى سنة ١١٧٦م ، أي إلى ما بعد موت نور الدين دون أن يتحرك الإمبراطور بحركة ما لانقاذ تابعه الإقطاعي ، وهكذا أدت رعونة شاتيون إلى جلب الخطر على نفسه وعلى الإمارة المنكوبة به ، إذ أوقع في يد الوصية لا سيما

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٨ .

(٢) Gregoire le pretre, Doc. Arm., t. 1. p. 191 - 192 .

وأن ابنها بوهيمند الثالث لم يزل غلاما حدثا ، لا يستطيع أن يأخذ مقاليد الأمور في يديه ، أو يدبر شئون الإمارة كما ينبغي . وعند ذلك خشي بلدوين الثالث أن يقدم نور الدين على ضرب إمارة أنطاكية والاستيلاء عليها بعد أن تمكن من أسر أميرها وإذلاله ، كما أنه خشي تدخل مانويل في أمورها بحجة تعيين من يقوم مقام شائثون ، ولذا ذهب بلدوين الثالث إلى أنطاكية وجعل الوصاية في يدى البطررك إيمرى ليمجوس .

* * *

ويبدو أن تلك الحركة من جانب بلدوين الثالث أنقذت أنطاكية مما كان قد يئس منه نور الدين ضدها بعد أسر رينو ، إذ أنه لم يشأ مهاجمتها بعد أن قويت شوكتها ببلدوين الثالث ، لأن ذلك الهجوم يثير ضده نائرة الصليبيين والبيزنطيين معا ، فأجّل تلك الخطّة إلى وقت آخر تنهأ له فيه الفرصة . والدليل على ذلك أن نور الدين لم يقيم بشيء ضد أنطاكية برغم ما أعلنه من أن حربها جهاد بكل مالهذه الكلمة من مدلول فى الاصطلاح الإسلامى حتى توفى بلدوين الثالث وانصرف خليفته أمورى الأول نحو مشروع التدخل فى مصر . حين ذاك أخذ نور الدين يتجهز لمهاجمة أنطاكية ، وطلب إلى الأمراء المختلفين مساعدته^(١) ، فخرجت قواتهم المتحالفة تحت رايته ، وأغذوا السير إلى حارم المؤدية إلى أنطاكية سنة ١١٦٤ ، مختنفا فرصة تغيب الملك أمورى فى حملته الأولى على مصر ، مؤملا أن يجد السبيل ميسرة أمامه والصليبيين قليلين ، والبلد أضعف من أن يقاوم ، والأمير الشاب بوهيمند الثالث أعجز عن دفعه^(٢) .

ومن هنا تختلط حركات نور الدين ضد أنطاكية خاصة والصليبيين عامة بمسألة التسابق على مصر بين الدولتين النورية والصليبية ، وليس من الممكن

(١) الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٣ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٢٠ وما بعدها .

Rey: Les Princes d' Antioche, P. 374 et seq. (٢)

فهم أعمال نور الدين ضد الصليبيين من سنة ١١٦٤ حتى وفاته إلا على اعتبار أنها جزء من تلك المسابقة . على أنه لا بأس هنا من تتبع الحركات النورية بالشام في شيء من الاستقلال ، لأنها تشرح ناحية مما قام به نور الدين ضد الصليبيين بقية عهده ، ومن المحتمل جداً أنه كان يقوم بها سواء جدت مسألة النسابق على مصر أم لم تجد ، وهذا مع العلم بأن جزءاً على الأقل من تلك الحركات النورية بمصر من مد وجزر . وكيف كان الأمر فلم يكدر خبر الزحف النورى صوب حارم يذيع بين الصليبيين حتى جزعوا على أنطاكية ، ورأوا أن نجاح صاحب دمشق معناه القضاء عليها ، لا سيما بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله داخليا ، فلا عجب إذا اجتمعوا على مختلف طبقاتهم وأجمعوا أمرهم على دفعه ، حتى إن أهل الصوامع والأديرة لم يتأخروا عن المساهمة في ضده ، ولما كانت أنطاكية — حسب اتفاقية المصيصة ١١٥٩م — قد اعترفت صراحة بتبعيةها للإمبراطورية البيزنطية ، فقد أدرك قسطنطين كولمان — حاكم قيليقيا البيزنطي — مقدار الخطر الذي يهدد أملاك مولاه إذا قدّر النجاح لنور الدين في مشروعه ، فجمع فريقاً كبيراً من الأرمن ، وسار بهم إلى حارم ، فلما سمع نور الدين بسيره ، انكفأ عنها إلى أرتاح .

غير أن نور الدين لم يتقهقر إلا تديراً وخدعة ، وقد جازت حركته على بوهيمند الثالث أمير أنطاكية ، وظن أن الموقف يتطلب منه السير وراء نور الدين لكي يلحق به الهزيمة ، لأنه لم يسبق له الاحتكاك الجدى بالمسلمين في أساليبهم الحربية ، فأشار عليه بعض من حوله — ممن تمرّسوا بتلك الأساليب — ألا يقدم على السير وراء المسلمين ، فلم يعبأ بأقوالهم ، وعدّها جبناً منه إن هو أحجم ، بل سار مجداً في إثرهم ، وإذا بهم على حين غفلة منه — وقد بعد ما بينه وبين مركزه — قد استداروا وهاجموه عند « عم ، شمال شرقي حارم »^(١) وأحرق نور الدين بالقوات الصليبية ، وأسر كثيراً

(١) ابن العديم : منتخبات من تاريخ حلب ، ص ٥٤٠ .

من مقدميهم وفيهم بوهيمند الثالث نفسه وريموند الثالث أمير طرابلس، وعامل
بزنطية على أرمينية^(١) فلم تلبث « حارم » أن سقطت في يده يوم ١٢ أغسطس
١١٦٤ ، وأصبح الطريق إلى أنطاكية نفسها مفتوحا ، وليس أمام نور الدين
من يتعقبه أو يسد مسالكه ، كل ذلك وأمورى الأول ملك بيت المقدس
غائب في حملته على مصر .

أصبح من المنتظر بعد ذلك أن يسير نور الدين شطر أنطاكية بعد
أن فقدت كل نصير ، والظاهر أنه أخذ في التلكر ، فارتاب من حوله في
الأمر ، وسأله أن يبادر إلى اقتحامها وامتلاكها ، حتى يزيل عنها ما بقى بها
للصليبيين من قوة ، ولكنه امتنع ، فألحوا عليه ، فأجابهم بقوله : « أما المدينة
فأمرها سهل ، وأما القلعة فثنية ، وربما سلوها إلى ملك الروم ، ومجاورة
بيمنند أحب إلى من مجاورة صاحب قسطنطينية^(٢) » . ولم يكن نور
الدين في الواقع مسرفا في ذلك الخوف ولا شديد التشاؤم ، بل كان يقدر
لرجله قبل الخطو موضعها حتى يأمن الزل ، ثم إنه لم يكن يرغب أن يشير
في وجهه قوة الإمبراطورية البيزنطية حتى لا يصاب بخاطر قد لا يعادل
ما يصيبه من النجاح ، أضف إلى هذا علمه بسهولة مجاورة الصليبيين ، فجوارهم
أهون عليه من مجاورة مانويل ، مما يكشف عن ضعف الصليبيين في بلاد
الشام . لكل هذه الظروف مجتمعة سلبت أنطاكية من الوقوع في يدى
نور الدين ، ولعل تبعيتها لبزنطة هي أولى تلك الظروف .

وكان نور الدين يدرك أيضا أن احتلاله لأنطاكية لا بد وأن يدفع
بالإمبراطورية البيزنطية للنهوض لنجدتها ، ولإثبات سلطانها عليها ، كما أنه
سرعان ما يدفع أمورى للعودة من مصر ، فتلتقى القوتان المسيحتان وتحصرانه
من الشمال ومن الجنوب ، وبذلك يسعى لحتفه بظلفه ، وقد برهنت الحوادث

(١) أتابكة الموصل ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، والكمال ، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، G.T. ،
p. 896 — 897 ; Dussaud ; Topographie de la Syrie , p. 231 — 232. Dict. des
Croisades, art. "Tripolie"

(٢) الكمال ، ج ١١ ، ص ١٣٦ ، الأتابكة ، ص ٢٢٤ .

فما بعد على بعد نظره وصدق آرائه ، وأنه كان لا يصدر في أحكامه إلا عن روية وتدبر ، وإلا عما يحفظ عليه مكانته ، ويبعد عنه شر الأحداث والفتن وأخطار المحالفات الصليبية ضده ، فقد عاد أموري من مصر في نوفمبر ١١٦٤ ، وضم قوات كونت فلاندرز أخى زوجته ، وسارا قاصدين أنطاكية ،^(١) وأخذت الرسل تتردد بينه وبين نور الدين في شأن الأسرى ، وتم الاتفاق بينهما على إطلاق سراح بوهيمند الثالث ، لأنه من الأهلون على نفس ملك دمشق أن يرى بوهيمند على عرش أنطاكية ، من أن يجاوره أموري في قيامه بالوصاية ، إن ظل أميرها الشرعي في أسره .

لم يخف على أحد مقدار العامل البيزنطي في تلك الناحية^(٢) إذ المتأمل للنصوص المختلفة المتعلقة بتلك المسألة يدرك أن تحرك القوات الصليبية كان تحت تأثير دفع الإمبراطورية البيزنطية ، بل الظاهر أن بوهيمند نفسه كان ينسب تحريره من الأسر إلى نفوذ الإمبراطور أكثر من نسبه إلى أى عامل آخر ، فما كاد يطلق سراحه حتى زار في سنة ١١٦٥ القسطنطينية شاكرًا للإمبراطور يده عليه ، مؤملاً أن يمدد ببقية الدية التي تعهد بدفعها لنور الدين . ثم انعقدت الوصلة بين بوهيمند وبين تيودورا ابنة أخى الإمبراطور ، ورضى أمير أنطاكية أن ينفذ ما اشترطه من قبل رينودى شاتيون على نفسه ، وأضحت مصالح أنطاكية مرتبطة أشد الارتباط بمصالح الدولة البيزنطية ،^(٣) وتتلخص في سوق الزعامة الدينية بأنطاكية إلى بطرك أرثوذكسى هو أثناس الثانى الرومى الملكانى ، مما حمل السكهنوت الكاثوليكي على التعصب ضد بوهيمند ذاته ، كما أن إيمرى دى ليمجوس ارتد إلى حصن القصير تاركا أنطاكية . وهنا دلت سياسة نور الدين على أنه مدرك خير إدراك لعواقب الأمور

G.T., p. 900. (١)

G.T., p. 901. (٢)

G.T., p. 901 ; Michel le Syr. t. III, p. 335, 336 — Rey : Colonies (٣)
Françaises, p. 337 ; Rey ; Dignitaires de la principauté d'Antioche, p. 136 —
137., Dussaud : op. cit. p. 429 ; Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 246.

ولنا أن نُقدّر مقدار الخسائر التي كان لابد وأن ينفق بها لو أنه أطاع من أغروه بالوثوب على أنطاكية واحتلالها بعد أسر صاحبها، ثم حكمته في إطلاق سراحه عاجلاً في الوقت الذي أبقى فيه رينودى شاتيون — عدو الإمبراطور البيزنطي — رهن القيد، مما يدل على مراعاته لخاطر الدولة البيزنطية حتى لا تكون يد أعدده، ولو فعل ما أشار به عليه من حوله لأدى ذلك إلى تكوين جبهة مسيحية ضده، قوامها الجماعات الصليبية والبيزنطية على السواء .

أما النضال الذي شب بين نور الدين ومملكة بيت المقدس فقد تدخل في نزاعه مع بقية الإمارات اللاتينية الأخرى، وسبب ذلك أنه لم يكن يفكر مطلقاً في أن يضرب بيت المقدس ضربة تهوى بها، لأنه بذلك يؤلب دول أوربة قاطبة، ويفتح مجالاً جديداً للمغامرين جُدد، يريدون أن يحدوا ذريعة للقدوم إلى الشرق الإسلامي والاستقرار فيه، كذلك كانت مملكة بيت المقدس قد احتلت الصدارة بين الإمارات اللاتينية في الشام إبان القرن الثاني عشر، واستطاعت بفضل شخصية ملوكها المتتابعين أن تكون لها السيادة الفعلية، فكانت ملاذ كل أمير صليبي حزبه أمر أو اعترضته مشكلة داخلية أو خارجية، لذلك فتاريخها في تلك الحقبة شديد التداخل في تاريخ الإمارات الأخرى، بل إنه يصعب الفصل بين تاريخها وبين تاريخ الولايات الصليبية الأخرى إلا في شيء من التعسف لا يستقيم ومنطق الحوادث، حتى إن وليم الصوري نفسه — الذي جعل حولياته تدور حول تلك المملكة — لم يستطع ذلك الفصل، لأنه بذلك الوضع يتر جزءاً حيوياً من تاريخها، والعلة في هذا أنه كانت للملوكها سياسة تقليدية أملاها عليهم وضعهم السياسي والاجتماعي ومكانة البلد الدينية، ولم يخف ذلك على نور الدين، فلم يحاول الاحتكاك الجدي مع هذه المملكة، حتى لا يثير نائرة فرنجة الشام أجمعين، وفي الوقت ذاته قد

يبحث أوربة—وربما الإمبراطورية البيزنطية أيضا — لإشهار حرب عليه ،
وحينذاك لا يستطيع لها دفعا أو منها تخلصا .

ولعل أهم ضروب الصراع التي كانت بين نور الدين ومملكة بيت المقدس —
وهو ما يكشف لنا عن تعادل قوى الفريقين — ذلك الصراع الذي طال
أمدّه حول حصن بانياس ^(١) سنة ١١٥٧ ، وقت أن كان في يد الهنفرى الثانى
أصدق الناس لبلدوين الثالث .

لما رأى الهنفرى تطلع نور الدين لامتلاك البلد والحصن استعان بفئة
من الاسبتارية الذين قاسموه نصف دخل البلد لقاء مساعدتهم إياه وذلك
بإشارة من بلدوين نفسه ^(٢) ، وكان الحصن مركزا من مراكز الدفاع والهجوم
القوية ، حصين الموقع ، عزيزا على من يرومه ^(٣) .

أقام الصليبيون فى قلعة «الصبيبة» ^(٤) وتوالت الإمدادات عليهم بالذخائر
والمؤن ، وقدم منهم قرابة سبعمائة من أبطال الاسبتارية والسر جندية
والداوية سوى الرجال ، فنهض إليهم الأمير نصرة الدين أمير ميران أخو
نور الدين ، ^(٥) ، وذلك يوم ٢٨ أبريل ١١٥٧ م (= ١٥ ربيع الأول
سنة ٥٥٢ هـ) ، وانتصر عليهم وسلبهم معظم ما معهم ، وأسر جماعة منهم قادم
إلى دمشق .

كان نور الدين مقبلا إذ ذاك ببلبك ، وترامت إليه أخبار انتصار جماعته
وجماعة أسد الدين شيركوه ، وأدرك أنه لم يبق للدفاع عن بانياس سوى

(١) ترجع تسمية الحصن بهذا الاسم إلى وقوع دير اسمه Panium على مقربة منه ، راجع
Dussaud : Op. Cit. P. 391.

G.T., p. 837. (٢)

Rey . Les Colonies Françaises, p 473. (٣)

(٤) فيما يتعلق بالدور الذى لعبته هذه القلعة فى تاريخ الحروب الصليبية ، راجع
G. Demombynes : la Syrie, p. 179, note 5.

(٥) ابن الفلانسى ٣٣٨ — ٣٣٩ ، et note 1. Gibb : Damascus Chronicle, p330,
وأبو شامة ، كتاب الروضتين ص ٨٥ — ٨٦ وأتابكة الموصل لابن الأثير ص ٣٣٤ ، G.T., p.838

الهنفري، فقرر قصد بلدوين رغم عليه بقوته ومنعة حصنه، وتشبته به واستبساله في الدفاع عنه، وعد هذا القصد جهادا يثاب عليه من يشترك فيه، ورأى إلى جانب هذا أن يخرج إليه بما يتكافأ وما سيلقاه من المقاومة، فجهز الجيش، ونردى في البلد « في الغزاة والمجاهدين والأحداث والمتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الإفرنج^(١) »، وتقدمت سرية أسد الدين شيركوه، فظنها الصليبيون في العدد القليل، فباغتوها سنة ١١٥٧م، لكن السرية تمكنت من التغلب على من خرج إليها في « هونين »، ووصلت البشائر بذلك إلى نور الدين، وتلى ذلك افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً، وبذلك أصبح الهنفري وابنه سجينين في الحصن، لا يملكان الاتصال بالعالم الخارجي، وأحيط بهم من كل جانب، واشتدت مضايقة نور الدين للحصن، حتى خشى من فيه عليه^(٢).

لما علم بلدوين بذلك رأى نجدة الهنفري حقا واجبا عليه، ووصل إلى المكان على حين غفلة من المسلمين، فاضطر نور الدين للابتعاد عن طريقه، وبذلك تمكن ملك بيت المقدس من إنقاذ من في حصن بانياس من جماعات الصليبيين، ودخل مدينة بانياس ذاتها، فوجدها أطلالا خربة متهمة، فعز ذلك الإنقاذ على نور الدين، ولا شك أنه قدر الخسارة التي منى بها من جراء امتناعه عن إعطاء الأمان الذي طلبه منه الهنفري، فأباه عليه^(٣).

عاد بلدوين الثالث إلى بيت المقدس بعد أن ظن أن الأمور قد استتبعت وعادت المياه إلى مجاريها، وانفصل عنه في الطريق كثير من الأشراف الذين رأوا أن مهمتهم قد انتهت، فلما علم نور الدين بذلك رأى الفرصة سانحة لمباغطة بلدوين والشرذمة الضئيلين الذين معه، وعلم أنهم قد

(١) ابن القلانسي، شرحه، ص ٣٤١. Rey : Lee Familles d'outre-mer, p. 471.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ٢٣٣ — ٢٣٦.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٤١، ولم يشر ولم الصوري إلى طلب أصحاب

بانياس الأمان، وانظر أيضا Rey: Les Familles d' outre-mer, p. 471.

نزلوا على « الملاحه » بين طبرية وبانياس ، وتقاتل الفريقان ، وترجل نور الدين وانعقد النصر له ^(١) . ويذكر ولیم الصوری أسماء جماعة من فرسان الصليبيين الذين وقعوا أسرى في يد صاحب دمشق ، منهم برتراند كبير فرسان المعبد ، وأخذوهم إلى دمشق ، وكان هذا بلا شك نصراً عظيماً للمسلمين ، حتى ليصف ابن القلانسی أسر هذا الرعيل الكريم من وجوه الصليبيين فيقول « أما المقدمون منهم ، وولاء المعاقل والأعمال فكل واحد منهم على فرس وعليه الزردية والخوذة وفي يده راية ، والرجالة من السرجندية والدركولية كل ثلاثة أو أربعة أو أكثر أو أقل في جبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان ^(٢) .

ومع ذلك فقد تمكن بلدوين الثالث من النجاة في جماعة لا تتجاوز أصابع اليدين ، وهرب إلى قلعة صفد واحتتمى بها بضعة أيام ، لا يعلم أحد خبره ، حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين ^(٣) « إن ملكهم — لعنهم الله — قيل في الهاربين . وقيل إنه في جملة القتلى ، ولم يعرف له خبر » وهذه العبارة هامة من ناحيتين . الأولى أنها تبين جهل المسلمين بمصير بلدوين ، والثانية دلالتها الصريحة على أن ابن القلانسی كتبها في يوم مباشرة القتال ، ويشير

(١) G.T., p. 841.

(٢) ابن القلانسی، ذیل تاریخ دمشق ص ٣٤١، والروستين، ص ٩٠، Gibb : Damascus

843 — 842. G.T.p. 327. Ghronicle، ومما قيل في وصف هذا اليوم :

مثل يوم الفرنج حين علمهم	ذلة الأسر والبلاء والشقاء
وبراياتهم على العيس زفوا	بين ذل وحسرة وغناء
بعد عز لهم وهيبة ذكر	في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي	عند شن الإغارة الشعواء

أنظر حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٠٠ .

(٣) ابن القلانسی : الذيل ، ص ٣٤٣ وفي 843 — 842 G. T. p.

الكاتب الصليبي ولیم الصوری — هو الآخر — إلى ماترامی من الإرجاف في بلاد الصليبيين كهكا وبيت المقدس من الأخبار الباعثة على الخوف على مصير الملك ، والظاهر أن إقامته في صفد ثلاثة أيام ، وانقطاع كل خبر عنه ، كان من أكبر الدواعي إلى ذلك الإرجاف ، وإلى ما رآه ابن القلانسی من أنه عد الملك الصليبي بين القتلى .

وقد استطاع بلدوين — حين يعجز التركان عن قص أثره — النجاة إلى عكا ، وفرح من بهافر حاً شديداً للاطمئنان عليه ، ولم يحاول ولیم الصوری إخفاء هذا السرور ، مما يفصح عن الخطر العظيم الذي توقعه الصليبيون من جراء تلك الحملة ، فنجاة بلدوين الثالث من الأسر أو القتل نجاة صادقة للإمارات اللاتينية ذاتها ، إذ هو الأمير الذي انعقدت عليه آمالهم جميعا بعد تلك الضربات التي نزلت على بقية الأمراء الفرنجة وتحاذلهم على شتى الصور .

رأى نور الدين معاودة الكرة في مهاجمة بانياس ، علته يستخلصه هذه المرة ، لا سيما وقد اطمأن باله من حيث قلة المدافعين عنه ، وظن أن بلدوين لن يقدم على إنجاده ، بعد أن كانت نجاته إحدى الأعاجيب . كان نور الدين مخطئاً فيما ذهب ، إليه ، فلم يعد الدفاع عن بانياس دفاعاً عن أحد الحصون القوية فحسب ، لكنه أصبح مسألة كرامة شخصية تهم جميع الأمراء ، كما تهم على الخصم ص ملك بيت المقدس ، الذي دعى رينودى شاتيون ورايموند الثالث كرونت طرابلس فخرجوا بعساكرهم فاضطر نور الدين لرفع الحصار عن بانياس (١) .

كان خروج الصليبيين أيضاً للاتصال بتيبر الإلزامى كونت فلاندر الذي قدم للحج وأرسى في بيروت ، وطمع بلدوين أن يتمكن من التغلب على نور

(١) دقائق الصراع حول بانياس مذكورة بالتفصيل في حوليات المؤرخ الصليبي ولیم الصوری G.T., p. 844 ، وإن سككت عنها ابن القلانسی ومن أخذ عنه .

الدين من جراء توالى الزلازل ببلاد الشام ، وهدم كثير من المدن الشامية برمتها ^(١) ، واقتصر الصليبيون هذه الفرصة فأغاروا على حصن ^(٢) الروج Chastel Rugil ، وعملت الظروف على معاونة الصليبيين بقيام الشيعة في حلب باغتنام فرصة مرض نور الدين ؛ وطلبوا من اخيه نصره الدين إعادة رسمهم في الأذان « حتى على خير العمل ، محمد وعلى ، خير البشر » واضطربت الأحوال في البيئة الاسلامية .

رأى بلدوين الثالث اغتنام الفرصة من الاضطراب لتحقيق هدفه وهو القضاء أو الحد من قوة نور الدين الآخذة في الازدياد يوماً بعد يوم ، فخرج بجموعه سنة ٥٥٢هـ (١١٥٧م) قاصداً حصن شيزر ، وغرضه من ذلك قطع الطريق بين حلب ودمشق ، نظراً لوقوعها بين أفامية وحماة ، وكانت في يد بني منقذ ^(٣) ، كما طمع الصليبيون أن يجدوا عوناً لهم من فئة الاسماعيلية الذين كانوا متمكنين من بعض نواحيها ، وكانوا شديدي الكراهية لسياسة نور الدين السنية ، غير أن ظنهم خاب . فعلى الرغم من تمكن بعض الصليبيين من بعض نواحيها وإعمالهم القتل والأسر والنهب ، إلا أن الاسماعيلية دافعوا بشدة ^(٤) . ولعل وليم الصوري — أهم مؤرخ صليبي لتلك الحملة

(١) راجع خبر هذه الزلازل بالتفصيل في ابن الفلانسى ، شرحه ، ص ٢٤٢ — ٣٤٧ ،

وكذلك الاعتبار لإسامة بن منقذ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ، ج ١ ص ١٠٦ من الطبعة المصرية ، ابن الجوزى : شذور العقود في تاريخ العمود ، (تصوير شمسي بدار الكتب) ، ص ١٧٠ .

(٢) Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 135 وراجع الدائرة مادة "Hisen"

al-akrad وهذه القلعة الهامة تتسلط على طريقين رئيسيين أحدهما قادم من الشرق عبر طرابلس والآخر من حماة ، أضف إلى هذا أن حصن السكرك الذي تجمعت فيه القوات الصليبية وهو المواجه لمحصن يهدد المواصلات عبر الأراضي الإسلامية ؛ أنظر ابن الفلانسى ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩ وأبو شامة ص ٩٤ — ٩٥ Dussaud ; Gibb: Damascus Chronicle, p. 340 — 341 ; Topographie de la Syrie, p. 91 — 92, 158, 176 G; G.T., p. 847 — 848 Rey ; Le Colonies Françaises, p. 350 — 363.

(٣) ابن الأثير : أنابكة الموصل ، ص ٢٠٠ والدائرة مادة شيزر Derenbourg : La vie d'Ousama, II, p. 276 — 281.

(٤) ابن الفلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٩ ، Van Berchem : Voyage en Syrie, p. 188.

يفصح لنا عن الاتفاقات التي جرت بين زعماء الحملة الصليبية بشأن شيزر ، ذلك أن بلدوين الثالث أراد أن يجعل شيزر من نصيب زوج أخته تير الإلزامي ، غير أن حمق رينودي شاتيون وسفاهته وعدم احترامه للقواعد الملوكية أفسدت خطة الملك . فقد طلب رينو من تير أن يقسم له عيّن الولاء ، وهو أمر تأباه نفس السكونت كل الآباء وصرح بذلك ، فاغتاز أمير أنطاكية ، وعد نفسه أرفع مكانة من مكانة كونت فلاندر ، وخيل إليه أن الناس قد نسوا ماضيه — إن كان له ماض ما — فها هو إلا أفّاق مغامر ، وربما كان يكون له شيء من الاعتداد لو تقدم به الزمن نصف قرن فجاء مع الحملة الصليبية الأولى .

ولكنها العنجهية صوّرت له ما أوجب معه التشدد في مطلبه ، بما كان في صالح نور الدين ، فدبت الشحنة بين أشراف الحملة وقوادها على تلك المسألة الخطيرة السابقة لأوانها ، وبذلك أتيح من الزمن فرصة للسلطان المسلم ، استطاع خلالها أن ينقّه من مرضه ، وأن يعود لتدبير أمور الحرب ودفع الصليبيين .

عهد نور الدين إلى أحد قواده بالنهوض إلى شيزر واحتلالها ، فحقق القائد رغبة مولاه الذي زارها بعد ذلك وجدّد تحصيناتها ، وولى عليها أخاه في الرضاة مجد الدين أبا بكر بن الداية ، وكان فشل الصليبيين أمام شيزر أكبر ما استفاده نور الدين ، إذ ضم الإمارة الإسلامية الباقية بالشام إلى ملكه ، بعد أن أعيد ذلك عماد الدين بحد السيف^(١) .

أراد الصليبيون الاستعاضة عن ردهم عن شيزر باستلاب حصن حارم من يد عدوهم نور الدين ، وأخذوا في مضايقة الحامية المقيمة به وملكوه

(١) يورد ابن الأثير في السكامل ، ج ١١ ص ٩٨ ، ٩٩ قصة امتلاك نور الدين لشيزر ، وفيها يشير إلى أن نور الدين بلغه أن القائمين عليها يرسلون الصليبيين ، فأثار ذلك العمل حنقه عليهم ولكنه كظم غيظه حتى تمهدت له الأسباب ، من جراء الزلازل التي حربت كثيراً من أرباضها .

بالسيف^(١)، وكان امتلاكهم الحصن دافعا لإياهم إلى شن الغارات على الأعمال الشامية، إذ أصبح لهم — بامتلاكهم حارم — حق التسلط على الإقليم الواقع شرقي نهر العاص .

اضطر بلدوين أن يعود على جناح السرعة إلى بيت المقدس ، نظراً لموت البطريرك فوشيه ، وخاف من تدخل أمه الملكة ، وماكاد يفرغ من اختيار البطريرك الجديد حتى عاد لمضايقة نور الدين في أملاكه ، مغتتما فرصة معاودة المرض لنور الدين^(٢) ، وأخذ في تجهيز سرية أغار بها على «داريا» وإقليم «بلان»^(٣) ، وشرع الصليبيون في النهب والسلب والأسر .

ما لبث نور الدين أن خرج بنفسه — بعد معافاته — إلى ناحية جسر الخشب فلقية أسد الدين شيركوه قافلاً من غزوته لصيدا .

التقى الملك العادل وهو في عسكره ومعداته ، بقائده أسد الدين ، وعورلاً على التوغل في أرض الصليبيين ، وفعلوا وطأها نور الدين^(٤) ، فنهض إليه بلدوين وتير الإلزامي ، ورأى عاهلاً المسيحية والاسلام في الشام أن الخير لهما في المهادنة ، فلا يظأ أحدهما أرض الآخر ، وتمت بذلك المهادنة .

(١) ابن القلائسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٥٠ ، Gibb: Damascus Chronicle, p.344 حيث يشير إلى أن هذا الامتلاك وقع في أوائل المحرم ٥٥٣هـ أما ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٢٧ — ١٢٨ فيجعلها تحت سنة ٥٥٨ هـ ، وهو خطأ واضح يدحضه تطور الحوادث وعودة بلدوين وزوج أخته إلى بيت المقدس للاشتراك في انتخاب البطريرك الكاثوليكي الجديد . أنظر الأتابكة ، ص ١٩٤ ، G.T., p. 852-854

(٢) ابن القلائسي ، شرحه ، ص ٣٥١ .

(٣) تحديد هذا المكان وارد بالاسم في Gibb : op. cit.; p.345, note 1 أما ابن القلائسي فلم يسمه بغير « الإقليم »

(٤) ابن القلائسي ، شرحه ص ٣٥٢ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٩٩ — ١٠٠ Dussaud : Topographie Historique, p. 82. حيث يذكر اسم المكان الذي التقوا عنده وهو « البطحاء » .

من هذا نرى أن نور الدين كان في جهاد دائم ضد الصليبيين ، القصد منه استزاحهم من معاقلهم التي على حدوده ، أو إضعاف قوتهم ، حتى لا يكونوا خطراً يهدد أطرافه ، ولكنه لم يسع للقضاء التام عليهم ، خوفاً من أن يؤلب ذلك أوربة والإمبراطورية البيزنطية عليه . أما علاقاته بالدولة البيزنطية فلم يحاول الالتحام الجدى بها ، سياسةً منه ، حتى يأمن خطرهما على حدوده الشمالية .

الفصل الرابع

التنازع على مصر

بين السلطان نور الدين والملك أمورى

التنازع بين شاور وضرغام . المحاولات الصليبية لفتح مصر . حملة أمورى ١١٦٣ . استنجد شاور بنور الدين وضرغام بأمورى . رجوع شاور في شروطه وتحالفه مع أمورى . حملة أمورى الثانية ١١٦٤ . الحملة النورية ١١٦٧ . حملة أمورى ١١٦٧ . وفشلها . الاتفاق بين رسل أمورى وبين العاضد . وقعة البابين ١١٦٧ تنازع الجانبين على الإسكندرية . تسليم شاور بمطالب أمورى . صليبيو مصر يحرضون أمورى على فتحها . زواج أمورى بينت أخى مانويل كومنين . التفكير في حملة بيزنطية صليبية على مصر . أفراد أمورى بالزحف . تخوف شاور من حملة أمورى ١١٦٨ . وقعة بليس . حرق القسطنطينية . حملة شيركوه واحتلالها مصر . مكيدة شاور ضد شيركوه . مقتل شاور . استوزار شيركوه للعاضد . موت شيركوه وتولى صلاح الدين . استعانة أمورى بالإمبراطورية البيزنطية . حصار دمياط ١١٦٩ . اضطراب أمور الصليبيين . أمورى يحاول إثارة المصريين ضد البيزنطيين . الهدنة مع المصريين . إغارة صلاح الدين بأمر نور الدين على أملاك الصليبيين . العودة للاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية . رحلة أمورى إلى بيزنطة . الخاتمة .

تحوّل النضال بين نور الدين والصليبيين من بعد سنة ١١٦١م^(١) إلى تنافس على مصر لأسباب معظمها خارج عن إرادة الطرفين، ذلك أن الدولة الفاطمية بدت في أواسط القرن الثاني عشر في دور الاحتضار^(٢) . ومن

(١) ذلك أنه في هذه السنة اغتتم بلدوين الثالث — كما يقرر اثنان من كبار مؤرخي الصليبيين — فرصة دور الضعف الذى تمر به الخلافة الفاطمية ، واستطاع أن ينال وعداً، قطعت به مصر على نفسها قطيعة قدرها مائة وستون ألف دينار ، راجع Michel Le Syrien: Chroniques, t. III, p 317 ; G.T.p. 890 — 892

(٢) كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، ص ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٦ : ٩٣ ، حافل =

علامات الاحتضار أن وزراءها أصبحوا من دون الخلفاء الفاطميين أصحاب السلطة الحقيقية، بل أولياء الكلمة العليا النافذة في اختيار الخلفاء، ومن أولئك شاور الذي صارت إليه الوزارة على غرار ما صارت إلى أسلافه من وزراء الدولة الفاطمية في عهدها الأخير، وكان الخليفة وقتذاك العاضد، وعمره لا يتجاوز التاسعة، فطمع شاور في الاستبداد بالحكم وبالخليفة معا، ولذلك خرج عليه القائد ضرغام بن عامر وإلى الصعيد، معتمداً على بغض أهل القاهرة للوزير المستبد، وتمكن بمعاوئتهم من التغلب عليه، وحمله على مشاركته في الحكم بالبلاد. إلا أن ضرغاماً سرعان ما استبد بالأمور هو الآخر، وسار سيرة حمقاء، فكانت مصر تسير كل يوم من سيئ إلى أسوأ، وقد جهل أولئك المغامرون مقدار الخطر الذي تعرضت له مصر والدولة الفاطمية بسبب تلك الفتن والقلقل، مما أطمع فيها كلا من أموري ونور الدين.

لم يكن أموري جديد الاتصال بمصر، فقد تولى زمن أخيه بلدوين الثالث حكم عسقلان، واتجهت همته منذ ذلك الحين إلى التوسع في الجنوب، فلما آلت إليه مملكة بيت المقدس سنة ١١٦٢، وحمل اللواء بعد بلدوين الثالث رأى تحقيق سياسته بفتح مصر. على أن أموري لم يكن في تفكيره في الحملة على مصر بالناهج نهجاً جديداً، بل كان يسير وفق خطة صليبية قديمة^(١)، من دلائها دأب الصليبيين على فتح البلاد الجنوبية، التي كان آخرها

== بالصور القلمية العجيبة عن مدى التدهور الاجتماعي والحالي الذي نكبت به الدولة الفاطمية في ختام أيامها؛ وقد ساءم أسامة نفسه في كثير من حوادث تلك الحقبة، أنظر أيضاً الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ٦٣، ٨٣، والنجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣٦٤ : Derenbourg La Vie d'Ousama, t. II, P. 241 — 245 ; G. T., P. 833

(١) لعل أول محاولة صليبية لاحتلال مصر هي التي قام بها بلدوين الأول، وقد مهد لذلك باحتلال أرسوف، وكانت تابعة لمصر، بمساعدة جماعة من الجنوئين البحرين سنة ١١١٠ م. (٩٤ هـ) راجع : Heyd : Hist. du Commerce, t. I, P. 136. p. كما فاضى على صور، فلما ==

عسقلان . وقد أعد أموري العدة لغزو مصر سنة ١١٦٣ م ، متذرعاً بأن الدولة الفاطمية قد منعت عن مملكة بيت المقدس جزية كانت قد قطعتها على نفسها لبلدوين الثالث منذ سنة ١١٦١ ، وقدرها مائة وستون ألف دينار سورية ^(١) . مع أنه ليس يوجد بالمراجع ما ينبئ بدفع تلك الجزية ، بل إن سكوت الكتاب جميعهم — إلا القليل — عن الإشارة إليها مما يؤدي أنها لم تكن سوى مال تعهد به أحد وزراء الدولة الفاطمية للملك بلدوين الثالث لأمر لا يزال غامضاً ، إلا أن أموري أصر على طلب تلك « الجزية » رغم وفاة بلدوين . وأعلن أن حملته ليست إلا لإرغام مصر على العودة إلى دفعها ، وكان يعلم تمام العلم أن ضعف البلد وتنافس أربابه على السلطة لا يلبث أن يؤدي إلى تحقيق مطالبه كاملة . وكيف كان الأمر فقد خرج أموري بجيشه أول سبتمبر ١١٦٣ ، والتقى بالجيش الفاطمي بقيادة ضرغام ، فهزمه عند أطراف مديرية الشرقية الحالية ، ثم تابع سيره إلى بليديس فحاصرها ، ولم يرتد عنها إلا لفيفضان النيل ^(٢) . ثم كتب أموري إلى لويس السابع ملك فرنسا يذكر له مبلغ تقدم الجيش الصليبي في مصر ، ويطلب منه النجدة لإتمام فتحها لخدمة المصالح الصليبية ^(٣) .

== كانت سنة ١١١٦ نهض بلدوين بحملة بلغ بها « آيالة » على البحر الأحمر ، ففر أهلها عنها مذعورين ، وعمل الصليبيون على تحصين جزيرة فرعون المعروفة « بقرية » ، يريدون من وراء ذلك السيطرة على طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام . وفي مارس ١١١٨ فاجأ بلدوين الفرما وأصاب منها غنيمة وافرة ، ثم واصل الزحف إلى العريش ففتح البلاد المصرية . راجع في ذلك النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، والكامل لابن الأثير (طبعة أوربة) ص ٤٣١٤ .
G.T., p. 499 — 507 ; Albert d'Aix, p. 783 — 705 ; Stevenson : Crusaders in the East, p. 66 ; Chabot, p. 496 ; Lane — Poole : Hisi. of Egypt in the Middle Ages, p. 41.

Schlumberger : Les Compagnes du Roi Amaury en Egypte, P 38, notes (١)

1 et 26 ويظهر من كلام Stevenson : Op. Cit., P. 186 شك في وجود تلك الضريبة

(٢) Schlumberger : Op. Cit., P. 48 ; Lane-Poole : Saladin, p. 81.

(٣) Schlumberger . Op. Cit. P. 41 — 42.

لم تتم عين نور الدين عن ذلك كله ، بل إنه انتهز فرصة مغامرة أموري وأراد إفساد تلك المغامرة ، فأغار على حصن حارم ، وأموري لا يزال بمصر ، ثم ما لبث أن انكشف عنه صلحا^(١) ، ثم عاد فهاجم حصن الأكراد^(٢) ، ولم يقبل موادة الصليبيين ، وذلك أنه خشي إن تمت الموادة أن يرى الصليبيون كل شيء أمامهم ميسرا لفتح مصر ، فألى أن يجعلهم في خوف مقيم منه ، فلا يقدمون على مشروعتهم الخطير ، وليجعل لمصر — من ناحية أخرى — أملا في الاستعانة به أن حزبا الأمر . وكان نور الدين هنا يقصد أن ينتفع من انصراف الصليبيين عنه بمصر ، ليكمل هو بعض خطته بالشام .

ثم ما لبثت الأمور أن تعقدت بمصر من جراء النزاع بين الوزير شاور وبين القائد ضرغام ، فهرب شاور إلى دمشق في أكتوبر سنة ١١٦٣ م^(٣) (ذو القعدة ٥٥٨ هـ) ، وتوسل إلى نور الدين أن ينفذ حملة إلى مصر عساها ترده إلى ما كان فيه ، وطبيعي أن يرحب سلطان دمشق بتلك الفرصة للتدخل في شئون مصر كمنقذ للإسلام والمسلمين من الخطر الصليبي ، بعد أن وضحت له أغراض أموري . ولقد تعهد شاور لنور الدين مقابل مساعدته بثلاث دخل بيت المال الفاطمي سنويا ، بعد دفع رواتب الجند وأن يكون للوالى نور الدين حقه في مصر^(٤) ، بل ذهب شاور أبعد من ذلك حين تعهد بأن يحكم البلد وفق أوامر سلطان دمشق ، ولم تكن هذه أول مرة تستصرخ فيها

(١) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٠٧ ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ،

Van Berchem : Voyage en Syrie, P. 233.

Chalandon : Comnènes, t. II, p. 525, note 2; Rey : Colonies Françes (٢)

en Syrie, p. 363; Stevenson : op. cit. p. 188— 189; Huart : Hist. des Arabes, p. 28. والروستين لأبي شامة ، ج ١ ص ١٣٣ ، ١٦٧ ، ومن الطبعة الأوربية ، ص

١٢٥ ، ١٠٩

(٣) Stevenson : op. cit. p. 186, notes 1 et 2 وفييت في الدائرة ، مادة "Shawar"

(٤) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٣ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢١٥ — ٢١٦ ، وكذب

الروستين ، ص ١٠٧ .

مصر بنور الدين ، فقد سبق لها ذلك حين أنفذ ابن السلار الأمير أسامة ابن هنقذ في سفارة إليه ^(١) .

غير أن نور الدين تظاهر بعدم المبالاة ، وتمهل في قبول الشروط حتى يتدبر الموقف . ولعله فعل ذلك حتى يزن الأمور ، ويرى مقدار قوة خصمه في مصر ، أما أنه كان عازفا عن التدخل فقول مردود لا يميزه منطق الحوادث وتتابع الأحداث ^(٢) ، والعهد غير بعيد بموقف صديقه أسامة في محاولته التضريب بين الوزير عباس الصنهاجى والخليفة الفاطمى ، ومحاولاته إثارة العباس بكلمات جارحة ينال بها من شرفه ، وإنما كان نور الدين رجلا سياسيا ، لا يحب أن يظهر أمام الملأ بالطامع في مصر ، الراغب في امتلاكها ، أو المتطلع لإطاحة الخلافة الشيعية ، ولقد أشار البعض ^(٣) إلى هذا التردد عند نور الدين من أنه « كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تارة يحمله رعاية قصد شاوور وطلب الزيادة في الملك والتقوى على الإفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق ، وكون الأفرنج فيه إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر ، كذلك يزعم مؤرخوه أنه استخار القرآن واستفتحه فتأهب للفتح ، فأنفذ مع شاوور حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، الذى كان يعمل دائما على إغراء مولاة على فتحها ، ولعله هو الآخر كان يرى لأن تكون مصر من نصيبه ، فيستعمله نور الدين واليا عليها .

أدرك ضرغام ألا قبل له بدفع جيش دمشق الناهض مع عدوه شاوور في إبريل ١١٦٤ ، وأدرك إلى جانب ذلك أن انتصار خصمه معناه زحزحته عما ييده ، وربما أدى ذلك إلى هلكه وهلك من حوله ، والحوطة على أملاكهم ، لذلك كاتب أمورى لعله بشدة تلهفه هو الآخر لفتح مصر ، ووعد به بدفع

(١) الدكتور حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر ، ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٢) راجع الاعتبار ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٣) أبو شامة : كتاب الروضتين ص ١٠٧ . Stevenson: Crusaders in the East, p. 187.

جزية سنوية . فبادر ملك بيت المقدس وأعدَّ جيشاً لمساعدة ضرغام^(١) ، غير أن نجدة إياه جاءت متأخرة ، إذ كان الجيش النورى قد جاوز الصحراء ، وهزم الجيش الفاطمى بقيادة نصر الدين أخى ضرغام فى تل بسطة قرب الرقازيق الحالية فى مايو سنة ١١٦٤ ، كما حاول ضرغام نفسه الفرار ، فمات مقتولاً عند مشهد السيدة نفيسة ، بعد أن حاول إثارة القاهرة إلى مقاومة أخيرة ضد شيركوه ، وبذلك خلا الجو لشاور ، ولم تقم حملة أمورى بشىء ما ، بل عدت تلك السنة نقطة انتقال فى التاريخ ، لأنها السنة التى اتخذت فيها أول خطوة لتوحيد مصر وبلاد الشام^(٢) .

لكن الجو خلا لشاور ليعاود صراعاً جديداً مع نائب سيده الجديد ، إذ أراد الرجوع فى عهده لنور الدين ، وأبى أن يدفع لعسكر دمشق القطيعة المتفق عليها ، وطلب إلى القائد شيركوه العودة إلى الشام ، وهدده بماسيكون من أمره إذا أصر على البقاء ، وذلك بعد أن اطمأن إلى عدم وجود منافس له — كضرغام — قد ينضم إلى شيركوه ضده ، كما حشد المتظاهرين يهتفون له بشوارع القاهرة^(٣) . غير أن شيركوه لم يكن من أولئك الذين ينزلون عما يصلون إليه لمجرد التهديد ، بل كان لديه كل ما يغريه بالبقاء فى مصر « حلوبة بيت المال^(٤) » على قول أبى شامة ، بل يذهب أبو شامة إلى أبعد من ذلك فيقول إن شيركوه صار فى قلبه الداء الدوى من مصر والدولة الفاطمية ، أى أنه طمع فى احتلالها ، وفى إزالة حكم الفاطميين عنها ، واستخلاصها منهم .

G.T., p. 892. (١)

Stevenson : op. cit. p. 186. (٢)

(٣) كان من الهفافات التى نادى بها المتظاهرون قول الشاعر فيه :

ضجر الحديد من الحديد وشاور فى نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان لآتين بئله حثت يمينك يا زمان فكفر

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

لذلك عسكر شيركوه في بلبس وأقام نفسه حاكماً للشرقية، فلما^(١) رأى شاور الإصرار من ناحية قائد العسكر النورى، وأنه لا قبل له بدفعه عما اعتزمه، لم يجد بداً من أن يطرق بدوره باب أمورى، واعدأ إياه بأكثر مما وعده به ضرغام من قبل^(٢). وعقد أمورى مؤتمراً ببیت المقدس جمع وجوه الصليبيين^(٣)، وقرر المؤتمر أن يستجيب ملك بيت المقدس لدعوة شاور لا للمال فحسب، ولا لاثراء مصر الفاحش^(٤)، بل كي لا تقع مصر فريسة في يدى نور الدين، فتطبق جيوشه على الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب، واستولى هذا الخاطر على أمورى، فلم يعبأ بمسير سلطان دمشق لأطراف مملكته في تلك السنة « لعله أن الخطر في مقامه إذا ملك أسد الدين مصر^(٥) » وخرج أمورى بجيش كثيف صوب مصر في مايو ١١٦٤، وانضم إليه فريق من الحجاج الأوربيين القادمين لزيارة بيت المقدس، فكانت هذه حملة صليبية، وإن لم تحمل في تاريخ مشلاتها رقماً عددياً.

غير أن أمورى لم يشأ أن يتناول أجره مؤخرآ، فأخذ يتسلم من شاور في كل مرحلة يقطعها ألف دينار، فبلغ ما تسلمه سبعة وعشرين ألفاً^(٦) حين أصبح على مقربة من « فقوس »، أى فاقوس الحالية بمديرية الشرقية، وأخذ شيركوه يحصن معسكره في بلبس استعداداً لمقاومة ذلك الخطر الدانى منه يوماً بعد يوم، وساعده عرب كنانة النازلون في تلك الناحية^(٧).

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٣٤، والأتابكة، ص ٢١٦ — ٢١٧، وراجع ما كتبه فيبت في الدائرة، مادة "Al — Sharkiya".

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٣٤، G.T., p. 948.

Ibid. loc. cit. (٣)

(٤) Heyd : Hist. de Commerce du Levant, t. I, p. 378 — 379.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ١١ ص ١٣٤، وأبو شامة، ص ١٢٥.

(٦) كتاب الروضتين ٤ ص ١٢٥، وانظر تفاصيل هذه الحملة وأخبار سيرها في

Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 63 — 80.

(٧) الدائرة، مادة « كنانة ».

مساندة كبيرة بالمال والسلاح . أما شاور فقد مضى لمقابلة حليفه الصليبي لتنسيق الخطط معاً ضد شيركوه ، وما لبث شيركوه أن وجد نفسه محوطةً ببلييس ، غير أنه قاوم مقاومة عنيفة على الرغم من ضعف استعداداته ، وقلة تحصينات بلييس ، بالنسبة لما كان عليه أعداؤه من قوة المثونة ، وكثرة العدد ، وقوة التحصين . وهنا داخل اليأس نفس أمورى بعد أن امتدت مقاومة شيركوه إلى ثلاثة أشهر (من أغسطس إلى أكتوبر ١١٦٤) ، لا سيما أنه قد تراءى إلى سمعه أيضاً أن نور الدين هاجم بانياس ، وانتصر على قلعتها^(١) . وكيفما كان الأمر فقد عزم أمورى على العودة إلى فلسطين ، إلا أن شاوراً التمس منه البقاء ، وكاتب في الوقت ذاته شيركوه يطلب إليه الصلح ، بما يدل على تقلبه ، فلم يجد أمورى بداً في النهاية من الاتفاق مع شيركوه ، على أن يغادر كل منهما أرض مصر ويتركها للبصريين ، فغادرها شيركوه ، وتبعه أمورى في أكتوبر ١١٦٤^(٢) .

هنا تبدو ناحية تميظ اللثام عن الفرقة السائدة في رأى بين الخليفة الفاطمي وبين وزيره شاور ، الذى لاشك أنه قد فرض نفسه على الحياة المصرية فرضاً ، حتى لقد نظم عمارة اليمنى — شاعر القصر الفاطمي وصاحب المدائح الكثر في شاور^(٣) — شعراً يمدح فيه أسد الدين شيركوه بعد مغادرته مصر ، واصفاً فيه بطولة الجيش النورى^(٤) . وعلى أية حال فمن الممكن أن يعد خروج الصليبيين والجيش النورى من مصر نصراً لشاور

(١) كتاب الروضتين ، ص ١٦٧ .

(٢) Lane — Poole : Saladin , p. 81 .

(٣) Derenbourg : Oumara de Yemen , t. II , Part 2 , p. 424 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣٥ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين ،

ج ١ ، ص ١٥٨ ، ومما قاله فيه :

أخذتم على الأفرنج كل ثنية
وقلم لأبدي الخيل مرى على مرى
لئن نصبوا في البر جسراً فإنكم
عبرتم بحر من حديد على الجسر

ولسكنه نصر موقوت ، ولو كان هذا الوزير رجلا بعيد النظر لأدرك أن كلا منهما اضطر إلى تلك المغادرة اضطراراً ، ولا عجب إذا أخذ كلاهما يلتمس الأسباب للرجوع إلى مصر . أما نور الدين فقد رأى أن يجعل من حربه على مصر جهاداً دينياً ، فهو بفتحه إياها — كما يزعم — إنما يحارب عدوين للإسلام ، أحدهما الخلافة الفاطمية وثانيهما الصليبيون ، وبذلك ينقذ الإسلام وهذا البلد — كما يدعى — من الفوضى السياسية وغيرها . كما يلاحظ أن الخليفة العباسي بعث إليه من قبل عهداً بالسلطنة ، وأمره بالمسير إلى مصر^(١) . ولذا يرمي نور الدين وجهه نحو بغداد ، وبعث إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يأذن له بإخراج جنده لقهر جيوش الدولة الفاطمية . ومن العجيب ألا يذكر ابن الأثير — وهو السني المتعصب لنور الدين — خبر هذه الوفادة إنما يشير فقط إلى وصول جواب الخليفة بالتهوؤ بالحملة ، ولكنها وردت بالتفصيل عند وليم الصوري^(٢) ، وليس من المستبعد وقوع هذه السفارة^(٣) ، لاسيما إذا علمنا أنه كان على رأسها أسد الدين شيركوه ، خصوصاً وأن ابن الأثير وأبا شامة يشيران إلى حرصه على قصدها وكثرة تحذره عنها بعد عودته منها ، بل إن ابن الأثير نفسه يشير إلى أن نور الدين كان كارها لهذا المسير ، ولم يوافق على خطته إلا بعد لاي وخوف من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام ، وإذن فليس من المستبعد أن يكون أسد الدين قد سافر إلى بغداد ، حتى يضع مولاه نور الدين أمام الأمر الواقع ، زد على هذا أنه كان يعرف من أين تؤكل الكتف ، فلا عجب أن ينهض نور الدين للحرب إن سميت جهاداً .

لذا خرجت الحملة النورية الثانية على مصر في مستهل عام ١١٦٧ ، وحاولت

(١) أنظر الكامل (طبعة أوربة) ص ٥٥٧ .

(٢) G.T., P. 902 — 903 .

(٣) G.T., p. 908 ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٤) أبو شامة : الروشتين ، ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ .

تجنب عبور بلاد الصليبيين ، فوصلت — وهى فى ألقى فارس بقيادة شيركوه — صحراء التيه ، متحملة شدة العواصف الرملية التى أرغمت الجند مراراً على إغماض أعينهم وسد أفواههم^(١) . ثم وصل شيركوه مصر ، وتقدم حتى صار على مقربة من العاصمة ، لكنه أحجم عن مهاجمتها ، بل عسكر عند أطفيج جنوبيها ، ومن هناك عبر النيل ، وعسكر فى الجيزة مقابل الفسطاط^(٢) .

لم يكد شاوور يعلم بخبر الحملة النورية الثانية وزحفها نحو مصر حتى أرسل إلى أمورى يستحثه على القدوم لنجدته ، فما كان من أمورى إلا أن عقد مجلساً فى نابلس^(٣) ، حضره أشراف الصليبيين فى الشام ومقدموهم ، وعرض عليهم ما يهدد إماراتهم من الخطر الجسيم إن وقعت مصر فى يدى الجيش النورى ، ولم يكونوا فى حاجة لمن يذكرهم بهذا الخطر الدائم ، فوافقوه على النهوض للحرب^(٤) ، لعله يلقى شركوه قبل أن يبلغ الحدود المصرية . وغادر أمورى فلسطين على رأس جيش كبير فى إثر الجيش النورى ، وفى أمله أن يلحقه فى بعض الطريق ، لكن خاب ما أمل ، إذ كان شيركوه قد غادر صحراء التيه ، فاضطر أمورى للعودة إلى بيت المقدس أيتأهب من جديد لحماته الكبرى على مصر . ثم أخذ أمورى يُسعد فى عسقلان كل ماتحتاجه الحملة على مصر ، فلما كان يوم ٣٠ يناير سنة ١١٦٧ م ، خرجت الحملة من غزة إلى العريش ، ودخلت أرض مصر وأدركت بلبليس ، فقويت نفس شاوور بالصليبيين الذين جاءوه على الصعب والذلول ، غير ناظر إلى ما سترتب على ذلك القدوم من ثمن غال ، قد يكلفه استقلال مصر ، وهو ما لا يهتم به أبداً ، ما دام فى ذلك احتفاظه بكرسى الوزارة ،

(١) G.T., p. 910 ، ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الأتابكة ، ص ٢٣٦ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، Les ، Schlumberger : G.T., p. 904 .

Campagnes du roi Amaury p. 104, note 2 .

G.T., p 904 . (٤)

وأظهار سيطرته وتحكمه ، وإرضاء شهوة العظمة الجوفاء في نفسه الفارغة ، وسر شارو بهذه النجدة ، وخرج لاستقبال الصليبيين ، ودلّهم على الطريق إلى القاهرة ، حيث عسكروا على شاطئ النيل الأيمن قبالة شيركوه ، وهكذا وقف الطامعان الأجنيان وجهاً لوجه ، وكل منهما على مرأى البصر من عدوه ، لا يفصلهما سوى الماء .

غير أن كلا من أموري وشاور كان يشك في نوايا صاحبه حياله ويخشى أن يغدر به ، فطلب أموري أن يتعهد شاور بدفع أربعمائة ألف دينار ، ثمنا لجيشه لإخراج شيركوه من مصر ، وأصرّ على أخذ نصف هذا المبلغ مقدما ، فقبل شاور هذا الطلب على شرط ألا يغادر أموري مصر قبل إتمامه إخراج شيركوه منها . واتفقوا هذه الاتفاقية أرسل أموري مندوبين من قبله إلى الخليفة الفاطمي العاضد ، وهما هيج القيصرى وجود فروى فولخر من فرسان الداوية ؛ وقد ذكر هذان المبعوثان لوليم الصورى ما شا هدها من أهبة القصر الخليفى أهبة لاتليق إلا بملوك مصر ، ولا تتوفر إلا فى قصور ملوك مصر العظام ، وما أبصرها بها من مناظر لم ير الغرب لها مثيلا وإنما علم بها سماعا^(١) . وأفضى الخليفة بالخطر الذى يهدد مصر إن تمكن الأمر لشيركوه ، وكان يرى أن خليفة بغداد قد بعثته الكراهية الشديدة للخلافة الشيعية المصرية إلى إنفاذ هذه الحملة ، ثم أقسم رجال كلا الفريقين الأيمان المغلظة على تأييد صاحبه ومعاونته^(٢) .

لم تكن للخليفة الفاطمى يد فيما تم من الاتفاق ، ولعله كان يثن من وطأة استبداد وزيره شاور وتفردّه بالأمر رغم مظاهر الاحترام التى كان يبديها شاور له أمام رسولى أمورى ، إيهاما لهما بأهمية الأمر . وعلى كل حال فقد أدرك شيركوه أن الصليبيين والفاطميين جادون هذه المرة ، وأدرك هو

G.T., p. 910 — 913. (١)

Schlumberger : op. cit. p. 116 — 127. (٢)

وكثيرون ممن معه ضعفهم إزاء الخلفين ، والدليل على ذلك أنه جمع زعماء رجاله — وقد خاف أن تهن نفوسهم عن القتال — واستعرض معهم الموقف من جميع نواحيه ، وطلب منهم الرأي ، فأجمع القوم على وجوب المبادرة بالرحيل إلى الشام^(١) . غير أنه يبدو أن شيركوه لم يجمع أولئك الزعماء إلا ليحصل منهم على موافقته على القتال ، إذ يظهر أنه دس جماعة بينهم من ذوى المكانة والصوت الجمهوري ، سفّته رأي الداعين إلى الرحيل ، « إذ من يخاف القتل والأسر لا يخدم الملوك بل يكون في بيته مع امرأته » وخوفهم من أن يسترجع نور الدين منهم إقطاعاتهم وجامكياتهم « حتى لا يأخذوا أموال المسلمين ويفرون عن عدوهم » ويعيرهم بتسليمهم مصر إلى الصليبيين^(٢) . فلبث القوم أن أجمعوا على وجوب الاستمرار في القتال ، ثم بعث شيركوه إلى شاور كتابا يعرض عليه أن يكونا يدا واحدة في مناهضة أموري والقضاء على الصليبيين^(٢) ، فرد شاور ردا لحنه الجهل ، وسداه الغلظة والفظاظة ، وأظهر منتهى الفساد في الرأي ، إذ قتل رسول شيركوه ، وأعلم الصليبيين بما يريده أسد الدين منه^(٤) .

أما أموري فإنه أقام جسرا من المراكب وجذوع النخيل على النيل

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ .

(٣) أورد أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ، من طبعة أوربة ، ج ١ ص ١٦٨ من الطبعة المصرية ، نص خطاب شيركوه وفيه يقول له « أنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أنني لا أقيم ببلاد مصر ، ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أمكن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلها عليه ، وما أوئل منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو وقد حصل بهذه البلاد والنجدة عنه بعيدة ، وخلصه عسر ، وأريد منك أن تجتمع أنا وأنت عليه . وننتهز فيه الفرصة التي قد أمكنت ، والغنيمة التي قد كثبت ، فنستأصل شأفته ، ونحمد نائرتي ، وما أظن به يعود ، ويتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً » .

(٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ١٦٨ .

ما بين الجزيرة والروضة ، ليعبر عليه هو وجنده إلى حيث شيركوه وفرسانه^(١) ، فكان أول جسر يقام بين الجزيرة والروضة ، وفهم أسد الدين ما يرمى إليه الصليبيون من عملهم هذا ، فتركهم يقيمون الجسر ، حتى إذا توسطوا النهر أخذ ينصحبهم بالنبال والسهم والقسي ، فارتد الصليبيون ، وطال بقاء الفريقين أمام بعضهما مدة شهرين ، نقصت خلالها الأقوات عند جيش شيركوه نقصاً ملحوساً .

ثم وصل إلى الصليبيين إذ ذاك مدد من بلادهم على رأسه الهنفرى صاحب شقيف تيرون ، وفيليب النابلسى ، فقويت بهما وبمن معهما عزيمه جيش أمورى ، وعند ذلك عقد ملك بيت المقدس مجلساً حريياً ، ألح فيه على المجتمعين بوجوب عبور النيل ، إذ لا معنى لطول بقائهم حيث هم ، فى الوقت الذى لا يبعد أن يغتتمه نور الدين للعيث فى أطراف الإمارات اللاتينية^(٢) ، فأيد المؤتمرون الفكرة من حيث المبدأ ، ولكنهم اختلفوا من حيث الجهة التى يعبرون النيل عندها . ثم لم يكد الصليبيون يتوسطون النهر ليلاً^(٣) حتى هبت عاصفة هوجاء أرغمتهم على الالتجاء إلى إحدى الجزر^(٤) ، ولعلها جزيرة «الوراق» الواقعة جنوبى كوبرى عباس الحالى . أما شيركوه فما كاد يعلم بتلك الحركة حتى رحل بجنده تحت جناح الظلام من القسطنطينية ، صاعداً فى النيل إلى الصعيد ، وكان المدد قد جاءه هو الآخر من عند نور الدين .

ولقد أغذ شيركوه السير بجيشه جنوباً حتى بلغ ملوى ، حيث أدركه

(١) G.T., p. 918 — 919.

(٢) Ibid., loc. cit. وأبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ .

(٣) كانت القيادة فى هذا الجمع البحرى لهيج الإبلينى والسكامل بن شاور ، ولقد كان المنجالتان يتقاسمان القيادة دائماً فى كل شىء ، من ذلك أنهم حينما دخلوا القاهرة بعد رحيل شيركوه عنها إلى الوجه القبلى ، وكلت حراسة أبوابها وأسوارها وحصونها إلى جيراندى بوجى .

وأحد أبناء شاور ، راجع C. T., p. 920

(٤) Ibid., op. cit. loc. cit.

مورى وشاور بفريق كبير من الصليبيين والفاطمين ، وما كان شاور في الحقيقة إلا كلاً على حليفه ملك بيت المقدس . وجرى المصاف بين الفريقين عند «البابين»^(١) يوم ١٨ أبريل ١١٦٧ م^(٢) ، وكان القوم في الصعيد ينظرون إلى أسد الدين بعين الخذر . ومع علم شيركوه باستيحاش المصريين منه ، إلا أنه أصر على مقاتلة الجيوش المتحالفة . فقسم جيشه في تلك الواقعة إلى ميمنة وميسرة وقلب ، وجعل الأثقال في القلب وعليه صلاح الدين ابن أخيه ، وأمره أن لا يصدقهم في القتال ، بل يتظاهر بالانهزام حتى يغتر أمورى فيتبعه ، وأما أسد الدين فقد اختار جماعة ممن يثق بصديق عزيمةهم وصبرهم في اللقاء ووقف بهم في الميمنة ، والتحم الخصمان ، وكر الصليبيون على قلب العسكر النورى ، وصلاح الدين يتقهقر متظاهراً بالهزيمة ، حتى قام شيركوه بمهاجمة من تخلف من عسكر الصليبيين وشاور ، وأسر العدو الجهم ، ففر الباقون على وجوههم ، فكان هذا من «عجب ما يؤرخ ، أن ألقي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل»^(٣) .

ويذكر ولیم الصورى أسباب هزيمة الصليبيين عند البابين ، فيرى أن أمورى حمل على قلب الجيش النورى اعتقاداً منه بوجود شيركوه فيه ، وإذا ذلك حملت ميمنة شيركوه على ميسرة المتحالفين ، فأصابته بما يتفق في تفاصيله مع الرواية الإسلامية ، وأصابته غنيمة كبيرة لم تجد في الاستيلاء عليها

(١) Derenbourg : op. cit., p. 311, note 6

(٢) التاريخ العربى مختلف فى المراجع العربية ، راجع السكامل لابن الأثير ، ج ١١ ، ص ١٤٥ ، والأتابكة ، ص ١٣٧ ، الذهبى : تاريخ الإسلام ، ص ٢٣٧ وأنظر أيضاً

Schlumberger : op. cit. p. 136, note 3 d'après Rohricht ; G.T., p. 921.

(٣) ابن الأثير ، السكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ ، أتابكة الموصل ، ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ ، وحاشية رقم ١ فى نفس الصفحة ، الذهبى ، ص ٢٣٦ ، درر التيجان ، ص ٣٦٧ ، والدكتور حسن إبراهيم ، الفاطميون فى مصر ، ص ٣٠٤ ، Schlumberger : Les C. T., p. 926 — 927.

Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 142 — 143.

أدنى مقاومة ، بعد أن قضت على الكثيرين قتلا وأسرا ، ولم ينج إلا أموري ، فكانت نجاته إحدى المعجزات ^(١) .

ثم رحل شيركوه إلى الإسكندرية عقب هزيمة الصليبيين في موقعة البابين ، ويرى البعض أنه لو ساق خلفهم صوب القاهرة لملكها منهم ^(٢) ، والظاهر أن أهل الإسكندرية أنفوا من شاور واستعانت به بأعداء دينهم ووطنهم ، فسكاتبوا أسد الدين ، وبعثوا إليه برسالة حملها إليه رجل اسمه الإدريسي ^(٣) يخبرونه فيها « أن السلاح واصل » ، ثم وصلت بعد ذلك بيومين « خزانة من السلاح » ، وأخذ شيركوه في مناوشة الصليبيين ومناهضتهم وإزعاجهم ، وجرت بينه وبينهم وقائع كاد أموري في إحداها أن يذهب ضحية الأسر . ولم يدر بخلد الصليبيين وشاور أن شيركوه سيقصد الإسكندرية ، بل كانا بالقاهرة ينتظران مقدمه لمبادرته بالقتال ، على حين كان هو إذ ذاك يحاصر الإسكندرية . ومن المبالغة أن نسمي وقوف شيركوه أمامهما حصاراً لها ، إذ كان أهلها أكره الناس لمصافة الصليبيين ، وقد نعموا على شاور محالفته إياهم ، بل لقد أخذ ابن مصال يستحث شيركوه على سرعة النهوض إليها ، فسهل عليه تملكها . ثم أناب شيركوه عنه ابن أخيه صلاح الدين بالإسكندرية ، ورجع هو إلى الصعيد

C. T. , p. 928 (١)

(٢) يفسر ذهاب شيركوه رأساً إلى الإسكندرية بأن أموري عاد إلى المنيا حيث وجد جبراردى يوجى على رأس خمسمائة فارس مستعدين للجيلولة دون مسير شيركوه وجنده . أما المشاة فكانوا بقيادة جوسلين الثالث . وقد عاد أموري بقواته إلى القاهرة ، وعسكر عند القسطنطينية التى ازداد عدده بما جاءه من الإمدادات الوفيرة ، وبجيش شاور الذى لم يساهم مساهمة جدية ، تؤدى به أو بالكثير منه إلى القتل أو الأسر ، هذا إلى ما ترامى إلى سمع الفريقين من أن نجدات صليبية وفيرة غادرت فلسطين بقيادة كثير من الأشراف أو المقدمين لمساعدة أموري فى استخلاص مصر ، وهذا الخبر — على علته — كفيل بتقوية نفوس الصليبيين ، لذلك انصرف أسد الدين شيركوه عن القاهرة ، راجع أباشامة ، كتاب الروضتين ، ص ١٣٠ — ١٣٢ ، G. T. p. 227 — 229 ، والدائرة مادة « أشمونين » ، Ashmunain ، والكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٦ ، والنجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٩ .

(٣) أبو شامة ، شرحه ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

حيث مضى إلى قوص لجمع الجزية . وعند ذلك قرر الصليبيون وشاور
محاصرة الثغر برا وبحرا^(١) وترتيب جماعة^(٢) وفي بضعة سفن لمنع وصول
الأطعمة إلى المدينة ، أما من ناحية البر فقد أجمعوا أمرهم على أن يخرج
أمورى بعساكره فيعسكر فيما بين تروجة ودمهور . وتحرك أمورى فعلا ليضرب
خيامه في تلك الجهات ، كما حوصرت الإسكندرية برآ وبحرا^(٣) ، وآتت خطتهم
أكملها ، فما انقضى شهر على هذا الحصار حتى أحس الإسكندريون بوطأته ،
إذ قلت الأقوات وأشرفت المدينة على المجاعة ، وضاعف أمورى حصاره
ليضعف الروح المعنوية ، وليصرف أهل البلد عن نصرة صلاح الدين ، ونجحت
الحيلة ، وتحرك الإسكندريون بما أزعج خاطر صلاح الدين ، فكتب عمه
سرا يشرح له حرج موقفه ، لاسيما وقد أفسد شاور جماعة التركان على الصلاح^(٤) .
لذلك بادر أسد الدين بالمسير من قوص في يونيو ١١٦٧ لنجدة ابن أخيه ،
وعسكر في بركة الحبش^(٥) قاصدا من وراء ذلك إلى الاستيلاء على القسطنطينية ،
غير أن شدة عزيمة هييج الأبليني أفسدت تلك الخطة . وإذ ذاك رأى شيركوه
أن يبعث إلى الصليبيين بشروطه لوقف القتال بينه وبينهم^(٦) ، وذلك على يد
أسيره هييج القيصري ، واتفق الطرفان على تبادل الأسرى ، ورفع الحصار
الصليبي عن الإسكندرية ، ومغادرة شيركوه وأمورى لمصر . وقد رجب
أمورى بتلك الاتفاقية لأنها منعت مصر من الوقوع في يدي نور الدين ،

(١) درر النيجان ، ص ٣٦٧ .

(٢) كان ممن ساهم في هذا القتال إلى جانب أمورى جماعات من أهل ييزا بأسطولهم راجع
أسباب هذه المساهمة في Heyd : Hist. du Commerce du Levant, t. 1, p. 396.

(٣) Ibid., op. cit. loc. cit.

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ .

(٥) وكانت تقع ظاهر مدينة القسطنطينية ، ومحلها اليوم قرية «دار السلام» أو دير الطين قديما
وكذلك معظم الأراضي الزراعية التابعة لزممام البساتين . راجع في ذلك ياقوت : معجم البلدان ،
والمقرئ في الخطوط ، ج ٢ ص ١٥٦ ، وانظر أيضا تعليقات المرحوم محمد بك رمزي في النجوم
الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤ حاشية رقم ٢ ، ج ٦ ، ص ٣٨١ — ٣٨٣ .

(٦) G. T., p. 934 — 935.

ورحب بها شاور لأنه رآها فرصة تمسكنه من الاستقلال بمصر، كما رحب بها شيركوه حين أدرك ألا أمل له في الاستيلاء على مصر بسبب ضعف جيوشه^(١)، وظن المصريون أنهم تخلصوا من التنازع الذي أصابهم غرمة ولم يصبرهم غنمه، فاستخفهم الطرب حين علموا بخبر المواجهة^(٢)، ومضوا إلى معسكرات الصليبيين يرونهم معالم الاسكندرية الفاتنة، وسرعان ما غادر صلاح الدين الاسكندرية والتقى بأمورى، وأعجب كل منهما بخصمه، حتى لقد قام أمورى فأمد صلاح الدين ببضع مراكب لنقل جرحى المسلمين إلى دمشق^(٣). غير أن الأمور لم تقف عند هذا الحد، لأن قبول أمورى لمقترحات الصلح والجلء في أغسطس ١١٦٧ — رغم تحول الأمور إلى صالحه — كان منشؤه خوفاً شديداً من أعمال نور الدين في الشام في تلك الحقبة، إذ كان نور الدين قد هاجم حصن المنيطرة^(٤) من أعمال طرابلس، وأغار على حصن الأكراد وفتح حصن العريمة وصافيثا، ثم عاد إلى فلسطين فحاصر حصن هونين وهدم أسواره^(٥)، لذلك رأى أمورى أن يعود إلى بيت المقدس في سرعة ليكون على مقربة من مسرح النضال، عسى أن يهرب مقدمه نور الدين فيكف عن مضايقاته وعدوانه، ثم يعود أمورى بعد ذلك إلى مصر. والدليل على هذا أنه فضلاً عما تم من الصلح والجلء عن مصر فقد عقد أمورى مع شاور اتفاقية خاصة، تنص على بقاء شحنة صليبية بالقاهرة، وأن تكون أبواب العاصمة الفاطمية بيد الصليبيين^(٦) لتدراً جيوش

(١) الدكتور حسن إبراهيم: الفاطميون في مصر، ص ٣٠٤، الذهبي، ص ٢٣٧.

(٢) C. T., p. 937 — 938.

(٣) أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٤) الروضتين ص ١١١، الذهبي ٢٤٥، Dussaud: Topographie Hist. de la Syrie, p. 397, 73.

(٥) السكاكيل، ج ١١، ص ١٤٦، أما فيما يتعلق بالحصون وترميمها فانظر Rey: Colonies Françaises en Syrie p. 135 — 136, 368, 478.

(٦) نس ولیم الصوری على أن أبواب القاهرة كانت بيد جماعة من فرسان الصليبيين دل عليهم بالأسماء، وقال "Ilec Trouva Huan de Ibelin et ses autres gens qu'il avait en l'asslées pour garder le Cahere et le pont." G. T., p. 939.

بور الدين إن عاودت الهجوم . كما اتفق الطرفان — المصري والصليبي فوق هذا كله — على أن يكون للصليبيين مائة ألف دينار سنويا من دخل مصر^(١) . ومعنى ذلك كله أن جالية صليبية غير قليلة بقيت بمصر بعد رحيل أموري وشيركوه ، ولم تلبث تلك الجالية أن كانت أموري ليجيء إليهم برغم ما قطعه على نفسه من وعود ، واقترحت عليه أن يكتب إلى ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا وجميع أقطار أوربة المسيحية يطلب إليهم النجدة . غير أن أموري لم يرد أن يستنفر ملوك أوربا ، لعلمه بشدة طمع فرسانهم في تكوين إمارات صليبية جديدة بالشرق . لذلك آثر أموري الاستنجاد بالدولة البيزنطية ، ورأى أولا أن يخطب إلى بلاط القسطنطينية إحدى فتياته اللاتي يصلحن للترجيع على عرش مملكة بيت المقدس^(٢) ، وأنفذ إلى الإمبراطور مانويل كومنين سفارة سنة ١١٦٥ برئاسة المؤرخ الكبير وليم الصوري ، واستغرقت هذه السفارة في البحث عامين^(٣) ، انتهت بعدهما إلى اختيار الأميرة ماري ابنة أخي الإمبراطور لتكون ملكة بيت المقدس^(٤) ، ولقي أموري زوجته البيزنطية في صور ، وعقد له عليها بكنيسة البلد يوم ٢٩ أغسطس

(١) كل ما سبق بشأن الصلح منى على ما قرره وليم الصوري ، أما رواية ابن الأثير في الكامل ، ج ١١ ص ١٤٦ ، فتختلف كثيرا — لا سيما في المقدمة — عما أورده المؤرخ الصليبي ، فيذكر ابن الأثير أنه لما اشتد حصار الفرنجة لصلاح الدين سار شيركوه من قوس إليهم ، فجاءته رسالهم يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار ، سوي ما أخذه من البلاد ، غير أن الدقة التي امتاز بها وليم الصوري في إيراد حوادث هذه الفترة بالذات تجعل لروايته الصدارة على كل ما عداها ، لا سيما إذا ذكرنا تضارب روايات ابن الأثير بشأن تاريخ تلك الحملة في كتابيه الكامل ، شرحه ، والأتابكة ، ص ٢٤٠ ، ٢٤٦ .

(٢) لم تسكن هذه أول مرة يتزوج فيها أموري ، فقد سبق له أن تزوج من « آني دي كورتناي » وقد ولدت له ابنه بلدوين الرابع الذي خلفه على عرش المملكة (١١٧٤ —

١١٨٥) راجع Grousset : Hist. des Croisades, t. II, p. 504, note 5

(٣) هناك من يرى أن علة طول إقامة السفارة أثناء المفاوضات راجعة إلى أن المفاوضات على

فتح مصر كانت تجري في الوقت عينه . انظر Chalandon : Comnènes, t. II, p. 536

Chalandon : O p. Cit. Loc. Cit. (٤)

سنة ١١٦٧^(١)، وتمخض هذا الاتصال بين مانويل وأمورى عن الاتفاق على إنفاذ حملة مشتركة إلى مصر، لا لمساعدة شاور أو العاضد، بل لاحتلال البلد احتلالاً تاماً.

وقد بعث الإمبراطور مانويل — وقت وجود أمورى بصري — رسولين يحملان من قبله الاقتراح بمهاجمة مصر، وذكر ولیم الصوري^(٢) أنهما قالاً: «إن الإمبراطور رأى أن المملكة المصرية التي كانت زمنًا طويلًا قوية وغنية قد آلت أمورها إلى يد حكمة يسوسها رجال ضعاف لا يستطيعون حمل السلاح ولا المحافظة على البلد... وأن الإمبراطور صادق الرغبة في الاتفاق مع أمورى على احتلالها». وفي ذلك دلالة واضحة على أن الإمبراطور مانويل كومنين كان يريد المساهمة في مشروع الاستيلاء على مصر لخدمة المصالح البيزنطية البحتة، ولذلك أراد أن يكسب أقصى كسب بأقل غرم، فرأى أن يتخذ أمورى مخلصاً لتحقيق مظامعه، ولم يفت ذلك أمورى نفسه وهو وحيد نسجه «شجاعة ومكرا ودهاء»^(٣).

ولما كان المشروع أكبر من أن يبت فيه سريعاً فقد تطلب الأمر تبادل الآراء والشروط بين الجانبين، لذلك أرسل أمورى صديقه المؤرخ الكبير ولیم الصوري إلى الإمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى سنة ١١٦٨؛ والظاهر أن أمورى قد فرضه الاتفاق بما يرى، وأن يمضى الاتفاق نيابة عنه. وتم الاتفاق في سبتمبر ١١٦٨، وبذلك تحقق على يد ولیم الصوري أكبر مشروع خطير يمس مباشرة تاريخ مصر في العصور الوسطى في أواخر الدولة الفاطمية، وهو أن يخرج الجيشان: البيزنطي والصليبي بقيادة أمورى لفتح مصر في السنة التالية^(٤)، واتفق الطرفان على أن تكون الرئاسة للملك بيت

(١) G. T., p. 942 — 943.

(٢) G. T., p. 945 ; Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 184.

(٣) الكامل، ج ١١ ص ١٥٠، كتاب الروضتين، ص ١١٣ — ١١٤ من الطبعة الأوربية، ج ١ ص ١٥٤ (الطبعة المصرية).

(٤) G. T., p. 947.

المقدس وأنت يطيع القائد البيزنطي في كل ما يأمر به ^(١) ، وشرعت الإمبراطورية البيزنطية تستعد بجاعة من خيرة عساكرها لتساهم في الفتح ، لاسيما وأنها تعلم أن نور الدين لا بد وأن ينهض لدفعهم من مصر بكل ماله من قوة وعتاد .

غير أن الظروف جرت بما لم يدر قط بخلد ولحم الصوري أو مانويل كومنين ؛ وعملت على مساعدة نور الدين ، فقد نهض أموري بغتة بجيشه الصليبي ، وزحف على مصر تحت إلحاح من بها من جالية الصليبيين على قول المؤرخ ميخائيل الشامي وغيره من المؤرخين ^(٢) . وغير بعيد أن يكون ذلك الزحف قد تم بناء على ما ترامى إلى سمح الجالية الصليبية بمصر من الاتفاق المبرم بين الإمبراطور وأموري بشأن فتح مصر ، وخافوا — إن تم ذلك — أن يشاركهم البيزنطيون في ثروتها وخيراتها ، ولم يفت ذلك الأمر أموري ، فتظاهر بكرهية الاقدام على ذلك الفتح حتى يكون له عذره أمام مانويل كومنين . غير أن ولحم الصوري يرجع العلة الكبرى في إسراع أموري بتلك الحملة التي أفسدت المشروع وخدمت نور الدين إلى إلحاح جلبت الأسى لمقدم الفرسان الاسبتارية ، إذ دفعه طمعه في الحصول على إقطاع كبير في بلد خصب كمصر إلى إقناع أموري بالإسراع بالغزو ^(٣) ، على أن هناك من المعاذير ما يمكن أن يفسر به إسراع أموري في الزحف على مصر قبل عليه بالموادعة المكذوبة ، بأن شاوور أرى أن يحمل إلى نور الدين مالا كل سنة ^(٤) ، وأنه خطب أخت صلاح الدين ، إلا أن أمثال تلك التعللات لا تكفي لتبرير موقف أموري

G. T., p. 968. (١)

G. T., p. 947, Michel Le Syrien, Chroniques, p. 332. (٢)

ص ١٥٠ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، ٢٤٦ ، وأبو شامة ، الروستين ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

G. T., p. 948 — 949 ; Michel, t. III, p. 333 Chalandon : op. cit. t. II, p. (٣) 537 — 538.

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٤٧ ، وأتابكة ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، وأبو شامة ص ١٣٦ .

من الامبراطورية البيزنطية ورضائه وبالاتفاق معها ، وتسييرها إياه كيفما تهوى ، وإخراج الحملة على مصر في الوقت الذي يرضيها .

لكن هناك سببا آخر ألا وهو النزاع الذي شب بين نور الدين وبين شهاب الدين مالك بن علي العقيلي صاحب قلعة جعبر ، حيث انتهى الأمر باستيلاء السلطان الملك العادل على تلك القلعة^(١) ، يؤيد هذا قول الصليبيين في مصر لأمورى حين خوفهم من مجيء نور الدين أنه « حتى يجهز عسكر عدوهم يكونون هم قد ملكوا مصر ، وفرغوا من تدبير أمرها »^(٢) ، والظاهر أن تجنيد حملة على مصر أطمع كثيرا من المخاطرين الأوربيين في المساهمة فيها ، فقد حضر إلى بيت المقدس الكونت وليم الرابع مع حشد كثيف من فرسانه للقضاء على أعداء « الملة المسيحية » ، ومع أن الموت قد عاجله إلا أن الدافع له على المجيء ظل حيا في نفوس رجاله^(٣) ، لذلك كان من المعقول أن يفكر أمورى تفكيراً جدياً في الإسراع في مهاجمة مصر دون انتظار حلفائه البيزنطيين ، وهذا أقصى ما يمكن أن نبرر به موقفه حيالهم ، وانفراده بالهجوم على مصر .

وكيفما كان الأمر فقد خرج أمورى في شهر أكتوبر ١١٦٨ على رأس الحملة التي جهزها تحت تأثير بيزنطية لفتح مصر ، وأراد أن يصرف نور الدين

(١) Michel, t. III, p. 332 ، والكامل ، ج ١١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وأنابكة الموصل ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ ، والدائرة ، مادة Dija'bar ، وقد أورد ابن الأثير إلى جانب هذا قصة نزاع جرى بين نور الدين وبين قوة أرسلان ، وبدرجها تحت سنة ٥٦٠ هـ ، غير أن هناك ما يدحض وقوعها في تلك السنة مما انبه إليه المؤرخ ذاته فقال « وينبغي أن تكون هذه الحادثة قبل هذا التاريخ ٥٦٠ هـ » وأشار إشارة قد تبرز ذكره لها في تلك السنة وهي « أنه يمتثل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح بن رزيق ثم امتد إلى الآن » راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٤٢ ، وكذلك الإشارة الشديدة الإيجاز الواردة بشأن تسليم نور الدين لتلك القلعة في الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣)

وشيركوه عما عزم عليه، فأعلن بأنه يبنى مهاجمة حمص^(١)، وجازت الحيلة على سلطان دمشق، فكتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم عساكره للنهوض إلى أموري ودفعه عن مقصده. وفي ذلك الوقت بالذات كانت الحملة الصليبية برياسة ملك بيت المقدس في طريقها إلى مصر، وإن بقي خبر زحفها سرا مطوياً عن شاور، الذي لم يعلم به إلا حين بلغ أموري قلعة «الدارون» المعروفة بدير البلاح. فانزعج الوزير الفاطمي لهذا القدوم الذي لا مبرر له، وتوقع الشر — هذه المرة — من حلفائه الصليبيين، إذ لم يكن ثمت ما يدعوهم للنهوض إلى مصر، لا سيما وهو قائم بالمحافظة على تعهدهاته لهم. ولم يكن عند المصريين — أو شاور على الأصح — ما يبرر قيام أموري بتلك الحملة الصليبية لمهاجمة حليفته الإسلامية، بعد أن ارتضت من الحلف مكانة التابع بدفع قطيعة سنوية للصليبيين^(٢)، وإقامتها إليهم حراساً على أبوابها، حتى لا يتمكن جند نور الدين من الوثوب عليها في غفلة من أربابها.

لذلك بادر شاور بإرسال أحد مشيريه ممن يثق بهم واسمه الأمير بدران إلى أموري قبل وصوله القاهرة، مستفسراً منه عما دعاه للجيء، عساه أن يتدارك هفوته كي لا يدع مجالا لسلطان دمشق للجيء هو الآخر إلى مصر، فما كان من الصليبيين إلا أن استمالوا الأمير بدران إليهم، بعد أن وعدوه بإقطاعه إقطاعاً زمامه ثلاث عشرة قرية، فلما أبطل بدران تسرب الخوف إلى نفس شاور، وبعث إليهم برسول آخر من المقرين إليه اسمه شمس الخلافة محمد بن مختار، فطمأن أموري خاطره بما لا يجوز على أحد مطلقاً. فقد زعم أنه أراد التوسط بين المصريين وبين جماعة أروية جاءت من وراء البحار قاصدة غزو مصر، كما زعم أن محبته لأهل البلد وحليفه

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ١٥٤.

(٢) ذكر أبو شامة في الروضتين، ج ١، ص ١٧٠ أن شاوراً كان قد قطع الجزية السنوية إلى أموري، مما دعاه للقيام بمحلاته كما جاء في رسالته إليه.

شاور وتحتّم عليه النهوض لدفع هذا الخطر الأوربي عن مصر^(١)، وقرن القول بالعمل، فتحرك شطر الوادي وأغذّ السير حتى تهيأ له الوقوف أمام شهر صفر ٥٦٤^(٢)، وحينئذ أيقن شاور بما كان قد تراءى إلى سمعه من أن بلبيس في هناك فتة من الأمراء المصريين، أمثال ابن الخياط وابن النحاس وابن قرجلة^(٣) كاتبوا أموري يحبون إليه القدوم إلى مصر، ويهوتون عليه فتحها، ويعيدونه بالانضمام إلى جانبه إذا قدم بجيشه ورجاله^(٤).

نزل أموري بظاهر بلبيس، وطلب من حاكمها طي بن شاور أن يأذن له بدخولها ليصكر فيها بجيشه، ووقف الابن موقفا كريما^(٥)، وناضل الصليبيين نضالا أثار حفيظتهم عليه وعلى المصريين عامة، وأنكر على المهاجم زعمه وتقدمه داخل الحدود المصرية، وقتل جماعة من كبار رجال مملكة بيت المقدس^(٦)، وعرف أموري أن المصريين مدركون لقصده، فأقام على حصار بلبيس ثلاثة أئام بلباليها يغادها ويرأوحها بالقتال، استولى عليها بعدها، وإذ ذاك أسرف أموري في الانتقام من بلبيس بهدم بيوتها والتشكيل بأهلها، وكان له عندها ثأرا مبيتا، وقتل كل من صادفه من النساء والشيوخ والأطفال بشهادة ولیم الصوري وغيره^(٧) من المؤرخين الصليبيين، وهناك من يبرّر هذه القسوة من جانب الصليبيين، فيزعم أن أموري رأى أنه لن يستطيع حماية البلد إذا هاجمه أسد الدين شيركوه مثلا ولذا سوسى بيوتها بالأرض^(٨)، وهو تبرير يحتاج إلى تبرير، ويقوم على ساقين من طين.

(١) أبو شامة، شرحه، ج ١، ص ١٦٩ — ١٧٠.

(٢) الكامل، ج ١١، ص ١٥٠، وذلك يوم أول نوفمبر ١١٦٨ م.

(٣) ابن الأثير: الأتابكة، ص ٢٤٧.

(٤) ابن الأثير، نفس المرجع والصفحة، Lane — Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 184.

(٥) أبو شامة، كتاب الروضتين، ص ١٣٧.

(٦) Grousset: Hist. des Croisades, t. II, p. 522.

(٧) G. T., p. 950. Schlumberger: op. cit. p. 196, note 1. p. 313, note 3.

راجع أيضا الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٥٠ — ١٥١.

(٨) Grousset op. cit., t. II, p. 522 d'après Ernoul.

على أية حال كان مسلك أمورى والصليبيين الوحش سنة ١١٦٨ في بليس
متكبها بهم طريق السداد (١)، وسرعان ما أدركوا خطأهم حين أبى أهل
القاهرة أن يلاقوا مصير أهل بليس، من العذاب والتنكيل والأسر، فلموت
في الدفاع عن بيضة الحمى أعذب من حياة في ظل العبودية. واشتد نفورهم
من الصليبيين مما ساعد على ميلهم إلى جانب نور الدين، فلا عجب إذا هم
اعتزموا ألا يسلبوا العاصمة، وألا يدخلها الصليبيون إلا وأهلها جثث
هامدة (٢).

وقد استغرقت المسافة بين بليس والقاهرة عشرة أيام، والأرجح أن
المفاوضات كانت دائرة بين أمورى وبين جماعة المصريين المواليين له، أو
بينه وبين رسل شاور إليه وهو في أثناء الطريق. ومهما تكن دواعي الإبطاء
فقد بلغ أمورى القاهرة يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨، وعسكر عند بركة الحبش،
ولم يجد أدنى معونة من المصريين الذين أحجموا عن كل ما من شأنه مساعدة
الفاخ على تحقيق هدفه، وكانوا قد أدخلوا ناحية الفسطاط بأكملها لأمر دبّره
شاور، وحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام، وتركوا الدار
تنعى من بنوها، ثم أضرموا فيها النيران التي بقيت متأججة أربعة وخمسين
يوما سويا (٣)، وألستها تشرق بالليل فتضىء فحمتها، وبالنهار تذكىها حرارتها،
ولا تزال آثار ذلك الحريق بادية في بعض خرائب الفسطاط الحالية.

نظر أمورى بعين الأسى إلى تلك المدينة الزاهية والنار تلتهمها، والمصريون
راضون بذلك، فللنار تأكل متاعهم أهون على نفوسهم من أن تقع بلادهم
في يد دخيل أجنبي. وكانت مقاومتهم لجيوش بيت المقدس من الشدة بمكان
حتى أياست أمورى، وأدرك أنه لن يستطيع لها امتلاكا، وكيف يتأتى له

(١) Lane — Poole : op. cit. p. 184.

(٢) أبو شامة، شرحه من ١٤٠، الذهبي، من ٢٣٧.

(٣) الكامل، ج ١١، من ١٥١، والروستين، ج ١ من ١٥٤، ١٧٠، (١١٤)،

١٣٩ من الطبعة الأوروپية (وأنا بسكة الموصل، من ١٣٩ — ١٤٠ ودرر التيجان من ٦٣٨
Lane — Poole : Hist. of Egypt, p. 184.

امتلاك بلاد هؤلاء أهلها ، وقد باتوا على الطرقات ما يقرب من شهرين لا يلوون على شيء سوى متابعة القتال ، فلا جرم أن رجب بما عرضه عليه شاور من الأموال ^(١) ، التي لم يستطع أن يجمع له منها سوى خمسة آلاف دينار . ولقد رضى أمرى بذلك خوفا من مقدم أسد الدين وإفساد كل شيء ، لأنه علم أن الخليفة العاضد أرسل مستنجدا بنور الدين ، وبعث إليه بشعور النسوة ، وهو أقوى مظهر من مظاهر التوسل ، كما استغاث به به وبأسد الدين جماعة من المصريين ، وعرضوا عليه ثلث دخل البلاد . وتختلف المراجع العربية في تحديد الشخص أو الأشخاص الذين ذهبوا تلك المرة يطلبون النجدة من نور الدين ، وهناك من يقول إن الذى قام بذلك هو شاور ^(٢) نفسه ، ويقول غيره بل هو الكامل بن شاور بإشارة من شمس الخلافة ^(٣) ، ويقول غيرهم بل هو العاضد ذاته ^(٤) ؛ فإن صح هذا القول الأخير فليس لدينا نص الرسائل التي أنفذها الخليفة الفاطمي إلى سلطان دمشق ، وكل ما لدينا في هذا الموضوع ما ذكره ابن الأثير من أن العاضد أرسل إلى نور الدين ليستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، ثم عاود مرسلته بعد رحيل الصليبيين عنها ، معلما إياه بما لقي المسلمون من الفرنج ، وبذل له ثلث

(١) — اضطر شاور — وقد أزعجته أعمال الصليبيين — لإعمال الحيلة معهم فأرسل إليهم يذكرهم بمودته لهم ، ويلقى بالنسبة على الخليفة العاضد . ويشير شاور على أمورى بالرحيل عن مصر لقاء ألف ألف دينار . وكان أكبر المحيدين لأمرى على قبول هذا التسليم ميلز دي بلانسي ، Mills of Plancy الذى يحمله ولم الصورى تبعة فشل حملة أمورى على مصر ١١٦٨ ، بينما خالفهما بقية الأشراف والفرسان ، ومقدمو الجيش في هذا الرأى ، كما أنهم رأوا أنفسهم وقد اكتسبوا عداوة بزنطة لإخلالهم بالاتفاق المبرم بينهم وبينها فلا أقل من متابعة الحرب . راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٥١ ، وكتاب الروضتين لأبى شامة ، ص ١١٤ — ١١٥ . Schlumberger, les Campagnes du roi Amaury en Egypte, p. 253.

(٢) الدكتور حسن إبراهيم : الفاطميون في مصر ، ص ٣٠٦ ، وحاشية رقم ٢ ، والذهبي ، ص ٢٣٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ص ١٣٨ — ١٣٩ ، Schlumberger : Op. Cit. ، p. 200 — 201 ; Lane-Poole : Hist. of Egypt, p. 183 — 184.

(٤) الروضتين ، ص ١٣٩ ، أنابكة الموصل ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .

بلاد مصر ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقبلاً عنده في عسكر ، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين ، والظاهر أن ذلك كان بعلم شاور أيضاً ، إذ يذكر ابن الأثير كذلك أن شاور لم يتجاسر على إظهار ما في نفسه ، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان قد بذل له من المال والإقطاع للعساكر وإفراد ثلث البلاد لنور الدين .

على أية حال ما كاد نور الدين - وهو في حلب - يتسلم رسائل الاستغاثة حتى تحركت فيه عوامل الشفقة والرحمة ، وعملت جنباً إلى جنب مع ما تنطوي عليه نفسه من الطمع في الاستيلاء على مصر وتخليصها من أيدي فئة طاغية كشاور ، ولعله رأى أن تخليصها قديرٌ دى به إلى إعادة المذهب السنن إليها ، بعد أن تمكنت منها الشيعة زمناً طويلاً ، وبذلك يكتسب عطف بغداد وتأيدها إياه . وأدرك نور الدين من رسائل العاصد وكثير من المصريين أن البلد سيخدو من نصيبه هذه المرة ، ولم يكن في ذلك مبالغاً . ومن ثم بعث إلى قائده أسد الدين شيركوه - وكان بمحمص - يأمره بالتجهز بالحملة على مصر ، وأعطاه مائتي ألف دينار ، سوى الثياب والدواب والأسلحة ... وحكمته في العساكر والخزائن ... وأعطى نور الدين كل فارس من مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة غير محسوبة من جامكيتته ^(١) . ولنا أن نقارن بين قلة الأموال في مصر حتى ليعجز شاور عن جمع ما لا يزيد عن خمسة آلاف دينار ، وبين كثرتها عند جيش نور الدين الذي أنفذ مع شيركوه جماعة من كبار الأمراء الذين يشق بهم أشد الثقة .

خرجت هذه الحملة في ١٧ ديسمبر ١١٦٨ ، وحدث حين سمع شاور بمقدم شيركوه وبلوغه قلعة الصدر بشبه جزيرة سيناء أن بعث بشمس الخلافة إلى أموري ، طالباً إليه أن يتخلى عن جزء من المبلغ المتفق عليه ، فدل ذلك أبلغ دلالة على أن وزير الفاطميين بمصر يهدد حليفه الصليبي ، كما دل من

(١) الكامل لابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥١ ، الأتابكة ص ٢٥٠ ، Schlumberger : op. cit. p. 213, Lane-Poole : op. cit. p. 185.

ناحية أخرى على أنه لم يعد له من القوة والسلطان ما يستطيع به دفع هذين الخصمين، ولا شك أن المصريين كانوا من خلفه يؤيدونه في موقفه هذا، عسى أن يخفف العبء عن كاهلهم^(١)، وإن كانوا في الوقت ذاته يمتنون النصر لجند نور الدين.

دخل جيش نور الدين القاهرة يوم ٨ يناير ١١٥٩^(٢) (= ٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ)، ولم يجد أدنى مقاومة من المصريين، ولعلهم رأوا في حملة شيركوه خلاصاً لهم من الصليبيين ومن استبداد شاور، الذي ضج منه الجميع حتى أقرب الناس إليه وهو ولده الكامل: وطمع الكل أن يشرق عليهم عهد جديد من الطمأنينة والهدوء بعد تلك النكبات الجسام، التي تابعت عليهم آخذ بعضها بحجز البعض الآخر، أما الخليفة العاضد فكان يرقب الأمور بحسرة لا تجدى، ولم تكن له يدان في دفع تلك الأخطار التي توقع — عن حق — أن تذهب بعرشه الذي ورثه عن آبائه.

أصبح من الضروري لأمرى — بعد أن عرف موقف المصريين حياله — أن يتراجع عن القاهرة، مخافة أن يهاجمه أسد الدين، وأن يثب عليه المصريون من الخلف، واضطر إلى الارتداد إلى بليس، مؤملاً ألا يجد صعوبة في الرحيل إلى فلسطين إن جد من الأمور ما يقتضيه الابتعاد عن مصر. أما شيركوه فإنه عاد يشير إلى الاتفاق القديم، الذي قدمه شاور لنور الدين، ثم نكث فيه، فطالبه به، فماطله، وكان شاور عاجزاً بطبيعة الحال عن أداء المال المطلوب لصاحب دمشق، ومن أين له الوفاء به، وقد احترقت بيوت أهل مصر،

(١) ذكر أبو شامة نص الشروط التي تم الاتفاق عليها بين شمس الخلافة نائب شاور وبين أمرى، فقد وهب أمرى نصف المال الذي استطلقه إياه شمس الخلافة، وعرض شاور (بلسان نائبه) أن يرحل أمرى عن البلاد، وقد استجاب ملك بيت المقدس لما طلبه منه شاور، كما أنه أطلق طي ابن شاور وجميع من عنده من عسكر المسلمين ولم يأخذ من بليس شيئاً.

(٢) تحقيق هذا التاريخ بناء على ما ذكره Stevenson: Crusaders in the East, p. 194, note 1, بعد مناقشة المصادر العربية المختلفة، ومعارضتها بعضها ببعض.

وهم لا يقدرّون على الأقوات ، فضلاعن الأقساط ، مما لم يخف على شيركوه .
ثم رحل الصليبيون عن مصر يوم ١٨ يناير ١١٦٩ ، بعد أن يسوا من
امتلاكها ، وأدركوا بعد فترات الوقت — خطأهم الجسيم في إقدامهم على
الحملة التي أفقدتهم ما كان لهم من مظاهر ملكية مصر ^(١) ، لكنها المقادير
أبت إلا خدمة البلد ومعاونة نور الدين على تحقيق هدفه مما كان فيه أكبر الخطر
على الخلافة الفاطمية ^(٢) ، ولم يفت شاور أنه لم يبق في مصر سوى شيركوه
ورجاله ، فأخذ هذا المنافق يدبر حيلة تمكنه من القضاء على أسد الدين ومن
معه من الأمراء عسى أن يخلص له أمر مصر . لذلك رأى دعوتهم إلى مأدبة
يقيمها من أجلهم ، ثم يلقي القبض على زعمائهم ويقتلهم جميعا ، ثم يستخدم
جندهم في دفع الصليبيين إن عادوا لمهاجمة البلد ، وبذلك يصيب عصفورين
بمحجر واحد . غير أنه انصرف عن تلك المكيدة ، لارحمة بهم ، بل خوفا مما
هو أشد وأنكى ، ويقال إن الذي صرفه عن ذلك هو ابنه الكامل ، حين
هدده بإيقاف شيركوه على المكيدة التي بيّنها له شاور ، وكان هوى ابنه مع
المصريين ومع جيش نور الدين ، وقال له « لأن نقتل ونحن مسلمون ، والبلاد
إسلامية ، خير من أن نقتل وقدملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عودهم
إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه » ، وبذلك نجح الجيش ^(٣) النورى رغم
إرادة شاور ، الذى دل سوء تدبيره على قصر نظره ، فما كان له أن يحقق هذا
الأمر وهو فى قلة من الأعوان والجند ، إذا قيس إلى جيش شيركوه الكثيف
القوى ، أضف إلى هذا ما أعده نور الدين من قبل من تزويده بكثير من
أشد أتباعه إخلاصا له ^(٤) ورعاية لمصالحه ، واستماتة فى تمكين الأمر له بمصر ؛
ولو قدّر لشاور النجاح فى القضاء على شيركوه لخلفه من رجاله من يملأ الفراغ

(١) Stevenson : op. cit. p. 194.

(٢) عمارة النبى . النكت العصرية ، ص ٨١ .

(٣) الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٢ ، وكتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٤) شرحه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

الذى يتركه. لكن الظاهر أن شيركوه علم بما يستتبع له عدوه، فرأى أن يعالجه فيجهز عليه، رغم ما يذهب إليه ابن الأثير من أن أسد الدين قد نهى صلاح الدين وعز الدين جرديك وغيرهما عن قتل شاور^(١). وبما يضعف رأى ابن الأثير، ويدعم القول بعزم شيركوه على القضاء على شاور أن الخليفة العاضد عرض على شيركوه التخلص من شاور بقتله^(٢)، على أن يستوزره مكانه، فوَقَّعت هذه الفكرة من نفسه موقع الرضاء والقبول، ورأى الفرصة سانحة للخلاص من الوزير الفاطمى، وإضعاف شركة الخليفة والاستيلاء على « حلوبة بيت المال ودار الإسلام ». لذلك جمع شيركوه أصحابه، وخطبهم خطبة حفظها لنا أحد المؤرخين^(٣)، كشف فيها النقاب عن رغبته الصريحة فيها، « وحرصه عليها لا سيما وقد تحقق أن عند الصليبيين منها ما عنده ... وعنده أن يثب عليها قبل وثوبهم، وأن يملكها قبل ملكتهم، ويتخلص من شاور الذى يلعب به وبهم ». أيشك أحد بعدئذ فى أن قتل شاور كان بتدبير سابق من شيركوه نفسه؟ بل وأنه كان عالما بيوم مصرعه وساعته، وإن خفى الأمر إلا عمن وكل إليهم قتله، رغم أنه قد أراد التحايل وتبرئة نفسه أمام التاريخ من دمه؟ إذ ذهب لزيارة قبر الشافعى يوم مصرعه، فلما قصده شاور فى خيمته كعادته كل يوم لم يجده، فرأى أن يمضى إليه هناك، فخرج إليه بصحبة الصلاح وجردريك اللذين تمسكنا منه، وأخذاه أسيرا إلى شيركوه « إذ لم يمكنهم قتله بغير أمره » فلما جاءه لم يمكنه إلا إتمام ما عملوا، أفهل يمتري أحد بعد ذلك فى أن مصرع شاور كان بتدبير نور الدين؟ وهكذا انتهى رجل تربع فى دست الوزارة المصرية فترة طويلة واستبد بالأمير،

(١) الكامل لابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٢.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج ١١، ص ١٥٢، ١٥٤، وأبو شامة: كتاب الروضتين

ج ١ ص ١٧١، الذهبى ص ٢٣٩، وبذكر العصا: سمط النجوم، ج ٢، ورقة ٣٢٩ — ٣٣٠ أن ذلك القتل تم بمشاوره أسد الدين، وكان العاضد قد أسر إليه أمورا منها قتل الوزير شاور.

(٣) أبو شامة، شرحه، ج ١ ص ١٧٢.

وحارب البلد والقصر، واستعان بالأجنبي^(١). والواقع أن مقتل شاور كان آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي منيت بها مصر في أواخر العهد الفاطمي، ولم يعد للصليبيين من مساعد في البلاد، وكان خروج الصليبيين من مصر في نظر نور الدين فتحاً جديداً للبلد وحفظاً لسائر بلاد الشام^(٢)، وفرح لهذا الفتح فرحاً شديداً «وواصل الحمد والثناء على الله تعالى، إذ كان الفتح في زمنه، وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده»، وأرسل إلى الخليفة يعمله بذلك مع ابن عسرون «فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وفرح المسلمون فرحاً شديداً^(٣)»، أما شيركوه فقد خلا الجوله، لا سيما بعد أن وافقه الخليفة الفاطمي على ما تم، وبعد أن خلع عليه خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وقد ختم العاصد ذلك كله بأن كتب إلى شيركوه تقليداً بالوزارة^(٤)؛ على أنه كان في كل خطوة من تلك الخطوات يحفر لنفسه ولأسرته ولخلافته قبراً يوشك أن يتردى فيه، إذ لم يعد هناك من ينافس قائد جيش نور الدين الذي أصبح وزيراً؛ بل زاد على ذلك بأن راح يقطع الإقطاعات لمساكره؛ ويستعمل على البلاد من الولاة من أصحابه من يثق بهم. وأصبح لنور الدين حكم مصر وبلاد الشام^(٥).

(١) هناك ما يحمل على الظن بأن لشيركوه يدا في قتل الشجاع كامل ابن شاور أيضاً، إذ يذكر ابن الأثير أنه لما قتل أبوه دخل هو وأخوته القصر «معتصمين»، به فكان ذلك آخر العهد به، فما معنى «الاعتصام» والجند جند نور الدين صاحب الكامل الذي كتب إليه نور الدين، حين أخبره بما بينته أبوه «أن اكتم الخبر عن أيبك». وغير بعيد أن يكون شيركوه قد خاف أن يستدعى نور الدين الكامل بعد استتباب الأمور في مصر، ويقلده الأمر ولعل هذا هو علة غضب نور الدين على شيركوه. انظر الكامل لابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٢ وأتابكة الموصل، ص ٢٥١—٢٥٣، والروضتين، ج ١ ص ١٧٠—١٧٢، ودرر التيجان، ص ٣٦٨.

(٢) أتابكة الموصل، ص ٢٥١—٢٥١.

(٣) العصامي: سمط النجوم، ج ٢ ص ٣٣١.

(٤) عمارة: النكت العصرية، وابن خلكان في وفيات الأعيان، والذهبي ٢٣٨—٢٣٩.

(٥) لم يفت الشعر تسجيل هذا الحادث الخطير في تاريخ الشرق في العصر الوسيط، راجع =

غير أن نور الدين كره أن يكون شيركوه وزيراً لمصر وللعاقد الفاطمي؛ ولعله كان يرى في قائده الرغبة في الاستئثار بحكم مصر حتى لقد قال أحدهم «لقد جرى ذكر فتح مصر فوالله ما ابتهج به نور الدين»، كما أنه لما اتصل به استوزاره للعاقد واستبداده بالأمر أمضه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قساوته وفتلات كلامه الكراهية؛ وأخذ في الفكرة في أمره وسهره ليالى؛ غير أنه لم يُقيض لأسد الدين أن يعيش طويلاً بعد الفتح؛ فلم يلبث أن مات يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ (٢٣ مارس ١١٦٩) ^(١) وهو ذروة مجده، وحسبه أن مهد الأمر في مصر لمن سيأتي بعده، وما ذلك بالقليل.

كان فتح مصر الحلقة الأخيرة التي أضيفت إلى السلسلة المحكمة الحلقات من التمهيد لتكوين الجبهة الإسلامية؛ وأدى ذلك إلى سقوط الخلافة الفاطمية؛ وكانت في تشيعها وضعفها أكبر خطر على نور الدين؛ ولعل أكبر خدمة أداها الصليبيون للعالم الإسلامي إذ ذاك هي التوحيد — عن غير قصد — بين مصر والشام. ورن دوى هذا الفتح في بغداد، حتى لقد أقبل الشعراء يهنئون الخليفة به ^(٢)، ويظهر لنا من نص وارد في بعض المخطوطات ^(٣) أن العباسيين كانوا يتطلعون لفتحها منذ زمن، فقد كتب المقتفي بأمر الله عهداً

== كتاب الروضتين، ج ١ ص ١٧٤ — ١٧٥، ونصيدة العماد التي يهنيء فيها نور الدين بذلك الفتح ويشير فيها إلى اتحاد البلدين.

فلك مصر وملك الشام قد نظما في عقد عز من الإسلام منتظم

Wiet : *Precis de l'Histoire d'Egypte* t. II, P. 197, Lane-Poole : *Op.* (١)
Cit., p. 186 ; Stevenson : *op. cit.*, p. 194 ; Schumberger : *op. cit.* p. 234.

(٢) من ذلك ما ذكره ابن الجوزي : المنتظم، ورقة ١٨٣، من نصيدة رفعها صاحب

الوزير إلى الخليفة يقول له فيها :

ليهنك يا مولى الأنام بشارة بها سيف دين الله بالحق يرهف
ضربت به هام الأعادي بهمة تقاصر عنها السهري المثقف
كشفت بها عن آل هاشم سبة وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

(٣) المنتظم، ص ١٤٠، وانظر أيضاً ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٤، ص ١٥٢.

لنور الدين وولاه مصر وأعمالها والساحل ، بعث إليه المراكب والتحف وأمره بالمسير إليها ، وذلك سنة ٥٤٩ هـ .

كذلك تتركز خطورة هذا الفتح في حصر الإمارات اللاتينية من الشمال والجنوب بين قوات خضمتها القوى ، أضف إلى هذا أنه أصبح في مكنة نور الدين أن يعيد الأسطول المصري إلى سيرته الأولى ، وبذلك تصبح السواحل الشامية — وهي في يد الصليبيين — مهددة بإغاراته بين حين وآخر ، كما أنه يقطع بينهم وبين أوربة سبل الاتصال ، وانقطع مصدر كبير من مصادر الثروة الصليبية ألا وهو تجارتهم البحرية مع مصر .

وأدى استتباب الأمر لجند نور الدين في مصر إلى زحزحة الخلافة الفاطمية من مسرح السياسة الإسلامية ، وكان الصليبيون يعملون دائماً على إثارة الخلاف بين جماعة السنة في الشام والعراق وبين الشيعة في مصر^(١) . ما كاد أسد الدين يوارى التراب حتى انبعثت أطاع مقدمي الجيش من الأمراء الذين يطلب كل منهم الوزارة لنفسه ، غير أن العاضد أرسل إلى صلاح الدين يوليه إياها ، وخلع عليه خلعها من العامة والجبّة والعقد والسيف ومرسوم الوزارة وكان ملفوفاً في ثوب أطلس أبيض^(٢) ، فاهى العلة في اختيار صلاح الدين ؟ .

الظاهر أن الخليفة العاضد تطلع للاستئثار بحكم البلاد ، بعد أن تخلص من الصليبيين ومن وزرائه الذين حرموه من كل حق كخليفة لمصر ، ورأى الفرصة سانحة لاسترداد سلطانه المسلوب ، وخيل إليه أن الظروف جد مواتية له ، وما الذي يعوقه عن ذلك ؟ حقيقة أن هناك جماعة من قواد نور الدين الأقوياء الذين زاملوا شيركوه ، وكل منهم طامع في أن يخلف القائد الأعلى في تدبير أمور الحرب ، ومن هو صلاح الدين إن قيس بهؤلاء ، وما فيهم إلا كل عبقرى السياسة والتدبير ؟ غير أن عين الدولة الياروق ،

G.T., p. 902, 903. (١)

(٢) كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، الذهبى ، ص ٣٤٠ .

وقطب الدين إبنال بن حسان المنبجى ، وسيف الدين المشطوب الهكارى خال صلاح الدين هم الذين يعزى إليهم التأثير على العاضد فى إشاره للصلاخ ، لأنه أضعف الجماعة وأصغرهم سنا ، فإن ولى الوزارة فإنه لا يخرج من تحت حكم العاضد (١) .

وجرى من الأحداث بمصر ما دل على أن البلاد تجتاز مرحلة خطيرة فى تاريخها ، فقد قامت جماعة بمكاتبة الصليبيين ودعوتهم إلى مصر ، وأخذ صلاح الدين جماعة السودانية بالعنف بعد أن وقف على مرامهم (٢) ، ذلك أن كبيرها مؤتمن الخلافة طمع أن يخلف شاورا فلم يفلح ، فضى يدبر الدسائس ويحوك المؤامرات ضد صلاح الدين الذى لم يفقه شىء مما يدور فى الخفاء ، إذ قبض على رسول مؤتمن الخلافة ، موفد إلى أمورى ، يدعو فيه دعوة شاور لفتح مصر ، ويعدّه بوثوب الجند السودانية على من يبقى من الجيش النورى للمحافظة على القاهرة ، ثم يثبون من بعد ذلك على صلاح الدين من الخلف ، وحينذاك تبين لصلاح الدين أن الواجب يقتضيه تقليم أظفار كل طامع فى الحكم ، ورأى وجوب ما ألح عليه نور الدين به ، وهو إزالة الخلافة الفاطمية (٣)

لم تكن الأحداث التى تمت عقب رحيل أمورى عن مصر دون أن

(١) راجع الكامل ، ج ١١ ص ١٥٤ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٥٥ ، والروشتين ، ص ١٦١ .

(٢) الذهبى ، ص ١٤١ .

(٣) أخذ الناس يحرضون صلاح الدين على الوثوب على الخليفة ، حتى إن الشاعر العماد ، كتب إليه محرّضا ، وما كان للعماد أن يجزؤ على هذا لولا ما رآه من الرغبة الصريحة عند صلاح الدين فى القضاء على العاضد ، ولا شك أن نور الدين — وإن كان ينكر القتل — إلا أنه كان يطمع فى إزالة الخلافة الفاطمية من مصر ، وفى ذلك يقول الشاعر :

رد الخلافة عباسية ودع الدعى فيها يصادف شر منقلب
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها فالخزم عندى قطع الرأس والذنب
راجع الروشتين ص ١٦٠ ، درة اللوك ، ص ٦ ب .

يحقق هدفه أحداثاً داخلية محضة ، بل لقد رأى الصليبيون فيها ما يهدد كيانهم كستقرّين في بلاد الشرق الأدنى ، ولم تفت هذه الحقيقة أحداً من صليبي الشام ولا الإمبراطورية البيزنطية ، التي وقفت ترقب ذلك الصراع عن بعد ، وهي غاضبة على أمورى أكثر مما هي غاضبة من نور الدين ، ورأت مملكة بيت المقدس نفسها تواجه أشد الأخطار من جراء ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل في مصر ، ورأت الضرورة تدعوها لإجباط خطته بها ، ولم تجد في موادعته خيراً لها ، ولذلك استقر الرأي في المملكة الصليبية على وجوب إثارة حرب صليبية جديدة ، وإذا كان سقوط الرها — في يد زنكي قد بعث ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا على النهوض بحملتهما الصليبية المعروفة بالثانية سنة ١١٤٨ — وإن فشلت — فإن استيلاء نور الدين على مصر أحق بأن يثير بممالك أوربة جميعها . لذلك رأى أمورى ، ورجاله أن يبعثوا إلى ممالك أوربة سفارة ، تستنجدهم لدفع خطر نور الدين الذى يوشك أن يقضى على الإمارات اللاتينية المسيحية بالشام ، واستقر الرأي أخيراً على تأليف هذه السفارة من أمورى بطريك بيت المقدس ، وهرنسيوس مطران قيصرية ، ووليم مطران عكا ، ولم يخف خبر تلك السفارة عن نور الدين ^(١) . كما علم بمكاتبة صليبي الشام لفرنجة الأندلس ، وأزمع أمورى مكاتبة لويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، وفردريك بربروسة إمبراطور ألمانيا ، ووليم الثانى ملك صقلية ، وفيليب كونت فلاندر ، وهنرى كونت شمبانيا ، وعلى الرغم من العواصف والأعاصير البحرية فقد تمكن البطرك أمورى من الوصول سالماً إلى فرنسا ، حيث استعرض أمام ملكها لويس السابع الأخطار الجسام التى تهدد بيت المقدس ، وكان ذكرى نهوضه قبل ذلك بعشرين عاماً قد نكأت جرحه المندمل ، فتعلل بانشغاله بمحاربة الإنجليز الذين ينازعونه العرش ،

(١) راجع الكامل ج ١١ ص ١٥٧ . وانايبكة الموصلى ص ٢٥٨ — ٢٥٩ ، G.T, p. 960

وأثارت هذه الذكريات نفسها جماعات عدة من الفرسان في مختلف الممالك الأوربية ، فأحجموا عن الإقدام على خوض غمار حرب لم يعد العامل الديني يثيرهم على القيام بها كما أثار آباءهم منذ نصف قرن^(١) ، أما بعثة بيت المقدس فقد دُعيت إلى انجلترا ، حيث قابلت هنرى الثانى ، فأخذ يماطلها حتى مات أحد رجالها فعاد من بقى حياً دون تحقيق الهدف الذى يسعى إليه أمورى ، وحينئذك أيقن صليبيو الشام أن الاستعانة بأوربة المسيحية ، والتفكير فى معاونتها إنما هو وهم باطل ، وهيات أن تقدم أوربة على ذلك ما لم تحظ بنصيب الأسد .

حينذاك تلفت أمورى حوله ينشد حليفاً جديداً لمعاونته فى القضاء على نور الدين بمصر واسترجاعها منه ، فلم يجد بداً من الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، وبالإمبراطور مانويل ، الذى كان — رغم غضبه من تعجل أمورى فى القيام بمحملته منفردا — ينظر بعين الخوف هو الآخر إلى التوسع النورى رغم أنه فى الجنوب ، فلا عجب إذا رحّب بمد يد المعونة إلى أمورى مرة أخرى فى حربه ضد نور الدين ، والواقع أن أمورى رأى — من قبل — من إمبراطور بيزنطة ما أدرك معه رغبته الصريحة فى النهوض بحرب صليبية^(٢) .

أنفذ مانويل فى يوليو ١١٦٩م إلى أمورى أسطولاً قوياً بقيادة إندرونيك كونستفانوس Andronic Constiphanos بعد أن مر بقبرص ، وتزود بالمئونة الكافية لثلاثة أشهر ، وانضمت إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، وكان هذا أكبر أسطول قدر للصليبيين أن يشهده ، كذلك أنفذ مانويل قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب وعدد

(١) Tout : Empire and Papacy, p. 246 — 273.

(٢) G.T., p. 961.

القتال مع أقوى رجاله^(١)، وذلك لأن الإمبراطور البيزنطي كان طامعاً في تحقيق أطامعه وأهدافه في التوسع، حتى تدخل مصر ضمن دائرة نفوذه، ولعل التفاتة بسيطة إلى ذلك العدد الضخم من السفن والجند والاستعدادات الهائلة كفيلة بكشف القناع عن رغبة الإمبراطور الصريحة في الاستيلاء على مصر، وهو تعبير مادي صريح في الرغبة في الانفراد دون الصليبيين بحكمها، ولم يفت ذلك أموري، مما يتجلى في تأجيله الرد على قائد الأسطول البيزنطي في قبرص ما يزيد على شهرين حتى مات أسد الدين وملك صلاح الدين البلاد^(٢).

ثم وصلت هذه الحملة البيزنطية ترافقها جنود من مملكة بيت المقدس بقيادة أموري إلى صور فعسقلان، التي غادرتها يوم ١٦ أكتوبر، وبلغت الفرما في اليوم التاسع من مبارحتها عسقلان، وهناك أبصرت الأسطول البيزنطي في انتظارها. ومضت الحملة والأسطول معا إلى بلد لم يكن في حساب مصر أبداً، ذلك هو دمياط «ودمياط عقيلة الإسلام وثمر الديار المصرية»^(٣) رغم أنها لم تكن محصنة^(٤)، واختيار هذه المدينة بالذات يفصح عن أن الحرك في السير إنما هو البيزنطيون، اعتماداً منهم على أسطولهم، وعلى أية حال قد أمضى البيزنطيون وحلفاؤهم ثلاثة أيام في نصب الخيام أمامها، وبذلك أتاحوا لها أن تستعد لصددهم، وما كان للمدينة أن تعزل عنهم، لو أنهم باغتها بالهجوم، كما باغتها بالقدم.

كان لا بد لصلاح الدين من النهوض لدفعهم، غير أن خوفه من أن يغتقم الناقون عليه الفرصة فيثيرون العامة ويحركونها ضده اضطره للبقاء

G.T., p. 961. Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury, p. 258 (١)
— 261.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ١٥٧.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٣٧٤.

G.T., p. 964—969. (٤)

بالقاهرة مكتوف اليدين، كما كتب إلى نور الدين يصرّح له بخوفه من مؤامرات القصر الفاطمي وجند السودان (١) المحيطين بالخليفة العاضد، فبعث إليه نور الدين عساكر الشام (٢) التي بلغت دمياط في منتصف ربيع الأول ٥٦٥ هـ (٣)، وقام هو في الوقت ذاته بنهب بعض بلاد الإمارات اللاتينية بالشام (٤)، كما أنفذ صلاح الدين العسكر إلى دمياط عن طريق النيل، وزودهم بالسلاح والذخائر، وبعث السفن بقيادة أخيه تقي الدين عمر (٥)، وقريبه شهاب الدين محمود، وبذلك استطاعت دمياط مقاومة غزاتها الذين أمضوا أيامهم في التآهب لمهاجمتها، وأحجموا عنها وقت خلوها من كل من يقف في سبيلهم (٦). أما وقد بلغت هذه الإنجادات من الداخل والخارج فقد أصبحت في حال تمكنها من دفعهم، فلا عجب إذا هي عزت عليهم رغم ضخامة حملتهم، بل لقد ذهب المدافعون أبعد من ذلك فبنوا برجاً يشهد ولیم الصوري أنه أكبر من البرج الذي أقامه الصليبيون لرميها منه بالمنجنيق، كما ينص على أن المسلمين والأقباط كانوا يدا واحدة في دفع المغيرين. ولقد زاد الطين بلة تحت أقدام البيزنطيين «هطول الأمطار ليلاً ونهاراً» فتحولت خيام الصليبيين ومعسكراتهم إلى طين وماء، حتى اضطروا «لحفر الحفر حولها لتتجمع فيها مياه الأمطار» (٧)، ثم طلب صلاح الدين النجدة السريعة من مولاه نور الدين (٨)، نظراً لشدة وطأة الصليبيين وإلحاحهم في مهاجمة دمياط، غير أنه لم يلبث أن دب بين المغيرين أنفسهم ما أضعف عزائم

(١) ابن الأثير، أتابكة الموصل، ص ٢٥٩.

(٢) أتابكة الموصل، ص ٢٥٩.

(٣) أبو شامة، ص ١٥١.

(٤) أتابكة، ص ٢٥٩.

(٥) الروضتين، ص ١٥١، درر التيجان، ج ٤، ص ٣٦٨ — ٣٦٩.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ج ١١، ص ١٥٧.

(٧) راجع الروضتين، ص ١٤٩ — ١٥١، G.T.P 667 وما بين الأقواس مترجم عن

للمرجع الأخير.

(٨) الكامل، ج ١١، ص ١٥٧، أتابكة، ص ٢٥٩.

جندهم ، وهو نقصان الطعام عندهم يوما بعد يوم ، لأن الأسطول البيزنطي لم يجلب معه غير مئونة ثلاثة أشهر ، استنفد معظمها في المدة التي انقضت منذ خروجه من بلاده حتى مغادرته عسقلان . يضاف إلى ذلك أن الكثرة العددية جعلت مشكلة التموين صعبة ، فضلا عن استحالة الحصول على شيء من دمياط وما جاورها ^(١) . ثم إن جماعات من المصريين والعرب اغتصمت الفرصة ، وشرعت تغير بين آن وآخر على خيام العدو فقتل ما تصل إليه أيديها ، كما تمكنت من إضرار النار في بعض سفن الأسطول ^(٢) . فأدت تلك الظروف مجتمعة إلى تسرب القلق إلى نفوس الصليبيين والبيزنطيين ، إلا أنهم أخذوا مع هذا في مداومة الحصار . غير أن لكل شيء نهاية ، إذ سرعان ما أحس القائد البيزنطي بشدة فتك الجوع بجنده ، وأدرك أن البقية منهم لن تستطيع الصبر طويلا على ذلك الجهد الشاق ، ومراوحة القتال مع قلة الزاد ، وبعد الديار ، ومشقة الحرب ، فأشار على ملك بيت المقدس بمهاجمة البلد مرة واحدة ، حتى يسقط في أيديهم ، فيتفرغوا لبقية البلاد التي في طريقهم والتقدم شطر العاصمة . غير أن أموري لم يوافق على خطته ، متعللا بأنها تؤدي إلى هزيمة الجيش ، فأنكر ذلك كونستفانوس ، وعقد — بعد منتصف إحدى الليالي — مجلسا من مقدمي جيشه ، واستعرض معهم الموقف ، وأمرهم بمهاجمة البلد والابحطالاع بالهجوم دون الصليبيين فكان ذلك أول تصدع للحلف البيزنطي الصليبي ، مما أغضب أموري الذي رأى أنه أدري من كونستفانوس بخطط القتال في مصر ^(٣) . ولعل ملك بيت المقدس الطامع في الاستبداد بحكم بلاد النيل قد رأى أن البيزنطيين يرمون من وراء انفرادهم بالفتح إلى الانفراد بحكمها ، وبذلك تضيع جميع جهود الصليبيين . أضف إلى هذا ما كان يؤمله أموري من أن يرهق الحصار صلاح الدين فيعود إلى ما كان

(١) G.T.p. 967. ، القرينى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

(٢) G.T.p. 968.

(٣) Schlumberger: op. cit. p. 278-280 (d'après Nicetas).

متفقاً عليه من قبل بين مصر وبيت المقدس أيام شاوور، من دفع الجزية السنوية، التي ينص ولیم الصوری على أنها *annua tributi pensio* ، لذلك دبر أموری وسيلة للاتصال بينه وبين المصريين ، ليفسد على البزنطيين خطتهم ، وإن كان يعتقد في الوقت ذاته أنه قد أفسد آماله في الاستيلاء على مصر، ويظهر أن البزنطيين أنفسهم قد لجأوا إلى مثل ذلك الاتصال بالمصريين ^(١) ، غير أننا لا ندرى على وجه التحقيق الشروط التي تم الاتفاق عليها ^(٢) ولا ندرى من البادى بمفاوضة المصريين : البزنطيون أم الصليبيون؟ ويذهب ولیم الصوری إلى أن البزنطيين هم الذين عمدوا إليها أولاً ، وقد يبدو ذلك محتملاً نظراً لقلّة ما بيدهم من الذخيرة، غير أنه يمكن استبعاد هذا لأنهم كانوا يأملون أن تسقط دميّاط في أيديهم فيعوضهم ذلك شيئاً ، والأمر الثاني أنه يهمهم فتح مصر بحد السيف ، لتغدو حقاً للإمبراطورية لا ينازعهم فيه منازع .

لكن الأرجح هو أن أموری كان البادى بالمفاوضة ، ليفسد على حليفه البزنطي خطته ، وليستطيع أن يعود سريعاً إلى فلسطين، لمواجهة نور الدين الذي اغتم فرصة خلو الإمارات اللاتينية بالشام من أربابها فأخذ في الإغارة على حصن الكرك ^(٣) وغيره من النواحي التي بأيديهم ، وعلى أية حال فسد أمر الحملة الصليبية البزنطية على مصر ، وما أقسى تهكم ابن الأثير حين شبهها في خذلانها بالنعامة خرجت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين ^(٤) ، وهكذا انعقدت الهدنة أو المودعة بين المتحاربين ، وأخذوا في التزاور فيما بينهم ، ورحب المصريون بالصليبيين ودعواهم إلى بيوتهم ، ورجع مقدم الأسطول البزنطي

(١) G.T.p 968 — 999.

(٢) ليست لدينا أية معلومات عن الشروط التي تم الاتفاق عليها بين المصريين والمغربين ، بل إن Schlumberger : *Les Campagnes du roi Amaury en Egypte*, p. 282. ليدحض ما يزعمه المؤرخ البزنطي نكتاس من أن المصريين عرضوا أن يدفعوا لبزنطة جزية سنوية .

(٣) الكامل ، طبعة أوربة ، ص ٥٧٠ .

(٤) الكامل ، ج ١١ ص ١٥٨ ، الذهبى ص ٢٤٣ .

إلى بلاده ، وما لبث أن وافاه هناك جماعة من المصريين يحملون الهدايا وشروط الصلح إلى الإمبراطور البيزنطي^(١). أما أموري فقد رجع بجيشه إلى بلاده ، وكانت نكبة الإمبراطورية البيزنطية لا تقل عن نكبة الصليبيين ، إذ أتلقت العاصفة في الرجوع كثيرا من السفن ، وهلك كثيرون من الجند والبحارة^(٢) ولم يكن ذلك كل ما تمخضت عنه الحملة ، بل هناك ما هو أشد وأنكى ، ألا وهو تمكن الأمر لصلاح الدين — أولمولاة نور الدين مؤقنا — في مصر ، الأمر الذي يخشاه كل من البيزنطيين والصليبيين ، كما ضعف أمر الخليفة العاضد الذي أصبح تابعا لنور الدين سلطان دمشق ولا عاضد له ، كما انقطعت التجارة بين مصر وبلدان الساحل الفلسطيني^(٣).

وهكذا باتت القوى الصليبية بين شقي الرchy ، وهو ما أراده نور الدين ، وما لبثت مملكة بيت المقدس أن أحست بما صارت إليه حين خرج صلاح الدين في مستهل ديسمبر ١١٧٠ (= ٥٦٦ هـ) قاصدا غزة ، حتى إذا وصل إلى دير البلح (الداروم)^(٤) استقر هناك ، وأرسل سرية هاجمت ربض غزة^(٥) التي كان أموري قد أقام بها حصنا وحامية لدفع أى خطرياً تيه من الجنوب ، وعلى الرغم من قوة تلك الحامية فإنها عجزت عن دفع هجوم صلاح الدين ، الذي استمر يومين سوياً . وبلغ الخبر أموري ، فخشى أن تقع تلك المنطقة في يد عدوه ، فتصبح مملكته أدنى إلى شقي الرchy ، وبعث في جميع الجهات مناديا أن يخرج الفرسان لدفع الخطر الجديد ، فلبى الكثيرون نداه ، لا سيما وقد أدركوا أنهم أصبحوا عرضة للغارات وما يتبعها من ضياع السطوة والسلطان ،

(١) Schlumberger : op. cit. p. 284 (d'après Nicéas).

(٢) اغتم نور الدين هذه الفرصة فأخذ يعبث فساداً في نواحي البلاد الصليبية ، كما فعل في عسكر التي نزل عليها ولم يرحها حتى وأتاه خبر زلزال ١١٧٠ ، الذي أتاح لكل من الفريقين فرصة اشتغلا فيها بعمارة بلادها ، راجع Dassaoud : Topogr. Hist. de la Syrie; p. 328

(٣) Heyd : op. cit. p. 399 — 400.

cf. G. T., p. 973.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ .

وقد يردى الأمر في النهاية إلى إخراجهم من بلاد الشام ، دون أن يجدوا في أوربا منجدا أو معينا ، لا سيما أنه لم يعد لهم أمل ما في مساعدة الدولة البيزنطية لهم ، بعد أن فجعوها في آمالها مرتين متعاقبتين ، أدت ثانيتهما إلى فقد قسم كبير من الأسطول البيزنطي .

ثم خرج الصليبيون في الشهر ذاته في العدد الكثيف إلى حيث صلاح الدين ، فرأى أن يغادر « دير البلح » إلى غزة ، معقل فرسان الداوية ، لعله يصيب منها غرضاً ، ولكن قلعها عزت عليه ، فاضطر للرجوع إلى مصر كما عاد أموري إلى فلسطين .

غير أن هذه السرية أظهرت للعيان مقدار ما أضحت فيه القوى الصليبية من خطر داهم من الشمال والجنوب ، وتحلى ذلك بأوضح صورة مرة أخرى حينما أغار صلاح الدين مصر على « أيلة »^(٢) ، كما أغار نور الدين على أنطاكية وطرابلس في وقت واحد أي في سنة ١١٧٠ م ، حتى لم يكن القول بأن صلاح الدين كان يسير في غزواته بأمر نور الدين ، على أن المراجع العربية تجمع على أن صلاح الدين لم يشأ مقابلة نور الدين في تلك السنوات ، وهو بما لا يدخل في صلب العلاقات بين الصليبيين وبين الملك نور الدين ، الذي أغار على بعض بلدان الإمارات اللاتينية بالشام ، وذلك أنه استغل حادثة جرت لمركبين خارجين من مصر ، لجآ لمدينة اللاذقية ، فاستولى عليهما أهواها الصليبيون ، وادعوا أنهما انكسرا ودخلهما الماء ، وكان من الشروط المبرمة بينهم وبين المسلمين أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه لهم ، لكن نور الدين لم يقبل هذه الحجة ، بل رأى الفرصة سانحة للإغارة على

(١) لما كانت أيلة على خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر مما يلي الحجاز فقد رأى صلاح الدين لإنشاء أسطول جديد تقي في دمه ، تمكن بواسطته من محاصرة البلد مجرا وبرا ، فلم يلبث أن سقط في يده ، وأسر الحامية وساقها إلى القاهرة واستباح أهل أيلة ، وكان سقوطها في يده في ربيع الآخر ٥٦٦ (ديسمبر ١١٧٠ م) . راجع النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، ابن الأثير . الكامل ، ج ١١ ص ١٦٤ ، وأتابكة الموصل ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ والروضتين ، ص ١٥٥ ، درر التيجان ، ق ٤ ، ص ٣٦٩ .

بلادهم ، فأرسل سرية إلى أنطاكية ، ونهض هو بنفسه في جماعة من العسكر إلى طرابلس حيث حاصر حصن « عرقة » ، وخرب ربحه ، ولم يستطع الاستيلاء على الحصن ، كما أنفذ سرية أخرى إلى قلعة « العريمة » وصافينا فاستولى عليهما عنوة ، واشتد نور الدين في بعث تلك السرايا التي أزجحت الصليبيين الذين أدركوا أنهم لن يستفيدوا شيئاً من ورائها ، سوى ضياع الكثير من قلاعهم وحصونهم إن استمرت الحال على هذا المنوال ، وأنه من الخير لهم أن يجبيوه إلى ما طلبه ، وهكذا ضمنوا العيش في هدوء ، وأسلبوه شحنة المركبين المصريين^(١) ، ولا شك في أن عدم التعاون بين نور الدين وصلاح الدين في تلك السنوات جعل أعمال نور الدين بصدد الصليبيين تسير على غير خطة معينة ، وتقتصر أحياناً على مناورات سياسية .

ولعل أوضح الأمثلة على ذلك أنه عندما اتفق « أمورى » والإمبراطور مانويل كومنين مرة أخرى على العمل مع المقاومة نور الدين ، لجأ نور الدين إلى إثارة سلطان سلاجقة الأناضول ضد الدولة البيزنطية ، وكان أمورى قد رأى — قبل مفاتحة الإمبراطور في هذا الموضوع الخطير — أن يعقد مؤتمراً من الصليبيين بالشام ، لبحث فكرة الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، والتأم المؤتمر في مستهل سنة ١١٧١ في بيت المقدس ، ودعى المؤتمر للنظر في القيام بحرب صليبية ، والاستعانة بمانويل كومنين . ثم مضى أمورى بنفسه إلى القسطنطينية في نفر من وجوه الصليبيين وأشرفهم ورجال الدين ، واستثنى من ذلك وليم الصورى حتى لا ينكأ الجرح ، فيذكر القوم الحلف الذى ولد في بزنطة وما لبث أن مات في بيت المقدس ، وأبحر الوفد الصليبي يوم ١٠ مارس ١١٧١ ورافقه فيليب دى بيللى بأسطوله^(٢) ، وذلك لكي يأمن أمورى حوادث الطريق وعواصفه . وتلقى البيزنطيون الوفد

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٧ ، والأتابكة ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، والروضتين ، ص ١٥٥ .

(٢) Du Gange-Rey : Familles d'outre-mer, p. 875. (٢)

الصليبي بالترحاب^(١) فما هي علة هذا الترحاب؟ أم هي الرغبة من جانب البيزنطيين في العودة إلى التحالف القديم؟ أم هي المتعة في رؤية ملك الصليبيين يغادر بلاده لمفاوضة وريث ألكسيس كومنين؟ على أية حال فقد بالغ الإمبراطور في الاحتفاء بالملك، حتى لكان القوم في استعراض^(٢)، وطال دور الترحيب، حتى كاد أموري أن يمل المقام ومشاهدة آثار البلاد والنزهة على شواطئ البسفور، ولما جاء دور المفاوضات التي جرت بين العاهلين على انفراد، استعرض أموري الموقف من جميع نواحيه، وأشار إلى مآدب بين نور الدين وصلاح الدين من الجفوة التي لا بد من اغتنامها^(٣)، ولم يفته أن ينص على إثارة المصريين^(٤) وأشاد إلى تعلقهم بالشيعة الفاطمية كذهب^(٥)، حتى وافق الإمبراطور مانويل كومنين على القيام بعمل مشترك^(٦).

أما نور الدين فقد رأى أن يقابل تلك الحركة بحركة ضد الدولة البيزنطية، فدفع قلعج أرسلان بن مسعود بن قلعج أرسلان صاحب ملاطية وسيواس إلى غزو أطراف الإمبراطورية البيزنطية، أو لإنجاده نور الدين بعسكر من عسكره لمحاربتها^(٧)، وقصد نور الدين من ذلك أن تجدد الدولة البيزنطية نفسها بين عدوين يتآخمانها ويغيران عليها قلعج أرسلان و«مليح» صاحب الدروب الأقصى، ومن ثم ينصرف الإمبراطور مانويل عن تنفيذ ما اتفق عليه مع أموري. وهذه هي علة إبطاء مانويل كومنين في تنفيذ اتفاقه مع

(١) G.T., p. 981 — 982. ويلاحظ سكوت معظم المؤرخين البيزنطيين عن هذه السفارة، بينما أشار «كناموس» إليها إشارة موجزة لا تعدو ثلاثة أسطر، وذلك بتحقيق Schlumberger: op. cit. p. 311 غير أن وليم الصوري هو الذي أفاض في ذكر تفاصيلها ودقائقها.

(٢) G.T., p. 984 — 987.

(٣) G.T., p. 984 — 985.

(٤) Ibid., Loc. cit. (٤)

(٥) Ibid., loc. cit. (٥)

(٦) Ibid., p. 987 — 988.

(٧) ابن الأثير. الكامل، ج ١١ ص ١٧٦، الأناطكة ص ٢٩٠ — ٩٢١.

ملك بيت المقدس^(١) . ويشير ابن الأثير إلى أن قلعج أرسلان أجاب دعوة نور الدين . أما شالندون فيشير إلى أنه رفض ملتمسه ، وأنه التقى بمأنويل سنة ١١٧٣ ، وأكد له حرصه على ما بينهما من المودة ، عازف عن مد يد المعونة إلى نور الدين ، والظاهر أن الرأي اللاتيني أصبح ، لأننا لانسمع شيئاً من جانب قلعج أرسلان ، على حين قام « ملبج » الأرمني فاستولى على أذنة والمصيصة وسيواس .

غير أن القدر لم يمهل نور الدين طويلاً ، فما لبث أن مات^(٢) بقلعة دمشق ودفن بها ، وخيل إلى أمورى أن الفرصة جد مواتية لتحقيق هدفه ، إلا أن الأجل لم ينسأ في حياته هو الآخر فمات في ١١ يوليو ١١٧٤ . وبذلك انطوت صفحة من تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، لتبدأ صفحة جديدة من التجمع والوحدة .

(٢) Schlumberger : op. cit. p. 335.

(٣) درر التيجان ، ص ٣٧٠ ، الذهبى ، تاريخ الإسلام ، ص ٢٥١ ، الجوهر الثمين ،

ص ٩٢ ، الدول المقطعة ، ورقة ١٦٤ ، ب .

الفصل الخامس

مظاهر الحياة العامة في المجتمعين الصليبي والإسلامي

في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر

الجيال المختلفة في بلاد الشام . طبقات المجتمع الصليبي . بعض
الوظائف والعادات الدالة على تأثير الصليبيين بالمجتمع الشرق
ونظمه الحكومية . النظم الصليبية العامة . العلاقات
الاجتماعية بين أفراد المجتمع وطبقاته المختلفة
حفلات الزواج

ربما خرج القارئ للفصول السابقة بصورة للعلاقات بين المسلمين
والصليبيين بالشرق الأدنى سداها العداء ، ولحمتها الحروب والبغضاء ، وتكاد
الحقيقة تكون عكس ذلك ، وليس أدل على ما كان بين المسلمين والصليبيين
من علاقات عامة وخاصة من عبارة لابن جبير — رحالة القرن الثاني عشر —
في أنه كان بينهم حدي يعرف بحد المقايسة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ،
ومواشيهم مختلطة ، لا حيف يجري بينهم فيها ^(١) . ولقد كانت الحياة
الاجتماعية في بلاد الشام إبان العصر الصليبي مزيجاً من الحياتين : الشرقية
الإسلامية ، والغربية الصليبية ، تداخلت إحداها في الأخرى ، وأثرت كل
منهما في صاحبها وتأثرت بها تأثراً مختلف قوة أو ضعفا حسب الاحتكاك
بينهما ، غير أنه قد يكون من التعسف أن نحاول وصف ظواهر اجتماعية
ثابتة ، اختص بها النصف الأول من القرن الثاني عشر للميلاد ، لأن التطور
كان يعمل في حياة الفريقتين عملاً متصلاً وعلى كرايا ، ولم يحدث قط
— بين يوم وليلة — أن هجر الناس دفعة واحدة قديماً ما ، أو أخذوا
بأسباب جديدة ما .

ولقد قدر لبلاد الشام أن تكون مسرحاً اختلفت إليه أجناس شتى من

الخلق، ومذاهب متباين بعضها عن بعض سياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وفكرياً، ولا نذهب في القول مذهب القائلين بأن تلك البلاد ألقت أن تهاجم وتغزى كما قال ستيفنسن^(١)، ولكنها وسعت في العصور الوسطى جماعات قد نعجب إذا استعرضنا أسماءها كالبنادقة، وأهل مرسيليا، وأمالفي، والجنوية الذين يمثلون النشاط التجارى البحرى. هذا إلى جماعات من المغامرين المخاطرين الذين قدموا مدفوعين بعوامل شتى، أقلها العامل الدينى وإن كان هو أظهرها للعيان، وقد ربط المغامرون حياتهم بالشرق بعد أن ضاقت بهم سبل الحياة فى بقاع أوربة، وإلى جانب هؤلاء الجماعات الشامية المسيحية من يعاقبة ونسطوريين وأرمن ومارون وسريان، وأولئك جميعاً يكونون كتلة دينية متشعبة، لا تقل عنها الكتلة الإسلامية، وقوامها السنيون، والشيعة، والدروز، والباطنية، والحشاشون، ثم هناك أيضاً اليهود، فكانت بلاد الشام بهرة اجتمعت فيها كل هذه القوميات والمذاهب، وتأثرت حضارتها الذاتية بحضارات تلك الفئات العجيبة.

وقد يخطئ من يظن أن العلاقات بين المجتمعين الإسلامى والصليبي إبان القرن الثانى عشر وما تلاه كانت حرية فقط، وعُد من يذهب إلى ذلك واضح فى أن كلا من الفريقين ناضل فى سبيل معتقداته ومقدساته الدينية فى بادئ الأمر، غير أن هذه الفورة الدينية ما لبث أن خمدت — إن لم تكن تلاشت — وحلت مكانها نظرة البصالح الذاتية عند الجانبين، ومظهر هذا التطور الجديد هو استئناف العلاقات التجارية، والتبادل التجارى، بدرجة أنه تكونت فى بلاد الشام أماكن لجاليات أوربية مختلفة، ساعد على قيامها وجود كثير من بلدان الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فهى منافذ للتجارة بين آسيا وأوربة، وأهم هذه الجاليات جماعة البنادقة الذين أسسوا لأنفسهم حياً معروفا باسمهم، فى كل ثغر من ثغور الشام الهامة، وثبت لهم

هذا الحق بمقتضى الاتفاقية المعقودة بينهم وبين مملكة بيت المقدس سنة ١١٢٤ ، هذا إلى جانب ما كان لهم من القناصل في صور وجبيل وأنطاكية للإشراف على الفتاقد الموسومة باسمهم^(١) ، بل لقد ذهب البنادقة أبعد من ذلك ، حين صارت لهم امتيازات خاصة ، كمقد محاكم خاصة بهم للنظر في شئونهم القضائية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أقاموا سجونا تضم المذنبين منهم^(٢) . وكان هؤلاء البنادقة يؤلفون مجتمعا قائما بذاته ، له قوانينه الخاصة ، وسجونهم ، وكنائسهم ، وفنادقهم ، وقناصلهم ، وكان البنادقة يقطعون يمين الولاء لهذا القنصل دون غيره ، وهذا يفسر لنا علة وقوفهم أحيانا إلى جانب المسلمين في صراعهم مع الصليبيين ، محتجين بأنهم في حل من تأييد إخوانهم في الدين بهذه اليمين المقطوعة لغيرهم ، كما يلاحظ أن الأجانب الذين يقيمون في الحى البندقي يخضعون لأحكام الجمهورية ، مهما تكن جنسيتهم . وهناك أيضا جماعة التجار من أهل أمالني من أعمال إيطاليا ، وهم أنشط العناصر التجارية الأوربية ، ويرجع وفودهم إلى الشرق إلى ما قبل الحروب الصليبية بعدة قرون ، أعني منذ القرن السادس لليلاد ، حيث أقاموا في بيت المقدس بمارستانا لمعالجة الحجاج والتجار الأوروبيين الوافدين لزيارة البقاع المقدسة^(٣) .

وبلى هؤلاء في المرتبة جماعة الجنوبية ، ومركزهم الرئيسي بيروت ، وقد امتد نفوذهم إلى الداخل حتى بلغ بلدة سيس بأرمينية الصغرى ، فأقاموا بها البيوت وفندقا وكنيسة ، وحذا حذوهم جماعة البيازنة ، الذين أصبح لهم قناصل كما للجنوبيين منذ سنة ١١٧٠م في أنطاكية ثم في طرابلس بعد ذلك بربع قرن^(٤) .

(١) Rey : Colonies Françaises en Syrie, p. 70

(٢) وذلك حسب اتفاقية يونيو ١٢٧٧ المبرمة بين بوهيمند السادس أمير أنطاكية وبين جاك كوتاريني دوق البندقية . راجع Rey : Recherches sur la Domination Latine en Orient, p. 37.

(٣) Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 96

(٤) Rey : op. cit. d'après Dol Borgo, Dip. Pisani, p. 85.

أما من الناحية الاجتماعية فهناك فئات ثلاث: هي الرقيق، والطبقة الوسطى، ثم طبقة الأشراف الصليبيين، ومنهم فئة حربية قوامها فئات الجند المختلفة، والعاملون في ميدان القتال على أية صورة.

أما العبيد، أو الرقيق، أو الأكارون — حسب ما تسميهم المراجع العربية — فيكادون يؤلفون مجتمعا قائما بذاته، وطبيعى أن يزداد عددهم يوما بعد يوم، تبعا للظروف المختلفة التي هي السبب في وجودهم، وكانت تجارة الرقيق نافقة السوق في تلك الأيام، يُقبل الأشراف على الانتفاع بها، ولا يتخرجون عن ممارستها، غير أن القائمين بها في العادة كانوا من التجار الجزيين والبنادقة الذين أثروا أثراء فاحشاً من جراء مزاولتها، ووصل مبعوثوهم إلى البلاد البعيدة، فبلغوا بلاد ما وراء النهر، وتأتت من جراء ذلك أن أصبح سوق الرقيق الذي يقوم عليه أهل جنوة والبندقية يضم أصنافاً مختلفة وأنماطاً متباينة، وألواناً غير متجانسة، فمنهم الأرمني والنوبي والقوقازي والفارسي والهندي والدلي، ومنهم اليوناني والروسي. وامتدت أعمال هؤلاء التجار حتى بلغت بلاد العرب ذاتها، فكانت جدة من الموانئ الهامة التي عرفت بتجارة الرقيق الذي يجلبه إليها النحاسون من بلاد الحبشة، وهناك مراكز تجارية أخرى لتلك التجارة بالذات، وللرقيق الوارد من جورجيا وروسيا وإيران وأرمينية الصغرى. وكان القوم يقبلون على شراء الرقيق إقبالا عظيماً، تدل عليه مغالاة النحاسين في الأثمان، وكثرة الضرائب التي يدفعها التجار عن الرؤوس التي يجلبونها، ونوعها.

على أن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون — كما هو المفروض — بخدمة السيد، وتكون حياتهم رهن تصرفه، وقد انتشرت في البيئة الصليبية عادة ألفها بعض جماعات المسلمين، وهي استعمال الخصيان في الحريم، حيث يقومون بخدمة نساء الشريف وبناته، بينما يحرم ذلك على الخادم الأوربي أو العبد من أى جنس كان.

على أن هناك نوعاً آخر من الرقيق هو أسرى الحروب التي تشب بين المسلمين والصليبيين ، وأفراد هذا الفريق — إذا بقوا في أسر الشريف — أرغمهم على احترام الزراعة والقيام بالحرف الصناعية التي يحتاجها السيد في مزرعته ، أو قهرهم على العمل في البناء^(١) ، غير أنه تحرم عليهم المتاجرة . وعلى الرغم من هذه القيود المفروضة على الرقيق فإنه كان محروماً من الحقوق^(٢) ، وكان الصليبيون يتمسكون أشد التمسك بوجوب تنصير العبد إذا حل ببقعة مسيحية ، وكان مولاه في الوقت ذاته مسيحياً ، وغير بعيد أن يحملوه على اعتناق مذهبهم الديني الخاص ، فإذا تنصر لم يجزوا بيعه أصلاً لمسلم مهماً أغلى^(٣) ثمنه ، ويرون في ذلك حطة للصليبي ، إن لم يكن خرقاً دينياً ، على حين كانت الحال على العكس إزاء رقيق الحرب ، فقد يقبل إطلاق سراحه إذا اقتدى^(٤) . وقد يذهب الصليبيون لعرض أسراهم على سراة المسلمين^(٥) ، أما الأسير من الأشراف فلا يسترق بحال من الأحوال ، لكن يحتفظ به للحصول على فدية كبيرة . وقد حدث في إحدى المعارك بين المسلمين والصليبيين أن أسر المسلمون روبرت صاحب حصن صهيون — الواقع بين اللاذقية وحماة — فلما جرى به إلى إيلغازي أمير ماردين رأى الأسير أن يفتدى نفسه بعشرة آلاف دينار ، فقال إيلغازي لمن حوله : « امضوا به إلى طغتكين لعله يفزعه فيزيدنا في القنطرة » ، فجاءوا به وهو يشرب ، فما رآه طغتكين حتى تناول سيفه وقتله ، فعتب عليه إيلغازي وقال : « نحن محتاجون إلى دينار واحد للبركان . وهذا كان قد قطع على نفسه عشرة

(١) راجع ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ .

(٢) فيما يتعلق برقيق الأرض ، راجع ، p. Paris : Les Historiens des Croisades ، p. 8 .

(٣) Assises de Jerusalem, t. II, p. 141, 281 ; Archives de l'orient latin, t. I, p. 490 .

(٤) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٧١ .

(٥) ابن منقذ : شرحه ، ص ٨١ .

آلاف دينار ، أنفذته إليك لتفزره لعله يزيدنا في القطيعة^(١) .
أما الفئة الثانية وهي الطبقة الوسطى فتألف من التجار والزراع وعمال
الإدارات المختلفة، عدا الحرية والموظفون ، وكان التجار طبقة ممتازة، تخول
من الحقوق ما لا يكاد تخوله بقية الفئات الأخرى ، لا ينظر في ذلك إلى
دين التاجر أو جنسيته ، حتى ليحدثنا أحد كتاب القرن الثاني عشر عما
شاهده بنفسه من احترام المسلمين والصليبيين على السواء لتاجر من كبار
تجار المسلمين، هما نصر بن قوام ، وأبو درياقوت « فلقوا فل صادرة وواردة
ببضائعهم، وقد رُهما عند الفرنجة والمسلمين خطير^(٢) » . كما كان يصرح للتجار
بإقامة الخانات في غير بلادهم ، تنزل فيها قوافلهم .

وينقسم الخان في العادة إلى قسمين : الطابق الأسفل وينزلون به رحالهم ،
أما الطابق العلوى فلا إقامة للتجار ذاتهم ، ويحسن أرباب البلد معاملة التجار
« برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل^(٣) » . ولم يكن للدين دخل في هذه
المعاملة ، ورغم ما قد يكون بين بلدين ما من الحرب إلا أن ذلك لا يقف
حائلا دون استمرار الحركة التجارية والتبادل التجاري بينهما، وكان المألوف
في هذا العصر أن يطلب التجار المسلمون حماية جماعة محمية في البلاد التي
يدخلونها وتكون في حوزة الصليبيين ، فلا يسهم أحد ما بسوء ، وهذا هو
الشأن مع التجار المسلمين من أهل الموصل ، الذين كانوا يذهبون إلى عكا ،
فيطلبون أن يكونوا تحت حماية فرسان الداوية ، كما أن التجارة قللت من
الحدة الدينية التي قد تكون بين الجماعتين ، إذ اعتاد القوم من صليبيين ومسلمين
أن يعقدوا أسواقا تجارية سنوية ، يفد إليها التجار دون نظر للفارق الجنسي
أو الديني^(٤) ، وقصة التاجر بن نصر وأبي در خير شاهد على هذا القول .

(١) ابن منقذ : الاعتبار ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٤ — ٤٥٥ .

(٣) ابن جبير : شرحه ، ٣٤٩ .

(٤) G.T., p. 718.

كان من جراء اشتداد التنافس التجارى وارتفاع شأن الطبقة الوسطى. اضطرار الصليبيين إلى اصطناع الوظائف المختلفة، لا سيما التي كانت مألوقة عند المسلمين، وأهمها المحتسب، وقد أخذوها عنهم بلفظها ونصها^(١). وكان الصليبيون يؤثرون إيكال هذه الوظيفة إلى رجل مسلم، علما منهم بأن ذلك أقرب إلى طبيعة الأمور في بلد شرق إسلامي، وإلى جانب وظيفة المحتسب نشأت وظيفة أخرى اقتضاها تعدد الإدارات في العصر الصليبي هي استعمال السكتاب « ويتقلدها الموظفون من الصليبيين والمسلمين على السواء »، وعلى الرغم من أن كتاب الديوان (الجرك) في عكا من النصارى^(٢)، إلا أنه كان يتطلب منهم حذق العربية لسانا وكتابة، ورئيسهم يُعرف بالصاحب، كما أخذ الصليبيون عن المسلمين وظيفة « المستحفظ » وسموها Moafese^(٣)، وهكذا نرى أن الطابع الإسلامى كان بارز الملامح ملبوساً في الإدارة الصليبية. وهناك كثير من الألفاظ في التجارة والإدارة، يمكن ردها — دون تعسف — إلى أصولها العربية، وليس ذلك بالمستغرب في بيئة كان لابد لها من أن تأخذ بقدر ما تعطى.

وأما الطبقة الثالثة في المجتمع الصليبي فهي طبقة الأشراف والنبلاء ورجال الدين، وهى طبقة تعيش في نعيم من الحياة يسرته لها أملاكها الشاسعة^(٤)، واحتفاظها بما ورثته من أوطانها الأولى وحملته معها إلى الشرق من الاعتراف بالإقطاع كنظام اجتماعى مفروغ منه، حتى لقد كان الشريف الصليبي في بلاد الشام يفرض على أتباعه الإقطاعيين إمدادهم إياه بالخيول والجياد إذا مادعت الضرورة الحرية إلى ذلك^(٥). كم أن هؤلاء الأشراف

(١) ابن خلدون . المقدمة ، الحسبة للثيزرى (تحرير السيد الباز العريقى) غير مطبوع ..

(٢) Brehier : L'Eglise et L'Orient, p. 94.

(٣) Arch. de l'Orient Latin, t. 1, p. 256.

(٤) Brehier : L'Eglise et l'Orient, p. 96 — 97

(٥) G.T., p. 975

(٦) ...

استطاعوا اكتناز الثروات الضخمة من وراء اشتغالهم بالتجارة ، لاسيما مع بلدان الشرق الأقصى ، التي كانت صلاتها التجارية ببلاد العراق والشام ترجع إلى ما قبل الصليبيين بأكثر من قرنين ، وبلغت ثروة سورية مبلغاً عظيماً ، يدل عليه مقدار دخل بيت المال^(١) . كما أن المسلمين لم ينقطعوا أصلاً عن ركوب بحار الصين سعياً وراء ما اشتهرت به تلك البلاد من أجود أنواع الحرير الذي عم استعماله في بلاد الشام حتى كان مبتدلاً ، واتصلوا بالغرب ، فكانت حلب ودمشق وحمص وحماة معروفة لدى التجار الأوروبيين بأنها مراكز التجارة لهم^(٢) .

وهناك من مصادر الثروة المالية «الجمرك» أو الديوان كما يسميه المسلمون ، وقد تعددت مصادر دخله المالى ، فبعضه يجي من القوافل لاسيما القادمة من مصر^(٣) وبلاد العرب القاصدة دمشق ، وهى قوافل متواصلة السير بين القطرين ، وكانت الضرائب تجبي على أحمالها في مدينة الداروم^(٤) ، وهى محطة للتفتيش والتقدير «والتكميس» ، كما كان الجمرك فى عكاصدر أساسياً من مصادر المال ، وقد وصفه لنا شاهد عيان بأنه «خان أمام بابه مصاطب مفروشة ، فيها كتاب من النصارى»^(٥) . كما كانت هناك جمارك أخرى فى معظم الثغور الصليبية^(٦) .

وهناك ناحية جديدة بالملاحظة ، تلك هى أن الصليبيين كانوا يعتمدون فى بعض الأحيان إلى زيادة الضرائب المقررة ، وذلك حين تستنفد الحرب قدراً كبيراً من الثروة العامة ، وحين يشعر القائمون ببيت المال بحاجته الملحة

Rey : Colonies Fran. p. 264. (١)

Heyd : His. du Commerce du levant, t. I, p. 373. (٢)

(٣) ابن جبير ، ص ٤٤٦ .

G. T. p. 975 (٤)

(٥) ابن جبير ، شرحه ص ٤٤٩ .

Heyd : op. cit. t. I, p. 375, note 1. (٦)

إلى ما يسد هذا النقص^(١)، كما أنهم قد يفرضون ضرائب إضافية إذا دعت إحدى الضرورات الحربية، كإقامة الأسوار أو ترميم الحصون، دفعة لأذى المغير^(٢).

وكان من مصادر المال « الأخشاب »، وقد عرفت بلاد الشام منذ القديم بوفرة أخشابها وجودة نوعها^(٣)، وأهم هذه الأشجار أخشاب الجوز^(٤)، ولم يفت هذا الصليبيين ذاتهم فأكثرُوا من زراعتها.

كانت حياة الأشراف - فيما عدا التجارة والحرب - أميل للدعة والراخي، وقد دفعهم إلى ذلك جو دافئ وفراغ كبير وإيثار للراحة، وتوفر ضرورات الحياة وكالياتها، فكانوا يعيشون عيشة فيها شيء من الانصراف عما تقتضيه ظروفهم المحيطة بهم^(٥) من وجود المسلمين المتحفزين للوثوب عليهم، واسترداد ما سلبوه منهم من الولايات والبلدان، فكان الأشراف الصليبيون يعيشون في قصور فخمة، تتألف في العادة من طابقين، في وسطها من الداخل نافورة^(٦) تتدفق منها المياه، وهذا ما لا يزال نراه في بعض البيوتات المصرية التي لازالت شرقية في طرازها؛ ويقاربها كثير من بيوت بغداد، حيث توجد في وسط الدار ردهة متسعة غير مسقوفة. وكانت أرض قصور هؤلاء الأشراف محلاة بالفسيفساء، وبماشيها من المرمر ولها مشربيات، وفي الداخل صالات فسيحة، قد أبدعت يد الصانع العربي نقشها، وتفنن في تلوينها بمختلف الأصباغ الزاهية. وعلى كل حال كانت هذه القصور تزيد في تلك النقوش

G. T., p. 1112 (١)

Assises de Jerusalem. t. II, p. 378. (٢)

G.T., p. 475 (٣)

(٤) ابن ميسر، ص ٤٦٤.

Barker: The Crusades, p. 48 — 99, 104 (٥)

(٦) وكانت توجد في وسط الدار بركة ماء، راجع أسامة: الاعتبار، ص ١٠٧.

والتهاويل حسب ثروة الشريف صاحب الدار (١).

وهناك صورة شقيقة من صور الحياة الشرقية في العصور الوسطى ، وقد كادت هذه أن تنقضى : تلك هي وجود الحمامات ، والذين زاروا بغداد أو دمشق يلحظون تعدد هذه المساجح في هاتين العاصمتين ، وقد يعجب المرء أن تتخذ هذه الحمامات نوادي يجتمع فيها المستحمون لتناول المشروبات الساخنة ولتجاذب الأحاديث ، في جو شرقي يعبق بالدفء وأنواع الطيب ، بل لا نغالي إذا قلنا إن كثيرا من المشكلات والصفقات قد تحل وتبرم في هذه الحمامات ، وهكذا كانت الحال في بلاد الشام وقت احتكاكها بالصلبيين ، وانتقل هذا إلى الصليبيين أنفسهم ، فكانوا لا يرون غضاضة في غشيان تلك المساجح هم ووزجاتهم (٢) . وظاهر من تاريخ هذه الفترة أن المسلمين وحدهم - دون الصليبيين - هم الذين كانوا يقومون بإدارة هذه الحمامات ، وقد يغشاها الصليبيون أنفسهم ، غير أنه يمكن التمييز بين الجماعتين بأن الصليبيين كانوا ينكرون شد المئزر على الوسط في الحمام ، الأمر الذي كان يثير في بعض الأحيان مشادة ، أو يبعث على النكتة الرائعة والفكاهة اللطيفة .

أما الطبقة الحربية في المجتمع الصليبي فيعنيننا منها المشاة ، وبتألفون من رماة السهام والأقواس ، وحملات الفئوس والسيوف القصار التي يشدون بها إلى زناز حول أو ساطهم ، ويصف لنا أحد الكتاب المسلمين ممن شاهدوهم بأن رجالة الصليبيين كانوا قسمين . قسم يسير أمام الخيالة ، وقسم مستريح يمشى ولا قتال عليه ، فإذا تعب المقاتلة أو أئختهم الجراح قام مكانهم المستريح ، أما الخيالة فلا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة (٣) ، وأما المسلمون فيذهبون في أثناء

(١) هذا يحمل وصف شاهد عيان ألماني ، راجع

Rey Colonies Fran., d' après Hermann, Chronol.

(٢) أسامة ، كتاب الاعتبار ، ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٢٥١ .

القتال إلى جعل الرجالة حول الخيالة ^(١). وكان الصليبيون والمسلمون يبذلون عناية كبرى في انتقاء الجياد العربية الأصلية للسلم والحرب سواء، ولا يدخرون المال في سبيل اقتنائها مهما أغلى التجار أثمانها، وذاعت عندهم شهرة جياد «هما» القريبة من شيراز بإيران. وكان الشائع في هذا العصر استعمال النار الإغريقية التي لا تخمد إلا بالخل أو الرمل، وزاد المسلمون عليها استعمال الآلات لرمي المنجنيق، وكان هناك مهندس قتي يعاونه جماعة من «الزرايين المقاتلة»؛ وقد يعتمد الأمراء أنفسهم للقيام بذلك العمل ^(٢).

وفي منتصف القرن الثالث عشر عرف المسلمون البارود أو «ملح الصين» كما كانوا يسمونه، وترجع تسميتهم إياه بهذا الاسم إلى أنهم أخذوه عن الصينيين، أول من وقفوا إلى اكتشافه، وكان من الطبيعي لهؤلاء القوم — والعصر عصر حرب ونزال — أن يشتد اهتمامهم بانتقاء السلاح من حيث الصناعة والجودة والنوع، ومن المدن الهامة التي عرفت إذ ذاك بجودة صنع السلاح القاهرة حتى لقد كان يكفي أن يقال في العصر الوسيط «المصرية» تزكية للسيوف ^(٤)، ونافست دمشق القاهرة في هذه الناحية، وراح اسمها علما على نوع من السيوف الكريمة. هذا إلى أن الصليبيين عرفوا استعمال الجمال في الحرب، ورأوها في بعض المواضع أصلح من الجياد والصفانات، وقد تمسكنا من الوقوف على هذا بفضل مخطوط أرمني عثر عليه اليزروبرت الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وعده «رى» وثيقة غالية تدل على استعمال الصليبيين للهجن.

كان من الواضح أن يتشبه الصليبيون بالمسلمين في ملابسهم وقد نزلوا بينهم ^(٤) ونسى الكثيرون منهم لغتهم الأصلية وبلدانهم الأولى، حتى ليأخذ

(١) ابن شداد. شرحه، ص ٢٥١.

(٢) النوادر السلطانية، ص ١٠٩، ١٧٧.

(٣) H. Lamb: The Crusades, p. 292.

Rey: Colonies Fran., p. 90. (٤)

عليهم أحد مؤرخيهم أنهم «تبلدوا» وتزوجوا من أرمنيات وعربيات ، ويقول إن الصليبي قد يظله سقف واحد هو وأهل زوجته الأرمن أو العرب ، وأنهم أصبحوا «أسويين» ، وهو يعني بهذا أنهم أصبحوا «شرقيين» في عاداتهم وتقاليدهم ونمط حياتهم^(١). كما أنهم أخذوا عنهم استعمال «الكوفية» حول القبعة القصيرة الجوانب ، وعمدوا أيضاً إلى إطالة ملابسهم وتحليتها بالجواهر حسب مكانة المرء في قومه واختلاف المراتب^(٢)، كما كانوا يلبسون «الكلوثة» على رؤوسهم، ويؤثر عن بلدوين الأول (١١١٠-١١١٨) أنه على الرغم من قرب عهده بأوربة كان يؤثر استعمال الملابس الشرقية ، وكان يحمل أمامه بحن من الذهب محلى بالنسر^(٣).

وكانت السيدات الصليبيات يأخذن عن الجو الشرقي الذى يتفنسن فيه مظاهر الحياة التى انطبعت صورها واضحة جلية فى ملابسهن، فكان يرتدين ما تلبسه أمثالهن من الصقليات اللاتى عاشرن المسلمات، وتمتاز ملابسهن بأنها مجردة الأذيال ، وتتألف من قميصين مرسلين إلى القدمين^(٤) ، وكانت بعض طبقات الصليبيين تفرض على نساؤها وبناتها — إذا بلغن الحلم — أن يضربن الخمار على وجوههن كما هو مألوف فى البيئة الإسلامية وقتذاك، ويأبون عليهن أن يخرجن إلى الأسواق سافرات ، بل إنهم ما كانوا يسمحون لهن بالخروج إلا للضرورة القصوى، كالذهاب إلى الكنائس والحمامات. أما الرجال الصليبيون فقد أطلق بعضهم اللحية تشبها بالشرقيين، وكانوا يستعملون النعال التى يستعملها المسلمون فى بيوتهم^(٥).

cf. Lamb : The Crusades, p. 262 (d'après Fulcher). (١)

Rey : op. cit. p. 11 — 12. (٢)

Brehier : L'Eglise et l'Orient p. 61. (٣)

(٤) راجع ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٥٣ .

(٥) يذكر 2 Rey : op. cit. p. 16 أن نساء الطبقة الوسطى من أهل البندقية كن يعشن عيشة شرقية خالصة ، بل إنهن ما كان يسمح لهن بالخروج حتى للكنائس نظراً لوجودها ملحقة فى قصورهن . أما فيما يتعلق بأوجه الشبه بين مملكتى صقلية وبيت المقدس أثناء القرن الثانى عشر فراجع Barker : op. cit. p. 40, note 1.

ولم تكن العلاقات بين المسلمين والصليبيين علاقات عداء ونضال دائما، بل كانت هناك فترات من السلم والتآخي، تزول فيها الحزازات، وينقلب النضال إلى مودة وإلى أخوة عجيبة بين الفريقين، تستوى في هذا الطبقات المختلفة من البيثتين، وكتاب أسامة ابن منقذ حافل بهذه الصور المشرقة عن الفروسية في تلك العصور ويبيان مدى الارتباط بين الجماعتين، وحسبنا أن نشير إلى أن الصليبيين كانوا يحسنون معاملة من عندهم من الموظفين المسلمين^(١)، كما كان المسلمون يؤثرون أن يكونوا في البلد الصليبي في حماية جماعة فرسان الداوية فلا تنالهم يد سوء في أنفسهم وأموالهم ومتاعهم، وقد تدفعهم العلاقات الودية إلى تبادل الهدايا فيما بينهم رغم ما قد يكون بينهم من حروب عنيفة قاسية، كما حدث من إرسال صلاح الدين إلى ريموند الثالث أمير طرابلس مجموعة من الجياد والأسلحة، بعد أن أطلقه من أسر نور الدين^(٢).

كان القوم إذ ذاك يهتمون بالغ الاهتمام بالمحافظة على الشرف، وإن أقل طعنة يطعن بها الفارس لتقرح لها عيناه إن لم يدفعها، فإن دفعها عاد قرير العين مثاوج الفؤاد^(٣)، يستوى في ذلك الرجال والنساء؛ وقد صور أسامة أمه « ذات نخوة أشد من نخوات الرجال »، إذ عمدت إلى ابنة لها أجلستها على حافة الوادي وتهايات لإلقائها على صخراته إذا هاجم الحشاشون دارها، كما أن النساء كن لا يغبن عن القتال بل يباشرنه مباشرة الرجال الفرسان له^(٤)، بل إنهن كن يقفن وسط الخيل^(٥).

ومع ما انتطبع عليه القوم من الفروسية والبطولة إلا أن العصر لم يكن

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٤٧ .

(٢) شرحه ، ص ٤٥٥ .

(٣) الاعتبار ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤) أسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٢٣ — ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ .

(٥) راجع القسم الأول من قصة بركة في الاعتبار ، ص ١٢٢ .

خاليا من المعتقدات الزائفة ، فقد ذكر أسامة أن قائداً تركياً اسمه «برشك» زعم أن هناك شقا في مسجد لا يستطيع دخوله ولد زنا ، وأصر التركي على رأيه إصراراً حمل أسامة على مجاراته ، رغم أنه « ما يصدق ما قاله » ، وتابعه أكثر العسكر في هذا الرأي الموهوم ، واضطر إلى تجربة المسألة تجربة اطمأنت لها نفسه ونفوس من حوله ^(١) . ومثل هذا ما رواه أسامة أيضاً من أن أخاه عز الدولة أبا الحسن اشترى حصاناً كريماً ، ثم أخرجه في ضمان قرية كانت بين بني منقذ وبين فارس صليبي من كفر طاب ، فبقى الجواد عند الصليبي سنة ثم مات بعدها ، فبعث يطلب ثمنه من بني منقذ ، متذرعاً « بأنهم سقوه شيئاً يموت منه بعد سنة ^(٢) » ، وكذلك ما يزعمه القوم إذ ذاك من أن جريح النريموت إذا بال عليه الفارة ^(٣) .

وامتاز العصر الوسيط في الشرق والغرب بالفروسية ، سمة بارزة له ، وكان الصليبيون لا يستطيعون نقض أمر أبرمه الفرسان ، بل إن الملك الصليبي نفسه لا يستطيع له نقضا ^(٤) . والظاهر أن الفروسية اختلطت عندهم بالتربية الاستقلالية ، فعمدوا إليها ينشئون عليها أبناءهم ، وإن من مبادئ التربية الحديثة أن نهى للطفل فرصة الوقوف على الشيء بنفسه دون أن تنهيه عنه خوفاً عليه وإشفاقاً به ، فقد حدث أسامة أنه رأى حية على جدار ، فتناول سلباً صعد به إليها وحز رأسها على مرآى من أييه الذي ما نهاه عما هو آخذ بسبيله وما فيه من الخطر المحقق عليه . وهذه التربية هي التي كانت تحملهم على الخروج للقنص ، حتى لقد كان الصيد — رغم أخطاره — أحب رياضة إلى القوم إذ ذاك ، وهي رياضة فيها كثير من أعمال الحركة والتفكير المستقيم ، لما تتطلبه بعض المواقف من سرعة البديهة وحضور الذهن ، وهذه الرياضة ذاتها هي التي مكنت رجلاً مثل أسامة

(١) أسامة ، شرحه ، ص ١٥ .

(٢) أسامة بن منقذ ، شرحه ، ص ١٥ ، ١٧ .

(٣) شرحه ، ص ١١١ .

(٤) راجع الاعتبار ، ص ٦٥ .

أن يلم الملامة غير ضئيلة بطباع الضواري^(١).

ولم تخل روح هذا العصر من النكتة الرائعة اللطيفة، ترسل على لسان الصعلوك أو الأمير، وقد تكون أشد وقعا من السهام، ألا ترى إلى قول ابن الأثير في معرض تهكمه بأحد الصليبيين إذ يشبهه بالنعامة خرجت تطلب قرنين فعادت بلا أذنين^(٢). ويروى أحد المؤلفين المسلمين أن فارسا صليبيا من شياطين الإفرنج اسمه سير آدم كان على كنيسة حناك، وكان هناك نمر روع أهل تلك الناحية وعز صيده على الكثيرين وخافوا منه، فكبر الأمر على سير آدم، وطلب إلى القوم أن يعلموه بخبره إن عاد للظهور فأطاعوه، فخرج إليه، فوثب عليه النمر فقتله، فراح الفلاحون ينعمون بالنمر « بالنمر المجاهد »^(٣). وشيبه بها قصة الحمار الذي حملة أسامة أربعة آلاف دينار، فانطلق يسابق الريح، حتى إذا فقد الخرج منه عاد إلى الدار حيث مربطه، كأنما « كان قصده أن تضيع أربعة آلاف دينار »^(٤) وكذلك تعليق أسامة على قصة الرجل الذي أدخل ابنته الحمام مع القوم.

على أن هناك جانبا جديدا في الحياة العامة ذلك هو التطبيب؛ وقد عنى المسلمون ومن قبلهم العرب منذ العصر الجاهلي بهذا الجانب^(٥)، والطب في العصر الصليبي مجموعة من التجارب، أنزلها مرور الأيام منزلة الحقائق والبداهات، رغم ما ينطوى عليه من البطلان الواضح والجهل الملموس، ونحن وإن كنا لا نستطيع الحكم على قيمة « الوصفات » العلاجية التي نراها في ذلك العصر، إلا أنه لا شك أنها تعطينا صورة واضحة عن تفكير القوم العلاجي، وهي إلى جانب ذلك تبين لنا قيامها على التجربة، من ذلك أن رجلا من المسلمين كان مصابا بالقيلة، فنزل على حى من أحياء العرب في بادية

(١) انظر الدكتور فيليب حى في مقدمته العربية لكتاب الاعتبار.

(٢) أسامة ابن منقذ، كتاب الاعتبار، ص ١١.

(٣) أسامة ابن منقذ، شرحه، ص ١٤.

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 7 — 10; et la trad. Française par Dr. Renaud, p. 10 — 12.

السماء ، فاستضافوه بضيور لم يدر كنهها ، حتى إذا هوَّم النوم أفاق ، وقد زالت القيلة ، فسألهم عما طبخوه له ، فقالوا له إن هي إلا فراخ غربان ، فلما بلغ الرجل بغداد دخل على متولى بيارستانها ، وروى له قصته ، فجاء بأفراخ غربان لمن بهم هذه العلة فاشفوا . وهذه القصة تبين لنا قيام الطب في البيئة الإسلامية على الناحية التجريبية^(١) وكان المسلمون يداوون بعض الأمراض بالخل ، ويعرفون الفارق بين البرص وحب الصبا ، ويدركون ما في البيض من قيمة غذائية وعلاجية تشفى الخراج^(٢) . ولقد تقدم الطب في أخريات القرن الثاني عشر وطوال القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذي شهد حركة في التأليف العلمي في هذه الناحية^(٣) . وكثرت في بلاد العالم الإسلامي المستشفيات والمارستانات^(٤) .

وينقسم الطب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر إلى قسمين ، أحدهما ضرب يمارسه من لا باع له فيه ، وآخر يقوم على الناحية العلمية الدقيقة ، وهو في الحالين يتوقف على مهارة الطبيب ، وقدرته ، وحسن تصريفه لما هو أمامه ، والظاهر أن الصليبيين كانوا يدركون تقدم الطب عند المسلمين ، فقد بعث صاحب أحد الحصون إلى عم أسامة ، يطلب منه أن ينفذ إليه طبيباً عربياً ، يداوى بعض أصحابه ، فبادر بإرسال طبيب نصراني اسمه ثابت ، ورغم مقدرة ثابت الطبية ، إلا أنه عز على أحد المطببيين الصليبيين أن يترك الميدان لعربي ، فقام بيتر ساق المريض بالفأس ، وضربها ضربة أسالت مخ الساق ، ومات صاحبها من ساعته ، كما أن هذا الطبيب الصليبي ذاته عمد إلى سلخ رأس امرأة ، وحكَّ عظمها بالملح ، ليُسْذَهب عنها الجنون ،

(١) الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٨٢ .

(٣) أمثال كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وتاريخ الحكماء

لابن الفطوى ، التوفى سنة ١٣٤٨ .

(٤) Browne : Arabic Medicine, p. 100 — 102. (٤)

فاذهبها هي والجنون إلى غير رجعة^(١). كذلك كان الصليبيون يتخذون لهم أطباء خصوصيين من بين العرب^(٢).

على أنه كان إلى جانب هذا الضرب من الدجالين جماعة من الأطباء الصليبيين المهرة، بشهادة المسلمين أنفسهم، وفيهم من لا يطلب على علاج مرضاه أجرأ، حتى ولو كان من المسلمين، فقد ذكر أسامة أنه كان بشير رجل اسمه أبو الفتح، وله ولد قد طلعت في رقبة خنازير، كلما ختم موضع فتح موضع، وشامت الظروف أن يقدم إلى أنطاكية، وأن يلتقى برجل أفرنجي اطلع على الغلام، فقال لأبيه «تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواء يبرئه، لا تأخذ من أحد تداويه به أجر» ثم وصف له أشنانا غير مطحون، يحرقه ويربّه بالزيت والخل والحاذق، ثم يضعه على حيث الخنازير، فيبرأ الغلام، واستفاد أسامة نفسه منه، في أنه «داوى به من طلع فيه هذا الداء فنفعه، وأزال ما كان يشكو»^(٣).

ولم يخل العصر — رغم وجود كثير من أعلام الطب فيه — من الإيمان بقدره القس على الشفاء، فقد حدث في ذات مرة أن مرض أحد الفرسان الصليبيين، فعرضوه على قس، إيماناً ببركته وقدرته على شفاء الفارس، فلما رأى القس المريض ليس شمعاً، وسد به أنف الفارس، فأراحه الراحة الأبدية^(٤).

ومن النواحي الطريفة التي تمثل الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في القرن الثاني عشر حفلات الزواج عندهم، ويدعى إليها المسلمون والمسيحيون على السواء، ويختلط الرجال فيها بالنساء، وقد حضر ابن جبير الرحالة إحدى

(١) أسامة بن مقذ: شرحه، ص ١٣٢ — ١٣٣.

(٢) Lamb: op. cit. p. 261.

(٣) الاعتبار، ص ١٣٣ — ١٣٤.

(٤) شرحه، ص ١٣٧ — ١٣٨.

هذه الحفلات ، وترك لها وصفاً دقيقاً ، إذ ذكر أن الرجال والنساء قد اصطفوا صفين عند باب العروس ، وراحت الأبواق والمزامير وجميع آلات اللهو تضرب بين يديها ، حتى خرجت بين رجلين يمسكها من يمين وشمال ، والعروس في أبهى زى وأنغر لباس ، تسحب أذيال الحرير ، وعلى رأسها عصا من ذهب ، قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، ومثلها على لبتها ، وأمامها جلة رجالها من النصارى فى أنغر ملابسهم ، ووراءها أكفأؤها ونظراؤها من النصرانيات ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا فى طريقهم سباطين يتطلعون فيهن ، ولا ينكر عليهم ذلك ، وساروا بها حتى أدخلوها دار بعلمها ، وأقاموا يومهم ذلك فى وليمة ^(١) .

ولم تكن دعوة المسلمين إلى أمثال هذه الحفلات شيئاً منكوراً ، فهم فى السلم « أخوة » ، حتى لنرى رجالاً من الفريقين يتآخون ، أو ينادى كل منهما صاحبه : « يا أخى » ^(٢) بل لعل الأغرب من ذلك أن الفريقين يصلون فى بقعة واحدة فى عكا ، حيث كان بها مسجد ، أبقي محرابه على حاله ، ووضع الصليبيون فى شرفيه محراباً لهم ، « فالمسلم والكافر يجتمعان فيه ، يستقبل هذا مصلاه ، وهذا مصلاه » ^(٣) كما أن المسجد الأقصى ، وقد أصبح بيد الداوية ، قد جعل الصليبيون من أحد أجزائه كنيسة لهم ، فكان أسامة إذا وفد على بيت المقدس دخل هذه الكنيسة ، « وأخلى له الداوية ذلك المسجد الصغير ليصلى فيه » ^(٤) ، وتوثقت وشائج المودة بين أسامة وبين الداوية ، حتى ليسمى بهم « أصدقائى » ^(٥) . وكان المسلمون يحمدون سيرة حكمهم الصليبيين ، حتى ليتأسف أحد الكتاب ، فيرى أن هذه « من الفجائع

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥٣ ، وزاجع وصف الحفلات الإسلامية وجلوة العروس

فى الاعتبار ، ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) أسامة : الاعتبار ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٥١ .

(٤) الاعتبار ، ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٥) الاعتبار ، ص ١٣٤ .

الطارئة على المسلمين ، أن يشتكى الصنف الإسلامى فجور صنفه المالك له ،
ويحمد سيرة ضده وعدوه من الإفرنج ، ويأنس إلى عدله ^(١) ، كما كانت
فروسية المرء تقرّبه وتدنى منزلته من القلوب حتى ولو كانوا من الملوك ،
كما حدث لأسامة من أنه حضر مجلسا لفولك الخامس ملك بيت المقدس
(١١٣١—١١٤٢) فقال له الملك «وحق ديني لقد فرحت فرح عظيم» فأجابه
أسامة «الله يفرّح الملك ، لماذا فرحت؟» قال «قالوا لي إنك فارس عظيم ^(٢)» .
ولعل أجمل الصور القلبية التي توضح لنا جانب الأخوة بين المجتمعين الصليبي
والإسلامى ، مارواه أسامة بن منقذ ، من أن روجر أمير أنطاكية
كان قد بعث رسولا من قبله إلى مملكة بيت المقدس في شأن خاص له ،
وخاف روجر على الرسول عادية الطريق ، فكتب إلى عم أسامة كتابا
يقول له فيه « أسألك أن تنفذ خيلك تأخذه من أفامية إلى رمنية ^(٣) » ، والذي
يعنينا من هذا الخبر دلالاته الصريحة على المودة التي تربط بين رجال كلا
الفرقتين ، والظاهر أن العلاقات الودية كانت بين أبي أسامة وعمه ، وبين
كبار الصليبيين ، لاسيما بلدوين أمير أنطاكية ^(٤) .

ولقد كان من المعروف في هذا العصر استعمال حمام الزاجل ، فقد
استعمله نور الدين في بعض حروبه ^(٥) ، ولم يفهم استعمال القذاحة
لإشعال النار .

وبعد ، فهذه صورة موجزة من الحياة التي كان يحياها المسلمون
والصليبيون في خلال قرون الحروب الصليبية .

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٤٨ .

(٢) الاعتبار ، ص ٦٥ .

(٣) الاعتبار ، ص ٨٧ .

(٤) شرحه ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٥) كتاب الروضتين ، ص ١٥٦ من الطبعة الأوربية .

ثبت

ثبت باختلاف رسم الأعلام في المراجع العربية والفرنجية في العصور الوسطى

Ainardus	أئر	Civitot	هرسك
Albara	ألبارة	Coible	الخوابي
Alexandrette	اسكندرون	Cressum	كيسون
Amaurri	أموري . عموري . مري	Dargan	ضرغام
Apamée	أفامية	Demenhut	دمنهو
Artesie	أرتاح	Doliche	دلوک
Arzen	أرضروم	Emése	حمص
Ascanios	بحيرة لزنك	Ermis	الأرمن
Atareb	الأتاب	Erzeramus	أرضروم
Aynart	أئر	Escalone	عسقلان
Aynarz	أئر	Eski-Alep	فسسرين
Babiloine	القاهرة	Fons Muratez	ممرضة
Baccar	البقاع	Fons Murez	»
Barzuya	قلعة البرزة	Gaban	جبن (قلعة على أحد فروع جيحون)
Baudas	بغداد	Gaktha	كياكية (حصن افتتجه جوسلين الثاني على شاطئ الفرات)
Beben	البابين (موقعة)	Gaveras	خوريل صاحب ملطية
Belda	بلدة	Germanicée	مرعش
Bersaphut	بصر فوط	Gerwase	جرفاس (قائد أسره ظهير الدين أتابك دمشق وقتله بها)
Bethsan	بيسان	Giraut de la Liche	جيرار اللاذقي
Bile	ألبيرة	Graieus	الإغريق
Bire	»	Habesce	العباسية
Biredjik	»	Habeys	عباس الصنهاجي
Biréjik	»	Haly Maiores	الإمام علي
Bir-el-Cani	بئر العيش	Harenc	حارم
Borgoldus	آق سنقر البرسقي	Hasart	عزاز
Bokobeis	قلعة كبس	Hascebi	قرية الحشب
Borsequinus	آق سنقر البرسقي	Hatab	عينتاب
Borses	»	Hazarth	عزاز
Bouchie	البقاع	Heus	البرج
Cahaire	القاهرة	Hiaroquin	حسام الدين قمر تاش أمير ماردين
Cahere	»	Hierapolis	منبج
Calquis	فسسرين	Jéricho	أريحا
Caphorda	كفر طاب	Koradi	تل الأكراد (حصن)
Cave-Roob	وداي الراهب	Lacun	الأكمة
Cerep	أتاب	Lamonie	النبا
Chalcis	فسسرين	Laodicée	اللاذقية
Chipre	قبرص		
Cité Bernard d'Etampes	درعات		

Larissa	شير	Salihadins	صلاح الدين
Larris	العريش	Samosac	سيماسط
Lattaquia	اللاذقية	Samosate	»
Mamistra	المصيصة	Sardenas	زردانة
Margat	المرقب	Sardone	»
Martyropolis	مينا رقين	Sarmit	سرمين
Menehut	دمنهوور	Savar	شاوور
Meliténe	ملاطية	Sayete	صيدا
Missis	المصيصة	Sebaste	سبواس
Mopuesta	»	Siha	الشعبة
Morés	مرعش	Siracons	شيركوه
Mulane	مولانا (كناية عن شاوور)	Sur	صور
Musa paradisi	شجر الموز	Surie	سورية . بلاد الشام
Naybes Sorns	كفيل السلطنة . نائب السلطان	Surien	السرمان
Neherellus	نهر العجوز	Surie Sobal	وادي عربية
Néocesarée	قلعة نيكسار	Syracons	شيركوه
Népa	أنب	Tanoshman	دانشمند
Nicée	أزنيق	Tantayos	ألتوتاش
Nicomédie	أزميد	Tell Achichan	تل العطشان
Nosaredins	الناصر قاتل الظافر	Theodosiopolis	أرضروم
Nouceiry	»	Torage	تروجة
Omfroy	الهنفري	Tourtouge	»
Qarram	حران	Tulupe	دلوك
Quiryacos	قرياقوس	Tur	الترك
Rames	الرملة	Turbessel	تل باشر
Ravendel	راوندان	Ziebel	جبله

المراجع العربية

- ابن الأثير — عز الدين أبو الحسين علي (+ ٦٣٠ هـ) :
 (١) الكامل في التاريخ (المطبعة الأزهرية المصرية ، سنة ١٣٠١ هـ) ، ج ١٠ ، ١١ ؛ وفي مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٧ .
 (ب) أتابكة الموصل (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المسلمين) ، ج ٢)
 سنة ١٨٤٤ .
- ابن أبيك — أبو بكر بن عبيد الله (+ حوالى ٧٠٩ هـ) :
 درر النيجان ، وغرر تواريخ الأزمان — (تصوير شمسي بدار الكتب
 المصرية ، رقم ٢٦٠٥ تاريخ) .
- ابن جبير :
 نبذة من رحلة (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المسلمين ، ج ٣) .
 ابن الجوزي — الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (+ ٥٩٧ هـ) :
 (١) شذور العقود ، في تاريخ العمود . (تصوير شمسي بدار الكتب
 المصرية ، رقم ٩٩٤ تاريخ) .
 (ب) المنتظم في أخبار الأمم (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ، رقم
 ١٢٩٦ تاريخ) .
- ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٦ هـ) :
 العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن
 عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر (طبع بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) .
- ابن خلكان — شمس الدين أبو العباس أحمد (+ ٦٨١ هـ) :
 وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان (مجلدان ، طبع بولاق ، سنة
 ١٢٧٥ هـ) .
- ابن دقاق — ابراهيم بن محمد بن أيدير (+ ٨٠٩ هـ) :
 الجواهر الثمين ، في سير الملوك والسلاطين (مخطوطة بدار الكتب المصرية ،
 رقم ١٥٢٢ تاريخ) .
- ابن الشحنة — أبو الفضل محمد (+ حوالى القرن التاسع الهجرى) :

- الدر المنتخب ، في تاريخ مملكة حلب (بيروت ، ١٩٠٤ م) .
- ابن شداد — القاضي بهاء الدين (+ ٦٣٢ هـ) :
- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المسلمين ، ج ٣) .
- ابن العديم — عمر بن عبد العزيز بن أبي جرادة (+ ٦٦٠ هـ) :
- (١) بغية الطلب في تاريخ حلب (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٣) .
- (ب) منتخبات من تاريخ حلب (شرحه) .
- ابن العماد الحنبلي — عبد الحى بن أحمد (+ ١٠٨٩ هـ) :
- شذرات الذهب ، في أخبار من ذهب ، ج ٤ .
- ابن القلانسي — أبو يعلى حمزة (+ ٥٥٥ هـ) :
- ذيل تاريخ دمشق ، (نشره أمدرود . طبع بيروت ، ١٩٠٨ م) :
- ابن ميسر — أبو عبد الله محمد بن علي (+ ٦٨٧ هـ) :
- منتخبات من أخبار مصر (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٣) .
- ابن واصل — القاضي جمال الدين (+ ٦٩٧ هـ) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (تصوير شمسي بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
- أبو شامة — شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن (+ ٦٦٥ هـ) :
- الروضتين في أخبار الدولتين ، جزءان (مطبعة وادى النيل بالقاهرة ، سنة ١٢٨٨) ومنتخبات منه في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية ، ج ٤ .
- أبو الفداء — الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل (+ ٧٣٢ هـ) :
- المختصر ، في أخبار البشر (الأستانة ١٢٨٦ هـ) :
- أبو المحاسن — ابن تفرى بردى (+ ٨٧٤ هـ) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦٠٥ (طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة) .
- أسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ) :

كتاب الاعتبار (نشره الدكتور فيليب حتى) ، طبع جامعة برنستون
بالولايات المتحدة الأمريكية ، سنة ١٩٣٠ م .

البيدارى - الفتح بن على (+ حوالى ٥٧) :
مختصر تاريخ دولة آل سلجوق (طبع مطبعة الموسوعات القاهرة
سنة ١٣١٨ هـ) .

جمال الدين الوزير - أبو الحسن على بن كمال الدين (+ ٦٢٣ هـ) :
الدول المنقطعة (تصوير شمسى بدارالكتب المصرية ، رقم ٨٩٠ تاريخ) .
حبشى - حسن :

الحرب الصليبية الأولى (مذيلة بالترجمة العربية الكاملة للحوليات الفرنجية
Gesta Francorum) (مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٧) .

حسن - الدكتور حسن ابراهيم :
الفاطميون فى مصر ، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (المطبعة
الأميرية بالقاهرة ، سنة ١٩٣٢ م) .

الذهبي - الحافظ شمس الدين أبو عبد الله (+ ٧٤٨ هـ) :
تاريخ الإسلام ، وطبقات المشاهير والأعلام (مخطوط بدار الكتب
المصرية ، رقم ٣٨٦ تاريخ) .

سبط بن الجوزى - شمس الدين أبو المظفر يوسف (+ ٦٥٤ هـ) :
مختبرات من مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (مجموعة مؤرخى الحروب
الصليبية ، ج ٣) .

العصامى - عبد الله بن حسين بن عبد الله (+ ١١١١ هـ) :
سمط النجوم العوالى ، فى أنباء الأوائى والنوالى ، ج ٢ ، (مخطوطة بدار
الكتب المصرية ، رقم ٥٣ م تاريخ) .

المقريزى - تقى الدين أحمد بن على (+ ٨٤٥ هـ) :
(أ) السلوك لمعرفة دول الملوك (نشره الدكتور زبادة ، طبع دار
الكتب المصرية ، سنة ١٩٣٤ م) .

(ب) المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار (بولاق ، سنة ١٢٧٠ هـ) .
ياقوت - شهاب الدين أبو عبد الله الرومى (+ ٦٢٦ هـ) :
معجم البلدان (طبع السعادة بالقاهرة ، ١٣٢٢ هـ) .

المراجع الأجنبية

- Archives de l'Orient Latin, 2 Vols (Paris)¹
Assises de Jerusalem, t. II, (R. H. Occ. Cr.)*
Barker, Ernest : The Crusades (London, 1939).
Basile, Dr., :
Oraison Funebre de Baudoin (R. H. Occ. Cr.) Doc. Arm. t. I.
Brehier, Louis : L'Eglise et l'Orient au moyen age, les Croisades,
(Paris, 1921).
Browne, Edward : Arabian Medicine (Cambridge, 1921).
La Médecine Arabe (trad. franç. par H. P. Renaud, Paris, 1932).
Chalandon, Ferdinand :
1. Commènes t. II, (Paris 1908).
2. Essai sur le règne d'Alexis 1^{er} Comnène. (Paris, 1900).
Derenbourg, Hartuig :
1. La Vie d'Ousama, 3 Vols. (Paris)
2. Autobiographie d'Ousama (R. O. L., 1894).
3. Oumara du Yemen, sa vie et son oeuvre (Paris, 1897).
Diehl, Charles : Figures Byzantines, t. II, (Paris, 1909).
Dussaud, René : Topographie Historique de la Syrie Antique et
Medievale. (Paris 1927).
Duval, Rubens :
Histoire Politique, Religieuse et Littéraire d'Edesse jusqu'à la
première Croisade. (Journ. Asiat., 1892).
Gesta Francorum. (ed. et trad. Par Brehier).
Gaudefroy — Demombynes : La Syrie à l'époque des Mamelouks
d'après les auteurs Arabes (Paris, 1923).
Gibb, Hamilton A. R. : The Damascus Chronicle of the Crusades.
(Lond., 1934).
Grousset, René : Histoire des Croisades et du Royaume Franc
de Jerusalem. t. II. (Paris, 1934).
Heyd, Guillaume :
Histoire du Commerce du Levant au moyen age. t. I, (Leipzig, 1923).
Gregoire le Prêtre : Chroniques (Doc. Arm., t. I).

* R. H. Occ. Cr. = Recueil des Historiens Occidentaux des Croisades.,
R. O. L. = Revue de l'Orient Latin.

Gilluaume de Tyre : (G. T.). Historia — (R. H. Occ. Cr.) t. VI.

Jorga, (N.) : Brève Histoire des Croisades et de leurs Fondation en Terre Sainte (Paris. 1924).

Lamb, Harold : The Crusades : Iron Men and Saints, (New York, 1942). Lane-Poole, Stanley :

1) History of Egypt in the Middle Ages (London, 1924).

2) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem (London, 1893).

Lavisse. Ernest, Histoire de France depuis les origines jusqu' à la revolution, t. III, partes I et II. (Paris, 1923).

Le Strange, Guy :

1) Palestine Under the Moslems (Lond., 1890).

2) The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge, 1930).

Matthiew d'Edesse : Chroniques (Doc. Arm., t. I).

Michel Le Syrien : Chroniques. (Doc. Am. t. I).

Paris (P.) Historiens des Croisades, (Paris).

Précis de l'Histoire d'Egypte, t. II, (Le Caire, 1932).

Raymond d'Agiles :

Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem. R. H. Occ. Cr. t. III.

Rey. D.

a) Les Colonies Françaises de Syrie aux XII^e et XIII^e siècles (Paris, 1883).

b) Les Familles d'outre-mer (Paris. 1839).

c) Resumé Chronologique de l'Histoire des Princes d'Antioche. (R. O. L. 1896).

c) Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche (R. O. L., 1900 — 1901).

e) Les Seigneurs de Berut (R. O. L., 1896).

Riant, P. :

Hist. de l'Eglise (R. O. L. 1900).

Schlumberger, Gustave :

a) Les Campagnes du roi Amaury 1^{er} de Jerusalem en Egypte (Paris, 1906).

b) Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche, Seigneur de la terre d'outre Jourdain (Paris, 1923).

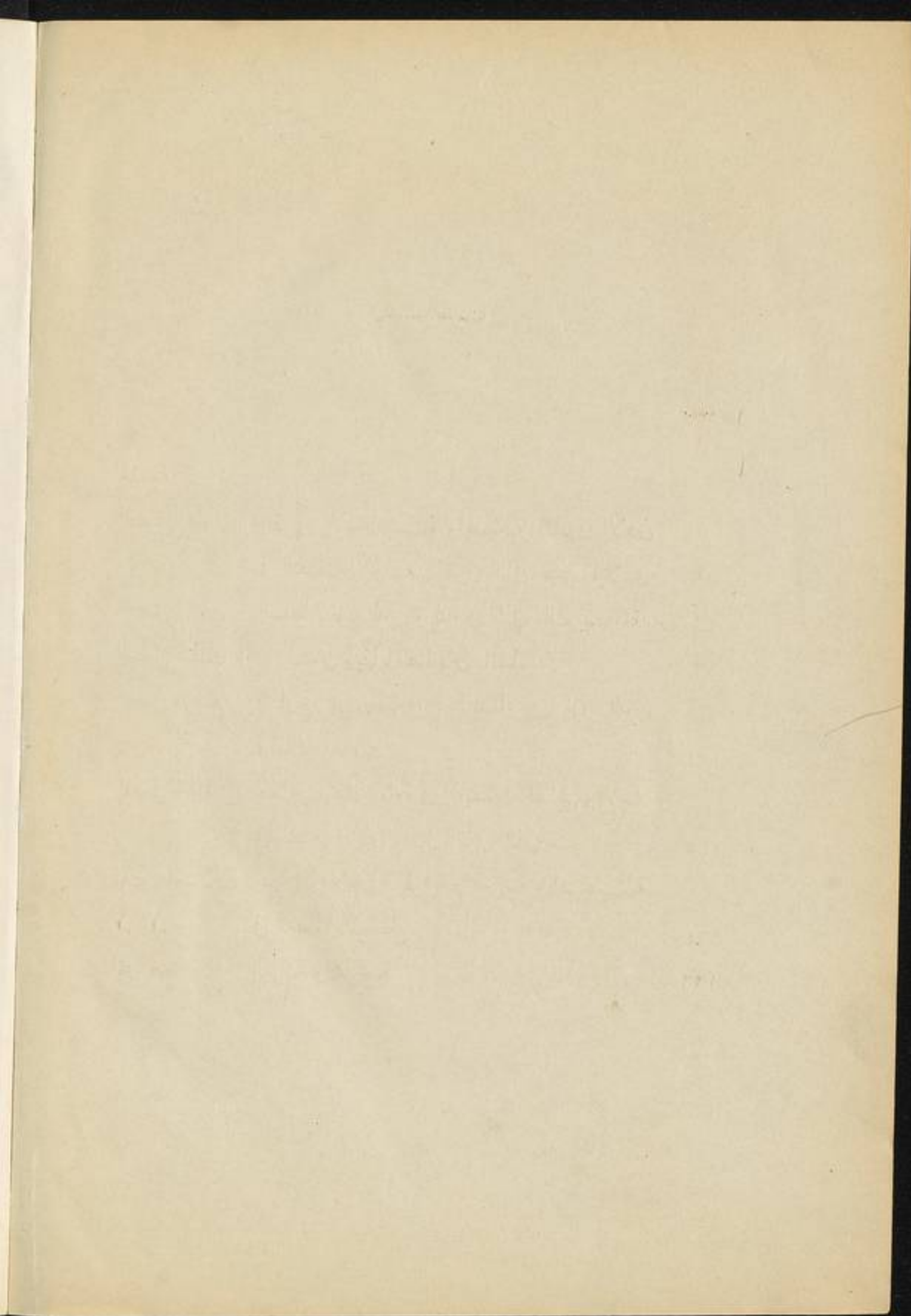
Stevenson, W. B. : The Crusaders in the East (Cambridge, 1907).

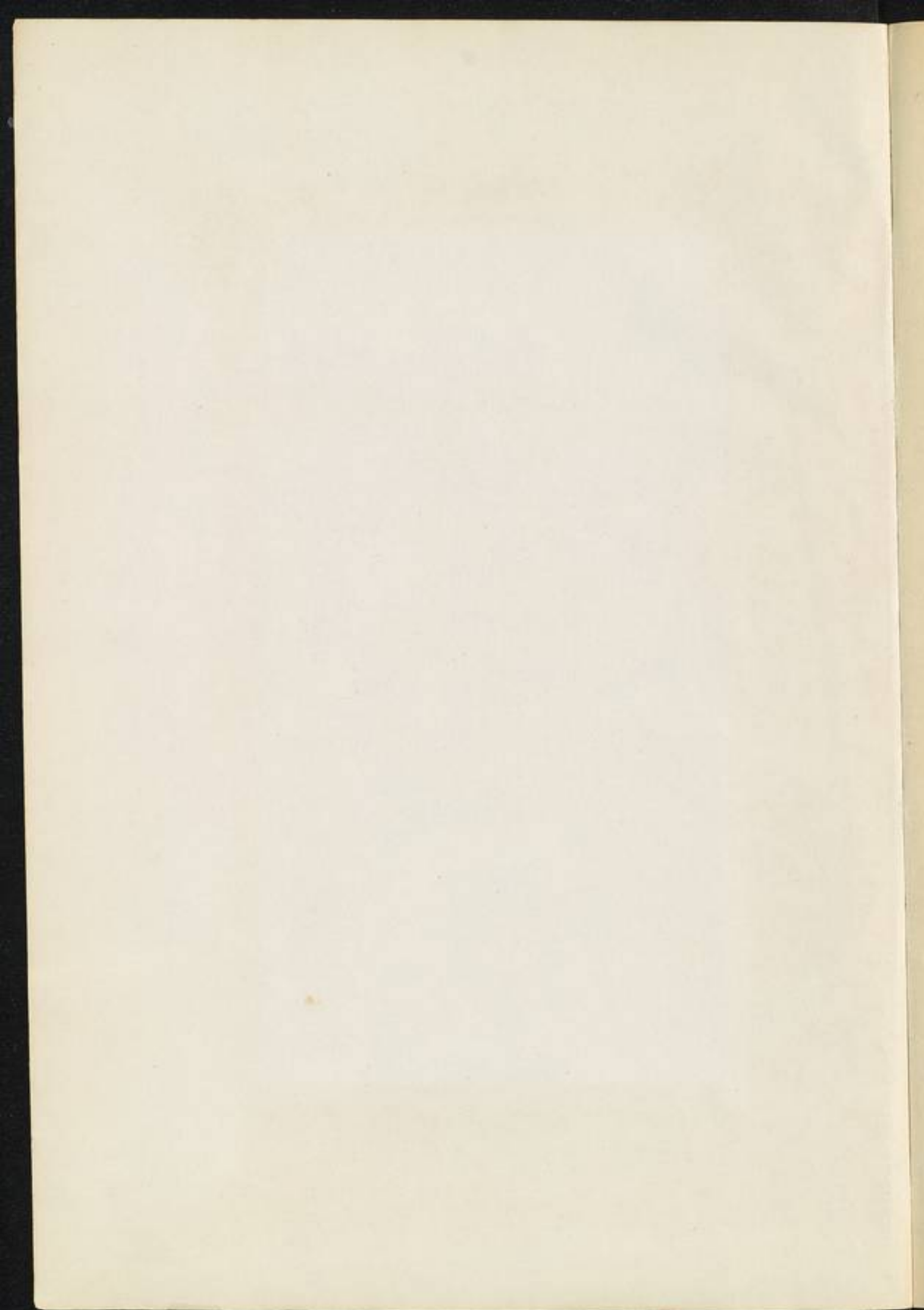
Van Berchem, Voyage en Syrie.

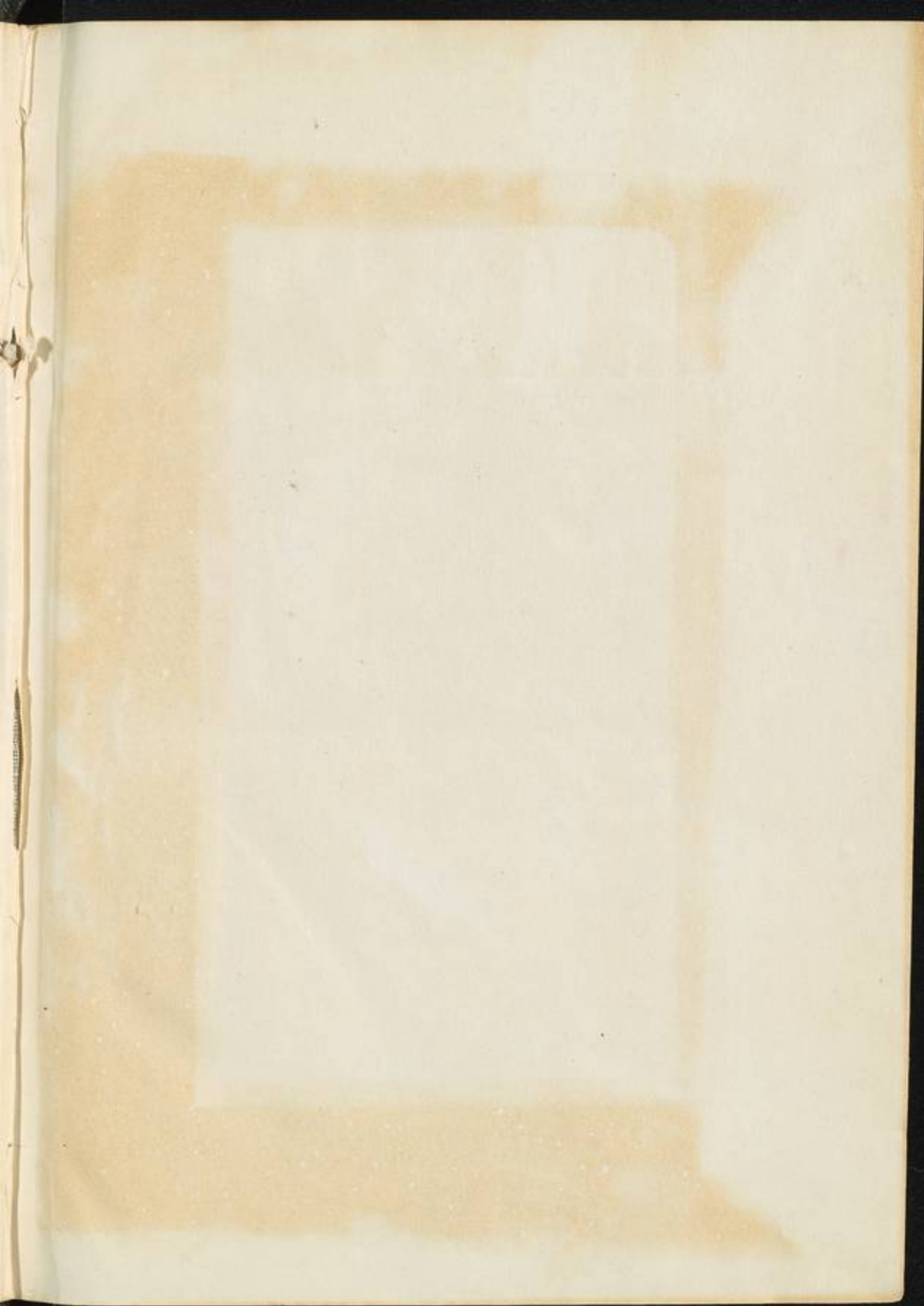
فهرست

صفحة

تصدير	١
مقدمة	
الفصل الأول : القوى الإسلامية والمسيحية بالشرق الأدنى	
في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي	٩
الفصل الثاني : السلطان نور الدين وبلدوين الثاني ملك بيت المقدس	٤١
الفصل الثالث : نور الدين وبقايا الصليبيين بالشام	٧٣
الفصل الرابع : التنازع على مصر بين السلطان نور الدين	
والملك أموري	١٠١
الفصل الخامس : مظاهر الحياة العامة في المجتمعين الصليبي والإسلامي	
في الشرق الأدنى خلال القرن الثاني عشر	١٤٥
ثبت باختلاف رسم الأعلام في المراجع العربية والفرنجية	
في العصور الوسطى	١٦٤
المراجع : العربية والفرنجية	١٦٦







893.713
H113

JUN 12 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58868755

893.713 H113

Nur al-Din wa-al-Sal

RECAP